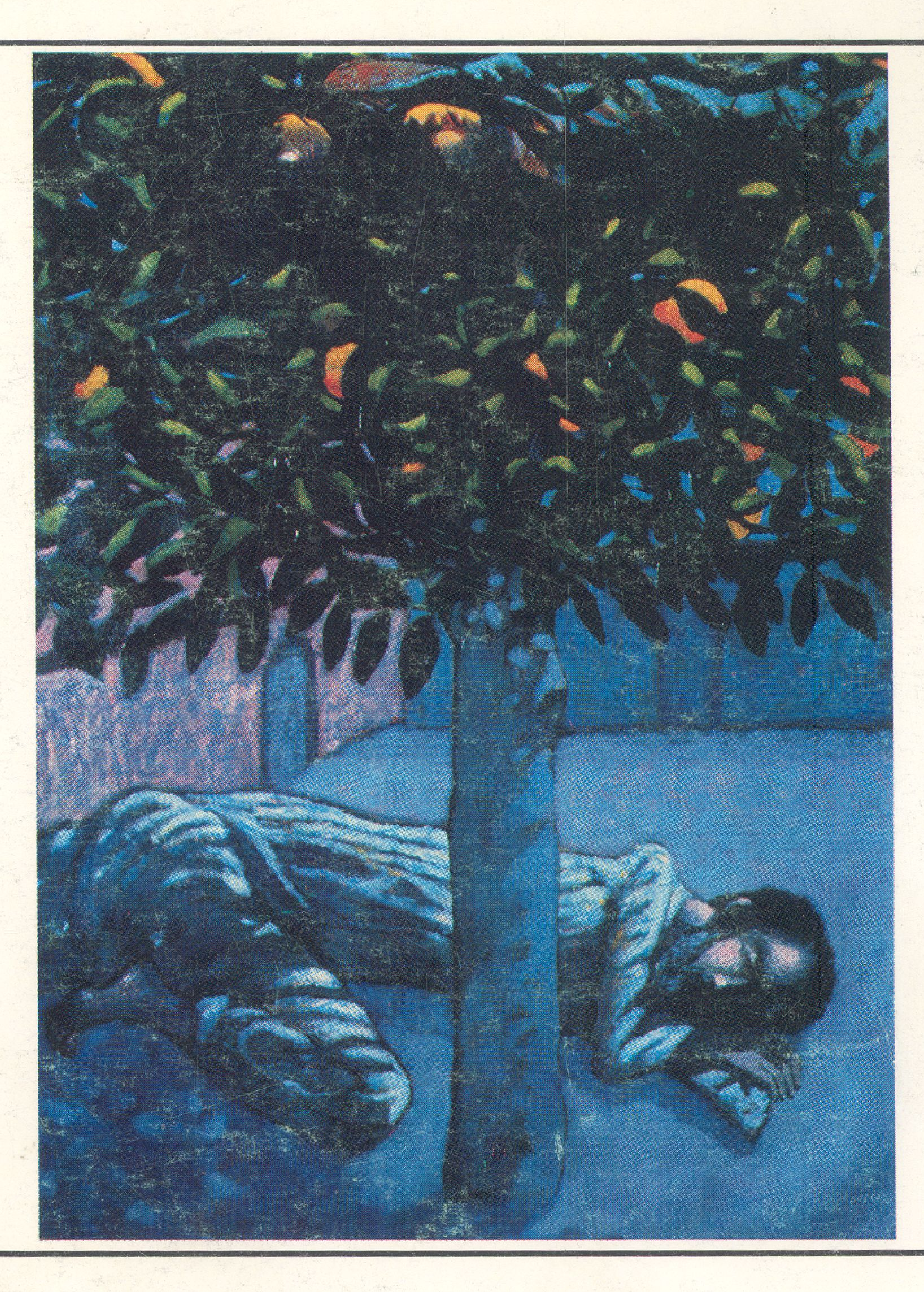
الثقافة الجديدة



284



الثقافة الجديدة

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

284

أيلول ـ تشرين الأول ١٩٩٨

محتويات العدد

5 ■ كلمة العدد

١٤ تموز ـ الذكرى الأربعون ـ ملف

7 ■ ثورة ١٤ تموز وأهدافها — نزيهة جودة الدليمي

25 ■ تقييم ثورة ١٤ تموز — حنا بطاطو

28 ■ من وثائق الحزب الشيوعي العراقي بشأن الثورة

ـ قبل الثورة بيومين

ـ توجيهات حزبية

ـ مشروع ميثاق جبهة الاتحاد الوطني

ـ حول الميثاق الجديد لجبهة الاتحاد الوطني

37 ■ الأزمة المالية في شرق آسيا — وليام تاب

49 ■ لماذا الاشتراكية؟ — البرت اينشتاين

56	■ حول «مستقبل الرأسمالية»	عـزيـز سـبـاهـي
62	■ العنف ضد المرأة ـ ضرب الزوجة كنموذج	هـادي مـحـمـود
69	■ تموز، الدهر والأسطورة والدين	رشـيـد الـخـيـون
80	■ مراكز القوى المؤثرة في إيران	حـمـيـد الـكـعـبـي
90	■ حول «قصة زوال النظام السوفييتي»	ستانسلاف مينشيكوف
96	■ قراءة في كتاب «العرب والنموذج الأمريكي»	نـبـيـه سـلـيـم

أدب وفن

104	■ وداعاً زينب ..	مهدي محمد علي
105	■ حوار مع الدكتور عوني كرومي	خـالـد سـلـيـمـان
113	■ أرض الله (مسرحية)	شـكـر خـلـخـال
129	■ ماهية الأغنية العراقية	عبد الكريم هداد
138	■ في محو عنوان الجسد (نص)	هـوشـنـك الـوزيـري
143	■ الذات والآخر وفاعلية التجسيد	عـدنـان عـبـاس
155	■ كتاب الحكايات العجيبة	مـحـمـود سـعـيـد

● لوحة الغلاف الأول : رسمي كاظم

● لوحة الغلاف الأخير : سلام الشيخ

أغلق تحرير العدد أوائل أيلول ١٩٩٨

كلمة العدد

هادي العلوي

شبح ماركس المعري*!

حين أفاق المفكر (هادي العلوي) من رقدةٍ داهمته في أوج الربيع من هذا العام (١٩٩٨).. حين أفاق واعتدل في يقظته خاطب طبيبه المنقذ، كما لو كان الطبيبُ هو المسيحَ عيسى بن مريم، الذي يحيي الموتى، لأن (العلويّ) دخل عالم الموت في أثناء تلك الغيبوبة التي دامت عشر ساعات... وعقّب (العلويُّ) على ذلك بالقول: «نعم... لقد شفتُ الموت... ولكنه لم يكن مُرّاً»!

وبعدها «قام» العلويُّ الى متابعة فعله الفكريّ الإبداعي، الذي شمل - على الدوام - حقولاً مختلفة مؤتلفة، في التاريخ الإنساني العربي والإسلامي، كما هو الحال مع شؤون الوطن الحاضرة، النابضة بالمعضلات المشتبكة، فكانت خطاه - وهي كذلك منذ كان - تجوس سهوباً وقيعاناً صفصفاً، مثلما سهولاً ممرعةً وجبالاً شُمّاً.

* تتهيأ مجلتنا - حالياً - لإصدار ملف مكرَّس للفقيد في عدد قريب.

... وظل هكذا، بل غدا أكثر نشاطاً في الكم، بعدما «شاف الموت» ـ وإن لم يكن مُرّاً ـ فراح يعمل بغزارة، حتى ابيضَّتْ عيناه، ولم يستطع المتابعة. لقد طرأ عليه ما يشبه العمى، فكان قادراً على الكتابة الاعتيادية، لا الكتابة المعجمية، حتى جاءته الرقدةُ الأخيرة، أول الخريف لهذا العام... وظلت متمسكة به، أو ربما هو الذي تمسّكَ بها، حالةَ موت في الحياة، أو حياة في الموت... ظل كذلك منذ الساعة العاشرة من صبيحة اليوم السابع من أيلول، حتى الساعة التاسعة من صبيحة اليوم السابع والعشرين... ولم يحرك ساكناً إلا مرة واحدة، رفع خلالها كفه ليلمس جبينَه، موضعَ فكره وروحه... ثم سكن بضعة أيام... ثم مضى!

... فهل كان مفكرنا (هادي العلوي) واحداً من «إخوان الصفا وخلان الوفا» جاء في زمان غير زمانهم؟!

أم هو واحد من «القرامطة» المقيمين ـ المنفيين في القرن العشرين؟!

أم تراه ذلك الفرد المنسلّ من ذلك الشبح الذي جاب أوروبا على لسان (ماركس)؟... فصار ذلك الفرد «هادياً» يجوب أيام الانحسار على لسان (هادي العلوي)، كي يُعلن (مشاعية بغداد) بعد انهيار «سدس العالم» إعلاناً لا يدل على اليأس قدر ما يدلُّ على الإصرار النبيل الذي هو معظم زوّادة الرائد الشجاع، رغم العصف الشديد!

ربما كان العلوي كلَّ أولئك، لأنه ليس واحداً محدَّداً منهم، فلقد جاور أبا العلاء في «معرَّته»، مثلما اهتدى بروح ماركس... وعايش أهل الصين، وجبل قاسيون الدمشقي، لأنه كان صوت الانفعال العقلاني... منفعلٌ بحال الناس والوطن، وعقلانيٌّ بروح الأداء الفكري المسؤول.

الثقافة الجديدة

ثورة ١٤ تموز وأهدافها

د. نزيهة جودة الدليمي

كثر النقاش والأفكار في تقييم ثورة ١٤ تموز مؤخراً. لقد عشنا الأحداث السياسية في تلك الأونة، فيصدمنا العديد من هذه الأفكار لبعدها عن واقع الظروف السائدة محلياً وعربياً ودولياً آنئذ من ناحية، ولتحزبها مع من وقفوا ويقفون ضد هذه الثورة وإنجازاتها السياسية والاقتصادية الاجتماعية. وفي كلتا الحالتين تخلو الكثير من التقييمات من الموضوعية والنظرة العلمية. فثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ كانت ثورة لها أهدافها الوطنية التحررية والديمقراطية. فهي ليست انقلاباً عسكرياً فوقياً بل حصيلة كفاح الشعب، عمالاً وفلاحين. إنها ثورة جميع الوطنيين مدنيين وعسكريين. ولم يكن الضباط إلا ذلك الجزء من الشعب الذي أناطت الحركة الوطنية به مهمة تفجير الثورة من أجل الاستقلال الوطني وتحقيق حياة كريمة تليق بالإنسان يتمتع فيها شعبنا بخيرات بلادنا الوفيرة في ظل نظام جمهوري وطني ديمقراطي.

لقد تبلورت أهداف الثورة في خضم كفاح الشعب ولم تكن مجرد اتفاق فوقي بين قادة الأحزاب والمنظمات الشعبية.

فلو تفحصنا برامج الأحزاب الوطنية في الأربعينيات لوجدنا فيها أهدافاً مشتركة عديدة حول المسائل الوطنية الأساسية الكبرى: الاستقلال الناجز والسيادة الوطنية، إلغاء معاهدة ١٩٣٠ البريطانية العراقية، إطلاق بنود الدستور المعطلة وإلغاء التعديلات فيه التي توسع صلاحية البلاط، إقامة نظام ديمقراطي حقيقي وتحقيق الحريات

الديمقراطية وضمان استقلال القضاء، النهوض بالزراعة وتحديثها وحل مشكلة الأرض وتصنيع البلاد. وفي السياسة العربية العمل على مساعدة البلدان العربية من أجل الاستقلال والسيادة الوطنية وضد الصهيونية.

وإضافة لهذه الأهداف المشتركة، تضمن الميثاق الوطني لحزبنا الشيوعي والذي أقره مؤتمره الأول عام ١٩٤٥، أهدافاً أخرى وهي: «إيقاف نهب أراضي الفلاحين والملاكين الصغار والأراضي الأميرية، وإيقاف إعطاء اللزمات الكبيرة الى الشيوخ المتنفذين وتوزيع هذه الأراضي بقطع صغيرة على الفلاحين مباشرة وبدون بدل». كما طالب بقوانين تحمي مصالح العمال، وطالب بتنفيذ قانون العمال رقم «٧٢»، وبحق العمال في تنظيم نقاباتهم وبالضمان الاجتماعي لهم. وطالب بمساواة المرأة بالرجل في الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد وضع ميثاقنا الوطني لعام ١٩٤٥ في فقرته (١٥)، أساساً لبناء التعاون الاقتصادي بين الأقطار العربية ضد شركات النفط الأجنبية وضد التغلغل الصهيوني الاقتصادي.

لقد كان حزبنا الشيوعي المبادر في طرح ثلاث مسائل هامة جداً في الفكر السياسي وهي التالية:

١ـ كتب الرفيق فهد دراسة عن «الوحدة العربية والاتحاد العربي» كخطوة تحتمها المرحلة التاريخية التي تجتازها البلاد العربية، نشرها في جريدة القاعدة العدد الثامن أيلول ١٩٤٣، أشار فيها الى المبادئ الأساسية لهذا الاتحاد العربي وهي:

١ـ أن يكون اتحاداً اختيارياً للشعوب العربية لا اتحاد ملوك العرب وأمرائهم والطبقات الحاكمة.

٢ـ أن يضم الأقطار العربية ذات السيادة الوطنية.

٣ـ أن يضم الأقطار العربية التي تمارس الديمقراطية بالفعل لا بالادعاء.

٤ـ أن يضمن كل قطر يرغب في الانضمام الى الاتحاد العربي الحقوق المتساوية التامة للأقليات القومية في ذلك القطر.

٢ـ كتب الرفيق فهد في ١٩٤٥، مقالاً في القاعدة عن القضية القومية الكردية ووحدة نضال الشعب العراقي ضد الاستعمار أكد فيه على حق تقرير مصير الشعب الكردي في البقاء الاختياري أو الانفصال. وكان هذا المقال إبان ثورة البارزاني الكردية.

٣ـ وكتب الرفيق فهد مقالاً حول «الجبهة الوطنية الموحدة» في القاعدة/ آذار ١٩٤٦. كما طرح الحزب «كراس الجبهة الوطنية الموحدة طريقنا وواجبنا التاريخي» والذي

أصدره رفيقنا الشبيبي وفيه أسس ومبادئ علاقات الأحزاب الوطنية في الجبهة الموحدة.

ومنذ أواخر عام ١٩٤٥ بدا التضامن واضحاً بين الأحزاب الوطنية اليسارية، ثم تطور الى مواقف موحدة من قضايا النضال اليومي. وتتوج هذا التقارب والتضامن بين الأحزاب الوطنية بتشكيل «لجنة التعاون الوطني» لقيادة مظاهرات وثبة كانون الثاني ١٩٤٨ ضد معاهدة بورتسموث. وفي مطلع الخمسينيات حدثت تطورات نوعية في المنطقة أثرت في الحركة الوطنية العراقية فاغتنت أهدافها بمضامين جديدة. فقد أدى تاميم النفط في إيران الى معركة سياسية وطنية من أجل تأميم شركات النفط في العراق. ورغم أن معركة تأميم النفط، التي بدأت في آذار ١٩٥١، وكانت عملاً وطنياً مشتركاً واسعاً اشترك فيه نواب المعارضة في البرلمان مع مظاهرات وإضرابات العمال والطلاب والشباب في المدن، على أنها لم تنجح في تحقيق هذا الهدف، وتمكن نوري السعيد من خلال القمع والتهديد وإعلان الأحكام العرفية، أن يتفاوض مع الشركات التي تمكن من عقد اتفاقية المناصفة في الأرباح معها في ١٤/٢/١٩٥٢. وفي ١٥/٢/١٩٥٢ نشرت صدى الأهالي بياناً وقعه الحزب الوطني الديمقراطي، والاستقلال والجبهة الشعبية وممثلو النقابات واتحادات الشبيبة والطلبة ورجال الدين يفضحون به المؤامرات الامبريالية لمشعلي الحروب في الشرقين الأدنى والأوسط بهدف التحضير لحرب عالمية جديدة وتحقيق سيطرة أمريكا وبريطانيا على العالم.

وفي ٢٣ تموز ١٩٥٢ قامت الثورة ضد النظام الملكي فاتسعت في العراق حركة المطالبة بالإصلاح الدستوري ومن أجل الحريات الديمقراطية والدستورية وإلغاء حق البلاط في إقالة الوزارة من الدستور وتطبيق مبدأ الانتخاب المباشر وضمان حرية القضاء، ومنح حرية تأليف النقابات والجمعيات وإعلان العفو عن السجناء السياسيين. وتضمنت مذكرات الأحزاب الوطنية الى الوصي الى جانب ذلك هدف «إلغاء الإقطاع وإزالة كل قانون أو نظام من أجل تثبيته، وتحديد الملكية الزراعية بحد أعلى وتوزيع الأراضي المستملكة والأميرية على الزرّاع الحقيقيين، وزيادة حصة الفلاح من الحاصل وفرض الضرائب التصاعدية على الدخل الكبير وتحرير الاقتصاد الوطني من الاستغلال والسيطرة الأجنبية وتشجيع استثمار رأس المال الوطني في الصناعة الوطنية والمشاريع الاقتصادية». ثم تبنى الحزب الديمقراطي الكردستاني عام ١٩٥٣، هدف الإصلاح الزراعي ونادى بتحسين أحوال الفلاحين ومحاربة الإقطاع وطالب بتأميم

النفط. وفي أواسط الخمسينات طالب حزبنا بتأميم النفط والخروج من الطوق الاسترليني، وبالإصلاح الزراعي وغيرها من الأهداف الوطنية التي تضمنها الميثاق الوطني لحزبنا.

وتطور التعاون الوطني خلال انتفاضة ت٢/ ١٩٥٢: ففي ١٧/١١/١٩٥٢ اجتمع كامل الجادرجي عن الحزب الوطني الديمقراطي وطه الهاشمي عن الجبهة الشعبية وفائق السامرائي (الاستقلال) وعبد الوهاب محمود (أنصار السلام) واتفقوا على أن تتألف «لجنة ارتباط» لتقديم الاقتراحات فيما يتطلبه الموقف السياسي، وتعرض اقتراحات اللجنة على الأحزاب لتنفيذ ما يجمع عليه الرأي. ثم تطور التعاون الوطني من العمل المشترك الى مستوى أعلى بتحالف الأحزاب الوطنية في الجبهة الانتخابية الوطنية عام ١٩٥٤، حيث نص الميثاق الانتخابي على: ١ـ إطلاق الحريات الديمقراطية. ٢ـ إلغاء معاهدة ١٩٣٠ والقواعد العسكرية وجلاء الجيوش الأجنبية ورفض جميع المحالفات العسكرية بما فيها الحلف التركي ـ الباكستاني أو أي نوع من أنواع الدفاع المشترك. ٣ـ الدفاع عن حرية الانتخابات. ٤ـ رفض المساعدات العسكرية الأمريكية التي يراد بها تقييد سيادة العراق وربطه بالمحالفات العسكرية الاستعمارية. ٥ـ العمل على إلغاء امتيازات الشركات الأجنبية الاحتكارية. ٦ـ تحقيق العدالة الاجتماعية وإنهاء دور الإقطاع وحل المشاكل الاقتصادية القائمة وتشجيع الصناعة وحمايتها ورفع مستوى معيشة الشعب.

وجرى توقيع هذا الميثاق في ١٢/ ٥/ ١٩٥٤ من قبل ممثلي حزب الاستقلال والوطني الديمقراطي وممثل الفلاحين وممثل العمال وممثل الشباب وممثل الأطباء وممثل المحامين وممثل الطلاب. وتمكنت هذه الجبهة من تحقيق انتخاب (١٢) نائباً رغم التدخل الفظيع بل الإرهابي في عملية الانتخاب.

لكن في آب ١٩٥٤ استصدرت حكومة السعيد مراسيم تعطل الدستور وتلغي هامش الحريات الديمقراطية وتحل البرلمان لتأتي ببرلمان «التزكية» الذي أرادته ليبصم بالموافقة على ارتباط العراق بالأحلاف العسكرية الاستعمارية. وكان عمل نوري السعيد هذا باتفاق تام مع الوصي عبد الإله وبتحد سافر لإرادة الحركة الوطنية العراقية.

كان من إحدى نتائج الجبهة الانتخابية ونشاطها لتشجيع الوطنيين داخل الجيش العراقي على تنشيط منظماتهم أو تأسيس منظمات جديدة لهم. فتشكلت اللجنة الوطنية لاتحاد الضباط وضباط الصف والجنود. وفي خريف ١٩٥٤ التقى رفعت الحاج سري مؤسس منظمة الضباط الأحرار مع عبد الكريم قاسم الذي كان له تنظيمه الخاص في

معسكر المنصور. هذا وقد أخبر قاسم صديقه اسماعيل العارف في تشرين الأول ١٩٥٤ بأنه يملك صلات مع أحزاب وطنية لها نفوذها في الشارع السياسي، وكان يشير بذلك الى صلته بحزبنا عن طريق وصفي طاهر العضو النشيط في الضباط الأحرار حيث كان الرفيق سلام عادل على صلة وثيقة به. وقد لعب وصفي طاهر دوراً فعالاً في وحدة المنظمات العسكرية الوطنية وبأساليب تتسم بأرقى أشكال التنظيم السري لها.

بعد انضمام العراق الى حلف بغداد عام ١٩٥٥، عزلت الطغمة الحاكمة في العراق بلادنا عن البلاد العربية وتعرت تبعية الدولة العراقية للسياسة البريطانية والأمريكية وأصبحت مقاومة الحركات الاستقلالية في الأقطار العربية من المعالم الرئيسية لسياسة العراق الخارجية. في حين سارت جمهورية مصر العربية بطريق الاستقلال ولاقت بذلك إسناد عدد من الحكومات في سورية ولبنان والأردن والسعودية ومجلس الجامعة العربية، خاصة بعد أن أممت مصر قنال السويس. ومن هنا فإن الحركة الوطنية العراقية وجهت اهتمامها الى التضامن مع مصر ومع التيار العربي المعادي للاستعمار وللأحلاف العسكرية الاستعمارية.

لقد رأى حزبنا آنئذ أهمية التأكيد مجدداً على المبادئ الأساسية لسياسة الحزب الشيوعي القومية، فوثيقة الكونفرنس الثاني لحزبنا الذي انعقد في أيلول ١٩٥٦ أكدت على أن الطريق الى الوحدة العربية ينفتح على أساس زوال الاستعمار من العالم العربي وتحقيق وتعميم الإصلاحات الديمقراطية، وأن كل تعاون على أساس معاد للاستعمار هو خطوة الى الأمام في طريق الوحدة العربية، وحبذت الوثيقة الاتحاد الفدرالي الذي يتوج تطور التعاون الاقتصادي والسياسي كخطوة نوعية في طريق الوحدة العربية المنشودة. كما أكدت الوثيقة على أن الاستقلال الذاتي لكردستان العراق وفق اتحاد اختياري كفاحي أخوي هو تدبير موقوت بظروفه ولا يمكن أن يكون بديلاً عن حق تقرير المصير للأمة الكردية. وأن الاعتراف المتبادل بحق تقرير المصير وبمشروعية طموح الشعبين العربي والكردي في العراق الى التحرر والوحدة القومية هو الأساس الصخري الذي تقوم عليه وتتطور الأخوة العربية الكردية في الكفاح المشترك ضد الاستعمار. ومن المعروف أن حق تقرير المصير للشعب الكردي لم يكن آنئذ مستوعباً من الأحزاب الوطنية عدا الحزب الشيوعي فهذه الحقيقة كانت وراء عدم قبول الحزب الديمقراطي الكردستاني في جبهة الاتحاد الوطني، فأقيم تنسيق ثنائي بينه وبين الحزب الشيوعي.

لقد جاء بيان جبهة الاتحاد الوطني الى الشعب العراقي الذي صدر في ٩ آذار ١٩٥٧

تتويجاً لمواقف النضال المشترك المار ذكرها، مثل الموقف من شركات النفط الاحتكارية والإصلاح الزراعي والتصنيع والخروج من المنطقة الاسترلينية... الخ، فليس من الصحيح القول بأن هذه الجبهة لم تحدد موقفها من بعض المشاكل الحيوية الاقتصادية، والاجتماعية، حيث راعت صيغة الأهداف الخمسة للجبهة الأولويات التي يجب أن تعالجها الثورة الوطنية المقبلة. فاعتبرت أن تنحية وزارة نوري السعيد وحل المجلس النيابي هي الخطوة الأولى لأية سياسة وطنية محتملة تحقق الأهداف الوطنية الكبرى التي أجمع عليها العاملون في الحركة الوطنية وفي مقدمتها الخروج من حلف بغداد وتوحيد سياسة العراق مع سياسات البلدان العربية المتحررة، وإطلاق الحريات الديمقراطية والدستورية وإعلان العفو العام عن السجناء السياسيين وإطلاق سراحهم وإلغاء الإدارة العرفية وإعادة المفصولين لأسباب سياسية. لقد شخصت جبهة الاتحاد الوطني لدى تأسيسها الحلقة الرئيسية في سلسلة الأهداف الوطنية ألا وهي التحرر من الاستعمار وتحقيق الحريات الديمقراطية الدستورية وبترابط وثيق بين الأهداف الوطنية والديمقراطية بشقيها السياسي والاقتصادي. وتضمنت قرارات الجبهة بعد ذلك التدقيق الملموس للموقف من العلاقة مع الجمهورية العربية المتحدة والبلدان العربية، وذلك في بيان صدر في نيسان ١٩٥٨ بعد الوحدة بين مصر وسورية، حيث تم الإقرار فيه بصيغة «الاتحاد الفدرالي» للعلاقة بين البلاد العربية وبتوقيع أحزاب جبهة الاتحاد الوطني الأربعة: الوطني الديمقراطي، الشيوعي، الاستقلال والبعث. أما برنامج اللجنة العليا للضباط الأحرار فقد تضمن الأهداف الوطنية ذاتها ووضع بالملموس كيفية التخلص من الحكم الملكي ـ السعيدي، وإقامة الجمهورية العراقية.

إن نقطة الضعف الأساسية في البرنامجين، كما أرى، كانت في مجال السلطة السياسية الانتقالية التي تلي نجاح الثورة مباشرة، وفي قصور تصورات اللجنة العليا للضباط الأحرار للنظام السياسي المقبل في العراق. ويبقى السؤال مطروحاً: هل كان هناك اتفاق أو وضوح حول دور الجيش بعد نجاح الثورة، أو حول آلية رجوعه الى الثكنات ليفسح المجال لمؤسسات نظام الحكم الديمقراطي بعد فترة انتقال محددة؟ وهل أن الهيئات التي سمتها اللجنة العليا للضباط الأحرار: مجلس السيادة ومجلس الوزراء ومجلس الثورة، هي مؤسسات للفترة الانتقالية أم أنها صيغة دائمة لنظام الحكم؟ إن هذه الثغرات كانت في خلفية عجز الحركة الوطنية عن إقامة نظام الحكم الديمقراطي والآثار الوخيمة لذلك على تطور الدولة العراقية الديمقراطي.

النظام السياسي بعد ثورة ١٤ تموز

لقد نجحت الثورة في إلغاء النظام الملكي وتأسيس الجمهورية، ولكنها فشلت في إرساء الحكم على أسس ديمقراطية وإقامة نظام الحكم الديمقراطي.

إن الحكم الذي جاء بعد انتصار الثورة هو برأيي صيغة من صيغ الحكم العسكري، فقد كانت مؤسسات هذا الحكم هي:

١ـ **مجلس السيادة**، الذي عينه عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف وضم محمد مهدي كبة زعيم حزب الاستقلال وشخصين عسكريين. ولم يمارس مجلس السيادة أية سلطة حقيقية بل كانت وظيفته بموجب الدستور المؤقت هي المصادقة على قرارات مجلس الوزراء والمساهمة في نقاشاته.

٢ـ **مجلس الوزراء**: لقد ضمت الوزارة الأولى بعد الثورة ممثلي أحزاب جبهة الاتحاد الوطني عدا الحزب الشيوعي مع عدد ضاف من المستقلين مدنيين وعسكريين. ولم يثر موضوع عدم اشتراك الحزب الشيوعي في الوزارة من قبل الوزراء من أحزاب الجبهة مما ينم على التصدع المبكر في جبهة الاتحاد الوطني التي تجاهلها هؤلاء الوزراء.

كان موقف الوزراء من رئيس الوزراء محكومة بكونهم جاءوا الى الوزارة باختياره هو وليس نتيجة عملية انتخابية أو تمثيلية. لقد أعطى الدستور المؤقت لمجلس الوزراء السلطتين التشريعية والتنفيذية، وضمن لرئيس الوزراء الحرية في اختيار وزرائه.

أما عن الدستور الذي ناضل جميع الوطنيين من أجل تعديله وتقليص صلاحيات البلاط فيه، ومن أجل إطلاق بنوده المتعلقة بالحريات الديمقراطية الدستورية، فإنه عومل معاملة غير سليمة، فاعتبره وزير الإرشاد، حسين جميل، أنه سقط من تلقاء نفسه بعد حدوث الانقلاب السياسي وذلك في تصريح له الى صحيفة البلاد بتاريخ ١٨ تموز ١٩٥٨. كما أكد قاسم يوم ٢٧ تموز قبل قراءة نصوص الدستور المؤقت بأن القانون الأساسي قد انهار فعلاً يوم ١٤ تموز، كما في جاء في بيانه: «أن الثورة. . . قررت أن تتخذ لها دستوراً مؤقتاً يعين أسس الحكم الجديد الى أن يتم تشريع الدستور الدائم باستفتاء يعرب فيه الشعب بحرية تامة عن رأيه بأسلوب الحكم الديمقراطي الذي يختاره بنفسه». ولكن الدستور المؤقت لم يحدد أمداً لفترة الانتقال، مما جعلها ملاذاً للحكم من رقابة الأحزاب والمنظمات الديمقراطية وفعلها لإنهاء فترة الانتقال.

وهنا يجب ملاحظة أن المادة الثانية من الدستور المؤقت قد نصت على أن «القوات

المسلحة في الجمهورية العراقية ملك للشعب ومهمتها حماية سيادة البلاد وسلامة أراضيها» في حين كانت صيغة من الحكم العسكري تحكم البلاد.

ومع كل ذلك تعامل حزبنا مع هذا الواقع الجديد بمرونة وإيجابية، وانتهج طريق صيانة الجمهورية الوطنية. فأكد في مذكراته الى رئيس الوزراء في الأسابيع الأولى من الثورة على أن الحصول على الانتصار أسهل بكثير من الحفاظ عليه، وأكد على أهمية الاعتماد على الشعب وتسليحه والثقة التامة بجماهيره ومنظماته الواعية. ولم يكف الحزب عن انتقاد الحكومة وذلك عبر الضغط عليها من أسفل بالكفاح الجماهيري المطلبي، ولم ينهج الحزب نهج الاكتفاء بتأييدها لمجرد أنها حكومة وطنية.

لقد بين رفيقنا الشهيد سلام عادل في تقريره الى اجتماع لجنة حزبنا الشيوعي المركزية الموسع في أيلول ١٩٥٨: أن السلطة القائمة التي أسفرت عنها ثورة ١٤ تموز الظافرة هي «سلطة بورجوازية وطنية ثورية» ولكنها لا تمثل كافة القوى الوطنية التي ساهمت في الثورة... ومن هنا نجد التناقض بين واقع تركيب القوى المساهمة في الحركة الوطنية وبالثورة، وبين واقع القوى التي أخذت بيدها زمام السلطة. واعتبر التقرير هذا التناقض، السبب الرئيسي الذي يؤدي الى الخلافات داخل الحركة الوطنية. وأكد الاجتماع أنه بإمكاننا بالإستناد على تعبئة الجماهير، تخفيف هذا التناقض ومن ثم إزالته الى حد بعيد، وأن العائق الرئيسي في معالجة هذا التناقض هو التهويش ضد الشيوعية والحزب الشيوعي كستار تختفي وراءه أقذار الاستعمار والرجعية. وجدد الاجتماع تأكيده بهذا الصدد على إطلاق الحريات الديمقراطية وبصورة خاصة حرية التنظيم الحزبي والنقابي والاجتماعي وحرية النشر والصحافة لكل طبقات الشعب المناوئة للاستعمار، ومن ثم تهيئة الظروف الديمقراطية اللازمة لانتخاب **مجلس تأسيسي**، على أساس التصويت العام السري والمتساوي والمباشر ومن أجل وضع دستور ديمقراطي للبلاد.

كانت وسيلة الكفاح الجماهيري المطلبي والضغط من أسفل على الحكومة قد أتت أكلها في تحقيقه الكثير من المكاسب الديمقراطية والوطنية في العام الأول من الثورة كان يمكن أن تؤدي بالتالي الى تحقيق النظام الديمقراطي المنشود، لولا تراجع اجتماع اللجنة المركزية لحزبنا وقراراته الكارثية في تموز ١٩٥٩، نتيجة بروز التيار اليميني في المكتب السياسي وامتلاكه الأكثرية فيه ونفوذه من ثم بين الكثير من أعضاء اللجنة المركزية.

أما عن حرية التنظيم الحزبي، فإن قانون إجازة الأحزاب لم يشرّع إلا في كانون الثاني ١٩٦٠ فعرّف القانون المذكور الحزب بأنه «جمعية ذات أهداف سياسية» واحتوى القانون على فقرات رجعية اقتبسها من قانون الجمعيات في العهد الملكي.

أما عن مطلب اشتراك الحزب الشيوعي في الحكم، فهناك فرق كبير بين اعتباره وسيلة للضغط من أسفل على الحكومة من أجل تهيئة الظروف الديمقراطية اللازمة لإرساء الحكم على أسس ديمقراطية كما جاء في قرارات ل. م. أيلول ١٩٥٨، وبين أن يكون هدفاً لشل عملية الضغط الجماهيري من أسفل عن طريق إضافة وزراء شيوعيين يكونون في ظل وضع الحكم آنذاك تحت امرة العسكريين. وهناك فرق نوعي بين هذا النوع من الاشتراك، وبين الحكومة الائتلافية المسندة من أكثرية برلمانية عن طريق الانتخاب وبموجب دستور ديمقراطي، فعند ذاك فقط يمكن الكلام عن فائدة تزاوج وسائل الضغط من أسفل ومن أعلى. لقد بينت تجربة حزبنا الثورية، عدم جدوى اشتراك حزبنا في وزارة تجيء بالتعيين وليس كنتيجة لأكثرية برلمانية، سواء كان ذلك إبان اشتراكنا في وزارة تموز ١٩٥٩، والتي ترافقت مع تراجع اللجنة المركزية في تموز ١٩٥٩، أو إبان اشتراكنا في الوزارة في السبعينيات.

ومن تجربتي الشخصية في الاشتراك في وزارة تموز ١٩٥٩، وجدت أنه من العسير علي أن أقوم بدور فعال في طرح مشاريع القوانين التي لا يرتضيها رئيس الوزراء. لم أجد صعوبة مثلاً في المساهمة في تشريع لائحة قانون الأحوال الشخصية الذي كان حائزاً على موافقته، وجدت من المستحيل إبدال أو إلغاء أي من المواد الرجعية في قانون الجمعيات لعام ١٩٦٠، أو حتى في عرض لائحة قانون البلديات الذي أعدته لجنة خاصة كونتها وزارة البلديات برئاسة الدكتور صفاء الحافظ حول انتخابات مجالس البلديات، إذ بقيت هذه اللائحة في أدراج ديوان رئاسة الوزارة تنتظر دورها للدخول في جدول العمل لمدة ما يقارب السنة وحتى خروجي من الوزارة.

ما حققته ثورة ١٤ تموز

١ـ الاستقلال السياسي

في ٢٤ آذار ١٩٥٩، قدمت وزارة الخارجية العراقية الى سفراء تركيا وإيران وباكستان وبريطانيا مذكرة تعلن الانسحاب من حلف بغداد، وبينت بأن ثورة ١٤ تموز قد استهدفت تحرير العراق من كل قيد أو معاهدة أو اتفاق يمس سيادة الجمهورية

العراقية. وقد نصت المذكرة «إن ثورة ١٤ تموز قد أحدثت تبدلاً جوهرياً في كيان العراق الداخلي كان من أبرز مظاهره تغيير نظام الحكم وقيام الجمهورية في البلاد، حيث أصبحت تعبر عن رغبة الشعب بوجوب قيام تعاون وثيق بين حكومته وبين الدول كافة على أساس الصداقة وعلى قدم المساواة وفقاً لمصالحه المتبادلة معها، وللعمل في سبيل حفظ السلام في العالم تمشياً مع مبادئ ميثاق الأمم المتحدة واتباع سياسة الحياد الإيجابي. . وإن بقاء العراق طرفاً في ميثاق بغداد لا يتماشى مع سياسة الحياد الإيجابي، كما أنه لا ينسجم مع رغبات الشعب العراقي الذي أعرب عن معارضته للحلف».

وقد ترتبت على انسحاب العراق من حلف بغداد الآثار التالية:

آ ـ الانسحاب من الاتفاق العراقي ـ البريطاني الذي حل محل معاهدة ١٩٣٠ العراقية ـ البريطانية قبيل ضم العراق الى حلف بغداد، وبذلك استكمل العراق استقلاله السياسي.

ب ـ ألغت الحكومة العراقية في ١٤ مايس ١٩٥٩، ثلاث اتفاقيات عقدها النظام الملكي مع الولايات المتحدة وهي: اتفاقية الأمن المتبادل مع أمريكا والمعقودة عام ١٩٥٤، واتفاقية المساعدات العسكرية والاقتصادية المعقودة عام ١٩٥٥، ثم اتفاقية المساعدة العسكرية وفقاً لمبدأ آيزنهاور (المشروطة بشروط سياسية) والمعقودة عام ١٩٥٧.

وسعت حكومة الثورة الى إقامة علاقات الصداقة مع جميع دول العالم وقامت بتوسيع العلاقات والروابط الودية في مختلف الميادين مع الدول الاشتراكية. ورفض العراق بسياسته الخارجية تدخل الاستعمار في شؤون البلاد العربية وقاوم ذلك عن طريق تقديم المساعدات المادية لشعبي الجزائر وفلسطين.

ومن ناحية أخرى حافظت حكومة الثورة على كيان العراق ورفضت الوحدة الفورية الاندماجية مع الجمهورية العربية المتحدة. إن اتباع سياسة الحياد الإيجابي والخروج من دائرة الأحلاف العسكرية قد أدى الى إنقاذ البلاد العربية من أخطار الحرب، وأدى الى إطلاق طاقات العراق ليلعب دوراً بناءً في السياسة الدولية.

٢ـ الإصلاح الزراعي: نص الدستور المؤقت في مادته الـ١٤ على أن: «آ ـ الملكية الزراعية تحدد وتنظم بقانون. ب ـ تبقى حقوق الملكية الزراعية مصونة بموجب القوانين المرعية الى حين استصدار التشريعات واتخاذ التدابير الضرورية لتنفيذها». وبموجب هذا النص قرر مجلس الوزراء تأليف «لجنة الإصلاح الزراعي» لوضع لائحة قانون الإصلاح الزراعي. وكانت هذه اللجنة تضم عدداً من الملاكين الكبار عرباً وأكراداً وعدداً من الأخصائيين الزراعيين والقانونيين برئاسة الوزير هديب الحاج حمود وزير الزراعة،

وهو من قادة الحزب الوطني الديمقراطي، كما ضمت اللجنة أعضاء آخرين من أحزاب جبهة الاتحاد الوطني بما في ذلك حزبنا الى جانب الوطنيين المستقلين. ودون الدخول في تفاصيل رقمية حول ملكية الأرض والتراتب الطبقي في الريف عام ١٩٥٨، فإن الذين كانوا لا يملكون شبراً من الأرض من الفلاحين أكثر من ٤٥٠ ألف عائلة وإذا أضفنا إليهم الفلاحين الفقراء ممن تعوزهم الأرض من الحائزين يبلغ عددهم حوالي ٣,٥ مليون نسمة في حين كان سكان الريف ٣,٨ مليون نسمة، أما أصحاب المساحات الكبيرة من الحيازات الزراعية فكانت نسبتهم لسكان الريف حوالي ٣٪ ويمتلكون ٦٩٪ من مجموع مساحة الحيازات. وأما المجموعة الثالثة فكانت من الفلاحين المتوسطين والأغنياء والملاكين الصغار فكانت تشكل حوالي ٨٪ من سكان الريف.

فكرة الملكية الخاصة بالأرض سواء كانت ملكية كبيرة أم فلاحية وجدت تأييداً اجماعياً في لجنة الإصلاح الزراعي وكذلك فكرة الحدين الأعلى والأدنى، ولكن الخلافات برزت حول الحد الأعلى للملكية الزراعية، وحق الاختيار، ومبدأ التعويض، ومناهج ومبادئ عملية الاستيلاء ومدتها، وتوزيع الأراضي المستولى عليها على الفلاحين وحده الأدنى. وكانت الآراء حول هذه المسائل تسير في خطين متعارضين بين حزبنا الشيوعي والحزب الوطني الديمقراطي.

كان التقرير المعنون «ملاحظات أولية عن الإصلاح الزراعي المنشود في العراق»[١] والذي وضعته لجنة حزبية مختصة في حزبنا، ينطوي على موقف الحزب[٢] كما يلي:

١ـ إن الإصلاح الزراعي الجذري والشامل «هو الطريق الوحيد الذي يحرر القوى المنتجة في الريف ويجتث النظام الاقطاعي ويطلق الطاقات الخلاقة للفلاحين ويرفع مستوى معيشتهم ويفتح الطريق أمام تصنيع البلاد».

٢ـ «توزيع الأراضي على الفلاحين لاسيما الفقراء منهم مع المحافظة على الملكيات الصغيرة لمتوسطي وأغنياء الفلاحين ومن يوازيهم من صغار الملاكين فيضمن إنهاء الاستغلال الإقطاعي في الريف».

٣ـ «إن الإصلاح الزراعي الجذري المقترح في تقرير الحزب الشيوعي لا يتناقض ومصلحة البورجوازية في الأساس بل هو يوفر التربة الصالحة في الريف لنمو العلاقات الرأسمالية» (...).

وهنا أريد التنويه أن الإقطاعيين الكبار الذين كانت ملكيتهم تتعدى ٢٠ ألف دونم كان عددهم (١٠٤) عائلة فقط في جميع أنحاء العراق، وقد نشر حنا بطاطو أسماء أكثر من

(٦٠) عائلة منهم في كتابه «العراق» هؤلاء تردد اسمهم في العديد من المؤامرات والفتن التي عانى منها العراق بعد ثورة تموز، فقد كانوا يمولون النشاط التخريبي ويساهمون مساهمة فعالة في زعزعة النظام، خاصة بعد أن بدأت انتكاسة الثورة في أواسط ١٩٥٩. ومن هنا فإن عدم اجتثاث جذور الإقطاع في الريف والسماح لأقطابهم بالرجوع الى الريف وممارسة الإرهاب ضد الفلاحين قد أدى الى رفع معنوية الرجعية عامة وإضعاف ثقة فقراء الفلاحين بالثورة وتجنبهم الوقوف الى جانب الحكومة الوطنية إبان انقلاب شباط ١٩٦٣ الأسود.

٣ـ التحرر من التبعية الاقتصادية والطريق الوطني المستقل للتنمية:

في مرافعته الشهيرة حين حاكمه انقلابيو شباط، قال الاستاذ ابراهيم كبة، وزير الاقتصاد في حكومة الجمهورية: إن من أبرز خصائص الاقتصاد العراقي في العهد الملكي كانت: **١ـ التبعية الكاملة للاقتصاد الاستعماري** وعلى الأخص في القطاع النفطي والتمويلي والمصرفي والنقدي وقطاع التجارة الخارجية وفي قطاع التنمية الاقتصادية بعد قيام مجلس الإعمار عام ١٩٥٢. وعلى ذلك كان علاجه السريع للتبعية عبر قرار الحكومة الوطنية الخروج من الكتلة الاسترلينية وإلغاء مجلس الإعمار.

٢ـ **التخلف في تركيب الهيكل الاقتصادي**، وكانت مظاهره هي غلبة الطابع الزراعي وتفاهة القطاع الصناعي، وغلبة الطابع الاستهلاكي مما ادى الى اختلال الموازين الرئيسية للاقتصاد الوطني كالميزان التجاري والميزان النقدي والميزانية المالية العامة الى ضآلة الانتاج واختلال التوزيع.

٣ـ توجيه الاقتصاد الوطني وجهة تؤدي به الى **التكامل التابع للرأسمال العالمي** وتعزله عن التكامل مع الاقتصاد في الأقطار العربية المتحررة. . .

ولمعالجة هذه الخصائص السلبية استهدفت وزارة الاقتصاد في الحكومة الوطنية أن يكون **للقطاع النفطي، القطاع الرئيسي** الذي يلعب الدور القيادي في حركة التحرر الاقتصادي وفي بناء الاقتصاد الجديد، حيث بدا واضحاً بأن تحرير هذا القطاع من النفوذ الاستعماري يشكل حجر الزاوية في الاقتصاد الوطني السليم. لقد وضع الأستاذ ابراهيم كبة خطة طويلة الأمد ومتعددة المراحل تستهدف في النهاية تحرير الثروة النفطية من الشركات النفطية الأجنبية.

ويقول الأستاذ كبة «إن ما استهدفته في تطوير الاقتصاد هو تقوية القطاع العام في جميع الحقول الاقتصادية وحققت في هذا الصدد: ١ـ إنشاء الهيئة العامة لشؤون النفط

لتقود السياسة النفطية، ٢ـ إنشاء القطاع الصناعي العام عن طريق مشاريع الاتفاقية السوفيتية ــ العراقية لقيادة القطاع الصناعي خاصة والتخطيط الاقتصادي بوجه عام، ٣ـ إنشاء نواة للقطاع التجاري العام، ٤ـ إنشاء نواة للقطاع الزراعي العام لقيادة الإصلاح الزراعي وتغيير علائق الانتاج من ناحية ولتطوير قوى الانتاج في الريف من ناحية أخرى. . .

وفي التنمية الاقتصادية اتبعت وزارة الاقتصاد الطريق الوطني المستقل والمستند الى العناصر الخمسة التالية:

١ـ قيادة القطاع العام، ٢ـ قاعدة صناعية ثقيلة، ٣ـ توجيه وتطوير القطاع الخاص، ٤ـ القروض التكنيكية لا الرأسمالية، ٥ـ أسلوب التعاون مع المؤسسات الأجنبية التي لا تستهدف الربح مثل اتفاقية التعاون الاقتصادي مع الاتحاد السوفيتي. وكان من أهم مزاياها كونها نواة للتخطيط ووسيلة لتنفيذه وكونها نموذجاً لتركيب سليم لاقتصادنا الوطني، فقد كانت المشاريع الصناعية تمثل ٨٠٪ من قيمة الاتفاقية. واهتمت الاتفاقية بالمواصلات والنقل وبمشاريع خدمة القطاع الزراعي (كالري والبزل ومحطات تأجير المكائن الزراعية). لقد ناقشت الصحافة الوطنية في حينها جميع جوانب الاتفاقية وأجمعت على أهميتها للاستقلال الاقتصادي والتطوير الصناعي. ولم يكن بين الأحزاب الوطنية من يريد إلغاء فرص تطور القطاع الخاص، بل أن وزارة الاقتصاد قامت بإجراءات فعالة لتحفيز نشاط القطاع الخاص في الصناعة وحمايته. على أنه يجب القول بأن القوى الوطنية قد اختلفت حول مسألة الدور القيادي للقطاع العام. وكان الرأسمال الوطني الخاص يطمح الى أن يكون القطاع العام في خدمة القطاع الخاص. كما أن البرجوازية الوطنية لم تمانع في توظيف رساميل شركات أجنبية في حين وقف وزير الاقتصاد بصلابة ضد ذلك.

وهنا أرغب في أن أثبت ملاحظتي التالية وأعرضها لمناقشات مقبلة، وهي أنه في الظروف الاقتصادية العالمية الجديدة، يجب علينا دائماً أن نتمسك بمصالحنا الوطنية وبالطريق المستقل لتنمية اقتصادنا وحمايته على ضوء المبادئ التي سارت عليها السياسة الاقتصادية لثورة تموز المجيدة.

٤ـ انتزاع حقوق العراق من شركات النفط الأجنبية: أصدرت حكومة الثورة بياناً موقعاً من قبل عبد الكريم قاسم في ١٥ تموز ١٩٥٨، ذكرت فيه حرصها على استمرار إنتاج النفط نظراً لأهميته الكبرى للاقتصاد العالمي ونظراً لأهميته للثروة القومية

وللمصالح الاقتصادية والصناعية الوطنية والدولية. وكان البيان بمبادرة من وزير الاقتصاد وساعد على تعجيل اعتراف الدول الغربية بالنظام الجمهوري الجديد. فطلب السفير الأمريكي في بغداد الإفراج عن الموقوفين الأمريكيين الذين أشعلوا النار بخزان النفط في الكيلاني قبيل هذا الاعتراف، ثم اعترفت بريطانيا في الأول من آب ١٩٥٨ والولايات المتحدة في الثاني من آب بالجمهورية العراقية. في آب ١٩٥٨ أخطرت الحكومة العراقية شركات النفط بنيتها فتح المفاوضات لتعديل الاتفاقيات السابقة، وبدأت المفاوضات حول مطالب الجانب العراقي: أولها ضرورة تنازل الشركات عن الأراضي غير المستثمرة حتى الآن، وثانيها إعادة النظر في حسابات الكلفة على أن يتم الاتفاق على الأسعار وتحديد التكاليف ونسبها وكيفية حسابها، وتنفيق الريع وزيادة حصة الحكومة من الأرباح. وثالثها مساهمة العراق في رؤوس أموال الشركات تطبيقاً لاتفاقية سان ريمو ١٩٢٠ وإعمالاً لنصوص الامتيازات المهملة في إدارة الشركات، وتمثيل العراق تمثيلاً يمكنه من ممارسة أعمالها والإشراف عليها(٣).

وصدر قرار بإناطة سياسة النفط بهيئة عليا يرأسها السيد عبد الفتاح ابراهيم. فبدأت بتصفية وجود الخبراء الأجانب من مصفاة النفط في الدورة فأصبحت المصفاة تدار من قبل المهندسين العراقيين. ثم ألغت وكالات التجهيز الأجنبية التي كانت تلعب بالمشتريات وتحتكر التجهيز. ثم قامت بتصفية شركة نفط خانقين فألغت امتيازها وأناطت إدارتها بدوائر النفط العراقية في ١ ك٢/ ١٩٥٩. وكذلك فعلت بمصفاة الوند في نيسان ١٩٥٩، وأصبحت هيئة النفط العليا مسؤولة عن التوزيع كلياً في ١ تموز ١٩٥٩. وبعد مفاوضات مضنية تمكنت الحكومة من تحقيق بعض المكاسب، فأخرجت المياه الإقليمية في شمال الخليج من امتياز شركة نفط البصرة. وأخذ العراق يستلم حصته العينية من النفط الخام بسعر منخفض داخل العراق، وفرض على الشركة تجهيز النفط لمصفاة الدورة في بغداد وللمصافي التي تنشأ في المستقبل لتصدير المشتقات النفطية، وأكرهت الشركة على تجهيز الغاز الطبيعي للمشاريع الصناعية الحكومية مجاناً. ثم خفضت الحكومة فائدة القرض الذي عقدته الحكومة السابقة عام ١٩٥٧. (...)

لقد توقفت المفاوضات مع شركات النفط بعد محاولة اغتيال قاسم في ٧ تشرين الأول ١٩٥٩، تلك الفعلة التي أرادوا أن يلبسوها للشيوعيين لولا وفاة أحد المهاجمين الذي كان يحمل بطاقة عضوية حزب البعث. ولكن قاسم بعد شفائه من جراحه زين له تقديم التنازلات لإرضاء الدول الغربية والرجعية المحلية، فكانت قضية قانون الجمعيات

ومواده المتخلفة، وكانت قضية عدم إجازة الحزب الشيوعي العراقي ومحاولة شق الحزب الفاشلة. وبعد هذا العربون طالب باستئناف المفاوضات ولكن حزبنا رفع صوته في صحافته ومظاهراته للمطالبة بتنازل الشركات عن الأراضي غير المستثمرة، ومساهمة العراق برؤوس أموال الشركة، وزيادة حصة العراق من الأرباح على النصف بما لا يقل عن ٢٠٪.

وفي نيسان ١٩٦١ صدر القانون رقم ٨٠ الذي انتزع ٩٩,٥٪ من الأراضي العراقية الخاضعة للامتيازات الاحتكارية للشركات والذي جاء تسجيلاً صريحاً لحق العراق في تقرير سياسته النفطية. ولم تعبأ الحكومة بإنذار الشركات بضرورة التحكيم، بل أصدرت تعليماتها بمنع الشركات حتى بالقوة إذا استدعى الأمر من التحري أو العمل في المناطق المستولى عليها. لقد صاحب صدور القانون رقم (٨٠) سنة ١٩٦١ وصدور لائحة قانون شركة النفط الوطنية العراقية هبوط حاد في زيادة إنتاج النفط وقد صرح عبد الكريم قاسم في آخر مقابلة صحفية بأن الحكومة ستشرع قانون شركة النفط الوطنية خلال الأيام المقبلة وكان ذلك في ٧ شباط ١٩٦٣. ويقول اسماعيل العارف في كتابه «أسرار ثورة تموز»: «بعد أن أقر مجلس الوزراء اللائحة بقي توقيع قاسم فقال إنه يرى إجراء بعض التعديلات على الأسباب الموجبة سيقوم بها ثم يوقعه، وأسر لصديقه بأن التوقيع على القانون ربما يكلفه حياته! ووقع قاسم القانون في صبيحة يوم انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ وقبيل إعدامه».

٥ـ الموقف من القضية القومية الكردية بعد الثورة:

في ١٩٥٨/٨/٢٩، أرسل مصطفى البارزاني رسالة الى عبد الكريم قاسم جاء فيها «... وقد ناضل أحرار الكرد في العراق جنباً الى جنب مع إخوانهم العرب الأحرار المناضلين لتحقيق هذه الغاية الشريفة... نقدم الى فخامتكم طلبنا راجين مساعدتنا للعودة الى الوطن العزيز لنشترك في خدمة جمهوريتنا مع المواطنين المخلصين». ورد قاسم ببرقية «استلمنا رسالتكم بكل سرور وإننا نرحب بعودتكم جميعاً الى العراق وقد اتخذنا جميع التدابير لإصدار العفو وتسهيل سفركم».

وبعد غياب (١٢) سنة عاد البارزاني الى بغداد يوم ١٩٥٨/١٠/٦ وسط استقبال رسمي وشعبي اشترك فيه عشرات الآلاف.

وبعد الثورة مارس الحزب الديمقراطي الكردستاني نشاطه بشكل علني ولأول مرة منذ تأسيسه. وفي منتصف تشرين الأول ١٩٥٨، جرت مداولات بين قيادتي حدك

وحشع تمخض عنها ميثاق للتعاون المشترك في ١٠/ ١١/١٩٥٨، **من أجل تحويل المادة الثالثة في الدستور المؤقت الى واقع ملموس.** وتشكلت اللجنة العليا للتعاون الوطني بين الحزبين فأصدرت بيانها الأول في ٥/ ٢/ ١٩٥٩. وأكد ميثاق التعاون على:

١ـ الاعتراف المبدئي بحقوق الشعب الكردي بما في ذلك حق تقرير المصير.

٢ـ مكافحة الأفكار والحركات الانفصالية والعمل على تعزيز الأخوة والتضامن بين القوميتين العربية والكردية.

٣ـ التمسك بالمادة الثالثة من الدستور المؤقت والعمل لوضعها موضع التنفيذ.

٤ـ العمل من أجل العناية بمصالح الشعب الكردي فيما يخص التصنيع ورفع الإنتاج الزراعي والمستوى المعاشي.

٥ـ تعزيز الأخوة بين الشعب الكردي والأقليات في كردستان وضمان ممارسة هذه الأقليات لحقوقها.

وبعد هذا التحالف الثنائي انضم البارتي الى جبهة الاتحاد الوطني، التي أعادت نشاطها في تشرين الثاني ١٩٥٨، وتوصلت الى وضع ميثاق عمل مشترك وقعته أحزاب: الوطني الديمقراطي، الاستقلال، البعث، الشيوعي والديمقراطي الكردستاني تضمن في «٢ـ إن الجبهة ستسعى لتطبيق ما جاء في الدستور المؤقت الصادر في ٢٧ تموز ١٩٥٨ الخاص بالحقوق القومية للشعب الكردي».

برز التذمر من قبل بعض الشيوخ والأغوات في كردستان إثر صدور قانون الإصلاح الزراعي ولم يكن ذلك بمعزل عن تدخل دول حلف بغداد مثل إيران وتركيا. ولما فشل البارزاني بجهوده لحل هذه المشاكل، تزامنت في ربيع ١٩٦٠ الاستفزازات العشائرية المسلحة ضد البارزانيين مع ملاحقات أجهزة الأمن والشرطة لكوادر الحزب الديمقراطي الكردستاني واتضح أن عبد الكريم قاسم يسير نحو القطيعة مع الشعب الكردي. ولكن المرحلة الخطيرة بدأت عندما نشرت جريدة الثورة والتي كانت محسوبة على قاسم حينئذ مقالاً تدعو فيه الى «وجوب صهر القومية الكردية وإذابتها في بوتقة الأمة العربية وحتى لو لزم ذلك استخدام القوة!». وتصدى حدك لفكرة صهر القومية الكردية بسلسلة من المقالات نشرتها جريدة (خه بات)، كان أولها في ٩/ ١٠/ ١٩٦٠ مقالاً بعنوان الأمة الكردية والمادة الثانية من الدستور العراقي المؤقت والتي تنص على أن العراق جزء من الأمة العربية قائلة: «إذا كان المقصود العراق السياسي بعد الحرب العالمية الأولى والذي يضم جزءاً مهماً من كردستان (سهل شهرزور) فإن المادة الثالثة

من الدستور والتي تنص (ويعتبر العرب والأكراد شركاء في الوطن) تلغي المادة الثانية إلا إذا اعتبرنا الكرد مغتصبين للأرض التي يسكنونها وأنها كانت بالأصل للعرب وهو ما لم يحصل قط في أية فترة من فترات التاريخ». وعلى إثر هذا المقال قدم الحاكم العسكري الأستاذ ابراهيم أحمد رئيس التحرير وسكرتير حدك الى المحاكمة واستناداً الى قوانين العهد الملكي التي لم يطرأ على نفاذها أي تغيير قانوني. هذا وقد تصدى حزبنا الشيوعي بقوة ومن خلال صحافته واستنكر الدعوة لصهر القومية الكردية. وفي آذار ١٩٦١ غادر البارزاني بغداد ثم اندلعت الحرب بين الحكومة والحركة القومية الكردية في ١١/٩/١٩٦١ وبذلك خسرت الثورة حليفاً قوياً وأميناً في النضال ضد الاستعمار ومن أجل نظام الحكم الوطني الديمقراطي في العراق وتم عزل حكم قاسم عن أخلص حلفائه المتمثلين في الثورة الكردية والحزب الشيوعي العراقي تمهيداً للقضاء عليه.

٦ـ الوحدة الفورية، وشق قوى ثورة ١٤ تموز:

بعد أن فشلت دول حلف بغداد في التدخل العسكري للانقضاض على الجمهورية العراقية وجهت الدول الاستعمارية بريطانيا وأمريكا جهودهما الجدية لحشد كل عملاء الاستعمار من أجل شق الجبهة الداخلية. ومن هنا فإن بهجت العطية رفض بعد اعتقاله بعد الثورة تسليم أسماء عملاء بريطانيا وأمريكا في العراق، وبقيت هذه الأسماء مجهولة لدى أجهزة السلطة الجديدة مما أتاح لهم حرية الحركة في تنفيذ الخطط الاستعمارية. لقد عمل العملاء المتسترون على دفع عبد السلام عارف لاستدعاء صالح مهدي عماش الذي كان ملحقاً عسكرياً في السفارة العراقية في واشنطن وتعيينه مديراً للاستخبارات العسكرية في أول أيام الثورة. ثم قام عبد السلام عارف عندما أصبح وزيراً للداخلية بتعيين عبد المجيد عبد الجليل، والذي لم يكن من تنظيم الضباط الأحرار، مديراً للأمن العام. وقد تبين لاحقاً من وثائق وزارة الخارجية البريطانية التي نشرت مؤخراً أن عبد الجليل كان عميلاً قديماً للانكليز صرعه جماعة القطار الأمريكي في أول ساعات انقلاب شباط ١٩٦٣. ومن ناحية أخرى برزت دلائل قوية عديدة على علاقة عماش المشبوهة بالمخابرات الأمريكية. إن زرع هذين العميلين المبكر (سواء كان ذلك بعلم عبد السلام أو دون علمه) في مركزيهما الحساسين قد أدى ليس فقط الى حماية العملاء القدامى بل تجنيد عملاء جدد للانجليز والأمريكان.

ومعلوم أن حزبي البعث والاستقلال كانا عضوين في جبهة الاتحاد الوطني والتي تبنت بالإجماع «الاتحاد الفدرالي» للعلاقة بين البلاد العربية في بيانها التأسيسي، وفي

قرارها في نيسان ١٩٥٨ أي بعيد وحدة سورية مع مصر. وحين زار ميشيل عفلق بغداد بعد الثورة بعشرة أيام، أي بعد زيارة عبد السلام عارف الى دمشق ومقابلة عبد الناصر بستة أيام، طرح ضرورة تبني شعار الوحدة الفورية من قبل القيادة القطرية في العراق رغم تحفظ فؤاد الركابي، كما تحفظ على إنزال هذا الشعار الى الشارع صديق شنشل ممثل حزب الاستقلال في جبهة الاتحاد الوطني. وكان حزبنا قد دعا الى اجتماع اللجنة العليا للتذاكر في الأوضاع المستجدة بعد الثورة ولم يتم الاتفاق على عقد الاجتماع إلا في الأسبوع الأول من آب ١٩٥٨ (...).

أما حركة القوميين العرب فرغم أنها كانت تعتبر نفسها قوة وحدوية فإنها لم تفكر بإمكانية قيام أية وحدة خارج نطاق الجمهورية العربية المتحدة خشية أن يقود ذلك الى تحويل مركز القوة في المنطقة. هذا وقد اشتركت حركة القوميين العرب في الجبهة القومية التي تشكلت في العراق عام ١٩٦١ من أجل العمل المشترك لإسقاط حكم عبد الكريم قاسم وقيام الوحدة مع ج.ع.م وضمت الجبهة القومية حزب البعث وحزب الاستقلال.

إن الحياة قد أجابت بوضوح لِمَ هو صائب وحكيم شعار الاتحاد الفدرالي وإن الجمهورية العراقية التي تأسست بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ كان يمكن لها أن تتطور الى جمهورية ديمقراطية برلمانية لولا أن تمكن المخطط الاستعماري المعادي للعراق ولسائر البلاد العربية من شق الصف الوطني في العراق ومن شق الصف العربي الذي تجلى بكل عنفوانه في التضامن مع مصر إبان العدوان الثلاثي عليها عام ١٩٥٦. لا شك أن جمال عبد الناصر قد وعى هذه الحقيقة بعد أن دارت عليه الدوائر عام ١٩٦٧، فقد كتب قبل وفاته قائلاً إن الاتحاد الفدرالي كان هو الأصوب من شعار الوحدة الفورية. إن وثيقة وزارة الخارجية الأمريكية حول لقاء ماكملان - آيزنهاور آذار ١٩٥٩ والتي نشرها هيكل في كتابه «الغليان» لشهادة صريحة حول استراتيجية أمريكا وبريطانيا تجاه قاسم وناصر في آن واحد ولصالح اسرائيل والمصالح الحيوية للدول الإمبريالية.

تموز ١٩٩٨

(١) نشر التقرير في مجلة الثقافة الجديدة الصادر في كانون الأول ١٩٥٨.

(٢) محمد حسين أبو العيس، الثورة الزراعية في العراق، دار بغداد ٨/ ٤/ ١٩٥٩، ص٢١.

(٣) الدكتور محمد سلمان حسن: «نحو تأميم النفط العراقي»، الطبعة الأولى أيلول ١٩٦٧، ص٨٨.

تقييم بطاطو لثورة ١٤ تموز

هل ترقى أحداث ١٤ تموز (يوليو) الى مستوى الثورة أم أنها مجرد انقلاب؟ إن والديمار ج. غالمان، سفير الولايات المتحدة السابق في العراق، يرى أن ما حدث ذلك اليوم لا يمكن تسميته ثورة بشكل من الأشكال، ويقول إنه «كان ببساطة استيلاء على السلطة من قبل جماعة صغيرة محددة». وفي حين أنه يعترف بأنه كانت هنالك مظاهرات، فإنه يضيف أن هذه المظاهرات كانت خالية من أي صفة «عفوية»، وأن «جموع الناس المهللة الجامحة» التي شاركت فيها كانت ـ كما يصر ـ «لا تمثل العراقيين بل رعاعاً جمعهم المحرضون»(٦٥). ولا شك في أن غالمان يعتمد على اللون إلى حد كبير نسبياً. ولا شك ـ أيضاً ـ في أن مشاركة حوالي مئة ألف شخص في التظاهرات تشكل شيئاً أكثر من الذي يحاول وصفه. وإن كان هذا لا يهدف الى إنكار وجود «الرعاع» بين الحشود، فإن من المفيد إن نذكّر أن «الرعاع» يظهرون تقريباً في كل ثورة، وفي النهاية فإن الثورة عبارة عن شأن فظ وقاس وعنيف، في جزء منها على الأقل. وأكثر من هذا، فإن عناصر التحريض والتنظيم الواعي ليست بالضرورة غريبة عن مفهوم الثورة، وهو ما يبدو أن غالمان يفترضه. ولكن، وبغض النظر تماماً عن مسألة مشاركة العامة، فإن علينا الاعتراف فوراً بأنه إذا كان لأحد أن يعزل رؤية المرء للدور المبادر الذي لعبه لواء المشاة العشرون بقيادة عارف، أو للعمل التحضيري الطويل للضباط الأحرار، فإنه لابد له من الموافقة على أن ما حصل يوم ١٤ تموز (يوليو) كان عملاً من تخطيط جماعة

صغيرة بمعزل وسرية عن الشعب. وهكذا كان الأمر فعلاً، بشكل جزئي. ولكننا نكرر أن على المرء أن ينظر نظرة أوسع أفقاً الى الأشياء. وعلى المرء كذلك، وعلى الأقل، أن يضع أحداث ١٤ تموز (يوليو) في إطارها التاريخي الطبيعي. وبهذا المنظور، تبدو هذه الأحداث وكأنها ذروة نضال جيل كامل من الطبقات الوسطى والوسطى الدنيا والعاملة، وأوج ميل ثوري كامل ومتشرب في الأعماق كانت له تعبيراته التي تمثلت بانقلاب ١٩٣٦ والحركة العسكرية ١٩٤١ والوثبة ١٩٤٨ والانتفاضة ١٩٥٢ ثم انتفاضات ١٩٥٦. وكان الضباط الأحرار، بخيوطهم المرئية وغير المرئية، مقتنصين في هذا الميل. وكانت معرفتهم جزئياً ـ كما يتضح من أحاديثهم ـ بأن العمل على المستوى الشعبي وحده لا يمكنه أن يطيح بالنظام القديم هي التي قادتهم الى الإمساك بزمام المبادرة(٦٦).

ولكن، لا يكفينا أن ننظر الى الوراء. ويجب ألا يقتصر حقل الرؤية عندنا على ما سبق أحداث ١٤ تموز (يوليو) بل أن يشمل أيضاً ما تلاها. والواقع أن إلقاء نظرة سريعة على الآثار اللاحقة يكفي لجعلنا نعرف أننا أمام ثورة أصيلة. ولم يكن لظاهرة سياسية سطحية أن تطلق كل تلك المشاعر بهذا العنف، أو لتثير المخاوف أو الآمال بهذه الجدية التي غزت سنتي ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩. والواقع أن ١٤ تموز (يوليو) أتى معه بأكثر من مجرد تغيير في الحكم. فهو لم يدمر الملكية أو يضعف كل الموقع الغربي في المشرق العربي بطريقة جذرية وحسب، بل إن مستقبل طبقات بأسرها ومصيرها تأثر بعمق. ولقد دمرت الى حد كبير السلطة الاجتماعية لأكبر المشايخ ملاكي الأراضي ولكبار ملاكي المدن، وتعزز نوعياً موقع العمال المدينيين والشرائح الوسطى والوسطى الدنيا في المجتمع. وتغير كذلك نمط حياة الفلاحين نتيجة لانتقال الملكية من ناحية ولإلغاء أنظمة النزاعات القبلية وإدخال الريف في صلب القانون الوطني من ناحية أخرى. وصحيح أن الثورة لم تتجذر بالعمق بما يكفي، ولكن هذا ما يميل الى تمييز كل الثورات التي تلعب فيها عناصر الطبقة الوسطى دوراً تقريرياً تقريباً. وصحيح كذلك أن التيه ميّز مسار الثورة وأنها كانت لها تعاقبات صعود وهبوط، ولكن هذا ناجم عن عدم انسجام الطبقة الوسطى وعن الانشقاقات في صفوفها وصفوف سلك الضباط، الذي هو ذراعها المسلحة والشرعية القائدة فيها.

وتمثل العامل السببي الآخر في الضغط الذي مارسته الطبقات الأدنى، أي ضغط الطبقات التي يقودها الشيوعيون، والتي تعمل بأيديها. وهناك أيضاً الحقيقة الأساسية جداً، وهي أن الثورة، بنسفها بنية السلطة القديمة والتركيبة الطبقية القديمة، أخلّت

بالتوازن الدقيق القائم بين المجتمعات العرقية والطائفية المختلفة في العراق، وأساساً بين العرب والأكراد وبين الشيعة والسنّة، والناجم عن عدم التساوي في التطور الاجتماعي لهذه المجتمعات أساساً. وكانت إحدى النتائج غير السارة لذلك هي ثورة الأكراد، التي جاءت لتضاف، وبشكل حاد وصارخ، الى تقلبات الثورة وصعوباتها. لهذه الأسباب كلها، ونظراً لتعاقب الانقلابات، فإن الثورة مازالت(*) تعيش حالة من الميوعة، ويشك في أن تحقق في المستقبل المنظور توازناً اجتماعياً مقبولاً وثابتاً. ولكن في هذا الكلام شيء من التعميم والاستباق.

* نصاً عن حنا بطاطو: «العراق، الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار» ترجمة عفيف الرزاز، ص١١٥–١١٧.

(٦٥) W.J. Gallaman, Iraq under General Nuri, p. 205.

(٦٦) قال قاسم في ٩ آب (أغسطس) ١٩٥٨: «لو اعتقدنا أن باستطاعة الشعب أن يزيل كابوس الظلم (الجاثم على صدره) لما تدخلنا بالقوة المسلحة، ولكننا كنا نعرف أن الناس يائسين ولا من يدافع عنهم». أنظر: العراق، «مبادئ ثورة ١٤ تموز في خطابات الزعيم. . . ١٩٥٨»، ص١٧–١٨. وكذلك فقد عبّر قاسم عن الفكرة ذاتها في ٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٨، المصدر نفسه، ص٣٦.

(*) تجدر الإشارة الى أن المؤلف نشر كتابه هذا للمرة الأولى في العام ١٩٧٨، أي أن هذا الحكم عنده يعود الى أواسط السبعينات. (المترجم).

من وثائق الحزب الشيوعي العراقي بشأن الثورة

قبل الثورة بيومين

كانت قيادة الحزب قبل الثورة بيومين قد أصدرت التوجيه العام التالي الى كافة منظمات الحزب، وكانت قوى الحزب تحت الإنذار لمجابهة التطورات:

توجيه عام

نظراً للأوضاع السياسية المتأزمة، الداخلية والعربية، ووجود احتمالات تطورها بين آونة وأخرى. . . وبغية ضمان وحدة النشاط السياسي لمنظماتنا الحزبية في الظروف الطارئة أو المعقدة، نرى من الضروري التأكيد في الوقت الحاضر على أن شعاراتنا الأساسية هي:

١ـ الخروج من ميثاق بغداد، وإلغاء الاتفاقية الثنائية مع بريطانيا والوقوف ضد مبدأ أيزنهاور.

٢ـ إطلاق الحريات الديمقراطية لجماهير الشعب (حرية التنظيم الحزبي والنقابي وحرية النشر والاجتماع. . . الخ) وإعلان العفو العام عن المحكومين السياسيين وإطلاق سراحهم، وإلغاء المراسيم والقوانين الدستورية التي تستهدف ضرب الحركة الوطنية.

٣ـ اتخاذ التدابير الفعالة لحماية ثرواتنا الوطنية واقتصادنا الوطني والعمل على حل المشاكل المعاشية لجماهير الشعب.

٤ـ قيام حكومة تنتهج سياسة وطنية عربية مستقلة تدعم نضال الشعب اللبناني وسائر الشعوب العربية وتخدم السلم... وتحول «الاتحاد العربي» الى اتحاد حقيقي بين العراق والأردن يضمن مصالح شعبينا ويخدم النضال ضد الاستعمار والصهيونية ومن أجل الوحدة العربية، وإقامة اتحاد فدرالي مع الجمهورية العربية المتحدة.

ونرى من المناسب التأكيد على: (١) ضرورة تجنب إبراز شعارات مبهمة أو متطرفة أو تلك التي تمجد هذا الزعيم أو ذاك من قادة الحركة الوطنية أو العربية على حساب طمس شعاراتنا الأساسية، والتقليل من شأن نضال الجماهير الشعبية والجبهة الوطنية. (٢) ضرورة إبداء اليقظة السياسية العالية تجاه مختلف المناورات والمؤامرات، وتجاه نشاط عملاء الاستعمار، والعمل بحزم وبأمانة تامة لسياسة الحزب. واعتبار أن واجبنا الأساسي في كل الظروف هو تعبئة أوسع الجماهير الشعبية ولفها حول الشعارات الصائبة في اللحظة المعينة، وحول الشعارات الكبرى لحركتنا الوطنية الديمقراطية.

١٢ تموز ١٩٥٨

توجيهات حزبية

[نشرة داخلية]

من المعلوم أن سياسة حزبنا كانت ولما تزل موجهة نحو تحقيق أقصى التضامن بين الشعب العراقي والشعوب العربية الشقيقة، وكذلك العمل من أجل أعلى أشكال الروابط وأمتنها مع الجمهورية العربية المتحدة الشقيقة، والسير قدماً في طريق تحقيق أهداف وأماني الأمة العربية، وعلى الأخص العمل نحو تحرير باقي أجزاء الوطن العربي وجمع العرب في وطنهم الواحد.

وهذه السياسة تنطوي بداهة على إلزام كل عضو حزبي سياسياً وأدبياً بالتصدي لكل دعوة معاكسة، ولكل مسعى يرمي الى النيل من السياسة التي تنتهجها الجمهورية العربية المتحدة، أو شخص رئيسها ــ تلك السياسة التي يعرف جميع أعضاء حزبنا وجماهيرنا أننا بالرغم من تحفظاتنا على بعض جوانب هذه السياسة فإننا نؤيد تأييداً تاماً وجهتها التحررية المعادية للاستعمار. إن كافة أعضاء حزبنا ملزمون بالتقيد تقيداً صارماً بسياسة الحزب وهم يعملون وسط الجماهير ومن واجبهم مقاومة مثل هذه

الدعوات أو المواقف الضارة، كما أن من واجبهم التصدي لكل ما من شأنه أن يؤدي الى خلق أي نوع من الجفاء والنفرة بين الشعوب العربية الشقيقة ولاسيما بين شعبي الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة.

لقد أكدنا ذلك كله في جملة بيانات أصدرها حزبنا... وها نحن نؤكدها مرة أخرى ونطلب التقيد بها تقيداً صارماً.

بغداد ٣٠ تشرين أول ١٩٥٨

المكتب السياسي

مشروع ميثاق جبهة الاتحاد الوطني

[نعيد نشر مشروع ميثاق جبهة الاتحاد الوطني الذي سبق للحزب أن قدمه الى جبهة الاتحاد الوطني لمساعدة رفاقنا في دراسة الميثاق الجديد للجبهة على ضوء الملاحظات الواردة في النشرة الداخلية]

(١) من أجل صيانة الجمهورية وتوطيدها:

السير بحزم في تطهير جهاز الحكم والبلاد من عملاء الاستعمار والمفسدين وتصفية مؤسسات التجسس الأجنبية وإنزال أقصى العقوبات بالمتآمرين على سلامة الوطن والعروبة، تقوية الجيش وتسليحه، تعميم المقاومة الشعبية، إطلاق حرية العمل السياسي للقوى الوطنية، تمكين الحكومة من العمل في جو من التعاون والتضامن الشعبي من أجل تحقيق بقية أهداف الثورة وإقامة الحكم الوطني على أسس ديمقراطية متينة.

(٢) متابعة السير في سياسة مقاومة الاستعمار بشتى أشكاله ومصادره، والمبادرة الى الخروج من ميثاق بغداد والاتفاق الخاص مع بريطانيا، ورفض مبدأ آيزنهاور وإلغاء اتفاقية الأمن المتبادل مع أمريكا وغير ذلك من الاتفاقيات والمشاريع الاستعمارية.

(٣) مساهمة العراق في العمل على تحقيق أماني وأهداف الأمة العربية ـ باعتبار أن العراق جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير وعلى أساس توحيد سياسته مع سياسة البلدان العربية المستقلة، وفي سبيل تحرير سائر أجزاء الوطن العربي واتحادها ضد الاستعمار.

(٤) العمل على تمتين روابط التآخي الكفاحي بين الجيش والشعب على أساس صيانة مكاسب الثورة الوطنية، وبين العرب والأكراد على أساس النص التالي الذي تضمنه الدستور المؤقت: «يقوم الكيان العراقي على أساس من التعاون بين المواطنين كافة، وباحترام حقوقهم وصيانة حرياتهم ويعتبر العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن ويقر هذا الدستور حقوقهم القومية ضمن الوحدة العراقية».

(٥) إلغاء كافة التشريعات والقوانين والمراسيم الرجعية وتشريع قوانين ضد الصهيونية والاستعمار والنشاط المعادي للوطن وتعديل وتشريع قوانين أخرى تنسجم مع روح الثورة وتأتلف مع مبادئ الديمقراطية والعدالة.

(٦) انتهاج سياسة اقتصادية تستهدف حماية الاقتصاد الوطني من الاحتكارات الأجنبية، وتضمن تطوره الطبيعي، وتقوم على أساس إقامة وتشجيع الصناعة الوطنية الخفيفة والثقيلة، واستخدام المساقط المائية لكهربة البلاد، وإلغاء أسلوب الإنتاج الإقطاعي في الريف والسير قدماً في تحقيق الإصلاح الزراعي لصالح الجماهير الواسعة من الفلاحين، وفتح باب المتاجرة وتبادل المنفعة مع مختلف البلدان والخروج من الكتلة الاسترلينية، والعمل على كل ما من شأنه تحقيق رفاهية الشعب وتأمين العدالة الاجتماعية.

(٧) متابعة العمل لتحقيق المطاليب الأخرى التي تضمنها الميثاق السابق لجبهة الاتحاد الوطني والتي لم يتم إنجازها بعد وأخصها — إطلاق حرية التنظيم السياسي الحزبي والتنظيم النقابي وحرية الصحافة والنشر والاجتماع وكل أشكال الحريات الديمقراطية الأخرى للقوى الوطنية وشل النشاط الهدام الذي يقوم به عملاء الاستعمار وجواسيسه.

(٨) تهيئة الظروف الديمقراطية المناسبة لانتخاب مجلس تأسيسي على أساس التصويت العام المتساوي المباشر، ومن أجل وضع دستور جمهوري وطني ديمقراطي للبلاد يأخذ بنظر الاعتبار صيانة وحدة الوطن والشعب العراقي ويقر أرقى أشكال التضامن والارتباط مع البلدان العربية المستقلة.

(٩) متابعة السير في إقامة وتوسيع علائق التعاون الدولي المتكافئ طبقاً لمبادئ التعايش السلمي ومبادئ باندونغ وعلى أساس من سيادتنا الوطنية وكرامتنا القومية، والمساهمة في خدمة السلم العالمي وحق الشعوب في الحرية وتقرير المصير.

***

تعتبر الأطراف المشاركة في جبهة الاتحاد الوطني هذا الميثاق عهداً فيما بينها بالعمل باتحاد وتضامن من أجل تحقيق أهدافه ويتعهد كل طرف من جانبه بالعمل في الاتجاه الذي يخدم وحدة الأطراف المشاركة في الجبهة من أجل تحقيق هذه الأهداف، ولكل طرف حق العمل المستقل بما لا يتناقض مع روح هذا التعاهد، كما أن لكل طرف أن يمتلك وسائل نشر تعبر عن رأيه وتعكس رأي جبهة الاتحاد الوطني وأوجه نشاطها المختلفة. وتتعهد كل أطراف الجبهة بالعمل على رص الصفوف الوطنية وتوحيد كفاح الشعب والجيش وتعزيز كيان الجبهة ودورها في إرشاد الشعب والحكم الوطني.

وتعتبر جبهة الاتحاد الوطني هذا الميثاق تعاهداً أخوياً طويل الأمد ويوجب على كل طرف احترامه والالتزام به نصاً وروحاً.

[قدم هذا المشروع من قبل حزبنا في ١٩٥٨/٩/٢٤.
وكان حزبنا قد قدم مشروعاً آخر قبل شهرين]

حول الميثاق الجديد لجبهة الاتحاد الوطني

[نشرة داخلية لجميع خلايا الأعضاء والمرشحين]

سيكون بين أيديكم الميثاق الجديد لجبهة الاتحاد الوطني الذي وقع عليه ممثلو الحزب الشيوعي والحزب الوطني الديمقراطي وحزب البعث وحزب الاستقلال وحزب بارتي ديموكراتي كردستان الذي انضم لجبهة الاتحاد الوطني في جلستها الأخيرة التي كرست لتوقيع الميثاق.

إن توقيع ونشر هذا الميثاق بعد اتصالات واقتراحات دامت أربعة أشهر هو انتصار كبير لحركتنا الوطنية وذلك:

١ـ لأنه يخدم وحدة الحركة الوطنية في الظرف الدقيق الراهن الذي تتجه فيه جهود كل عملاء وأعوان الاستعمار لتعميق الصراع الداخلي فيها وشقها تمهيداً لضربها ونسف جمهوريتنا البطلة.

٢ـ لأنه جاء ضربة قوية للمفاهيم الخاطئة التي حملتها أوساط وطنية متعددة بعد الثورة مباشرة. تلك المفاهيم القائلة بأن جبهة الاتحاد الوطني انتهى عملها بقيام ثورة ١٤ تموز وقيام الحكم الجمهوري، والتي ناضل الحزب ضدها نضالاً مشرفاً.

٣ـ لأن إعادة الحياة لجبهة الاتحاد الوطني هو انتصار للديمقراطية والحياة الحزبية

الطبيعية واندحار للمفاهيم المعادية للديمقراطية أو المفاهيم المنادية بالاتحاد القومي وإلغاء الحياة الحزبية التي ارتفعت إبان ثورة ١٤ تموز، والتي شن الحزب كفاحاً عنيداً ضدها.

أما بنود الميثاق نفسه ومحتواه فإنه ذو جوانب إيجابية، كما أن له جوانب سلبية تقتضي الإشارة إليها.

فجوانبه الإيجابية هي:

(١) في البند الأول من الميثاق نجد تأكيداً على عروبة العراق، ولقد رفضت بالطبع الاقتراحات الداعية للانضمام للجمهورية العربية المتحدة للأسباب التي سبق للحزب شرحها ونشرها. وإنما اكتفى البند بالتأكيد بأن الجبهة «ستحدد» أي ستسعى الى بلوغ اتفاق في المستقبل حول أفضل وأمتن أشكال الروابط مع الجمهورية العربية المتحدة.

كما أن البند يشجب بصورة غير مباشرة أساليب التآمر والمغامرة والاغتيال وأي أسلوب غير مشروع لفرض أي نوع من العلاقة مع الجمهورية العربية المتحدة وذلك لأنه ترك أمر تحديد هذه المسألة لجبهة الاتحاد الوطني في المستقبل، كما أنه أكد على أن يجري ذلك وفق الأساليب الديمقراطية المألوفة. ونحن نقدر التراجع الذي قامت به بعض الجهات الوطنية في هذا الشأن. إذ أن من الواضح أن محاولة فرض أي شعار من وراء ظهر الجماهير أو القوى الوطنية هو عمل عدائي مباشر ضد الجمهورية وضد الشعب العراقي، وهو عمل يسيء أكبر الإساءة لقضية القومية العربية نفسها.

(٢) في البند الثاني نجد أن الميثاق لم ينقل فقط ما جاء في الدستور المؤقت للجمهورية بشأن الحقوق القومية للشعب الكردي وإنما أكد أيضاً بأن الجبهة تسعى لتطبيق ذلك. وهذه خطوة تقدمية كبرى جاءت ضربة للأفكار الشوفينية في الحركة العربية وللأفكار الانفصالية والانعزالية في الحركة القومية الكردية.

(٣) ولقد أكد البند الثالث على السياسة الوطنية للحكومة وهذا أهم البنود في كل الميثاق باعتبار أن المسألة الأساسية في الظرف الراهن هي مسألة تحررنا الوطني وضمان استقلال بلادنا.

(٤) كما أكد البند الرابع على دعم الثورة وعلى شعار «حياة ديمقراطية سليمة» باعتبار أن الجمهورية تسير باتجاهه. ولقد جاء هذا البند انتصاراً للقوى الديمقراطية.

أما الجوانب السلبية في الميثاق فيمكن ملاحظتها بالمقارنة بين هذا الميثاق

و«مشروع ميثاق جبهة الاتحاد الوطني» الذي قدمه حزبنا في ١٩٥٨/٩/٢٤. ونشير بصورة خاصة:

(١) الى أن الميثاق مقتضب الى حد بعيد وهذا يضعفه كثيراً. فالالتزام بأهداف الشعب بصورة مفصلة الى حد معقول هي الأكثر جدوى لتعبئة جماهير الشعب وتوحيد نضالها.

(٢) أن الجبهة لم تتفق على أية خطوة من أجل قانونية تشكيلها وعملها، ومن أجل تبني الحكومة لميثاقها. وبقي التناقض قائماً بين حقيقة الحكم الوطني القائم وبين سرية عمل الجبهة الوطنية. وهذا مثال على التردد البرجوازي. فالجبهة الوطنية لم تتعهد حتى الآن بالقيام بمجهود جدي للانطلاق في تعبئة وتنظيم الشعب لدعم الحكم الوطني. وينبغي على منظماتنا جميعاً أن تقود الجماهير الشعبية لحل هذا التناقض أيضاً من بين التناقضات القائمة بغية توطيد الجمهورية وتعزيزها ضد أعدائها المستعمرين والإقطاعيين والخونة.

(٣) برغم أن مقدمة الميثاق قد أشارت الى السيطرة الاستعمارية التي كانت مفروضة على البلاد في العهد البائد، فإن الميثاق نفسه لم يتناول هذه المسألة بوضوح حتى أنه اكتفى بتعابير «الأجنبية» و«الأجنبي» بدلاً من الاستعمارية والاستعماري. ولم يذكر صراحة التخلص من ميثاق بغداد أو شجب مبدأ آيزنهاور أو الاتفاقيتين مع بريطانيا وأمريكا وسائر الاتفاقيات الاستعمارية.

(٥) والميثاق الجديد لم يؤكد صراحة على المهمات الضرورية التي تتعلق بصيانة الجمهورية كالتطهير وتوسيع المقاومة الشعبية وتسليحها... الخ.

(٥) كما أنه لم يذكر تفصيلاً معالم «الحياة الديمقراطية السليمة» التي تبتغيها الجبهة، والحريات الديمقراطية التي ينبغي أن تحقق للجماهير الشعبية (كحرية التنظيم الحزبي والنقابي وحرية النشر والاجتماع والإضراب والتظاهر للقوى الوطنية... الخ). كما أنه لم يشر الى ضرورة العمل على أساس ديمقراطي لانتخاب جمعية تأسيسية تقرر دستوراً جمهورياً ديمقراطياً للجمهورية.

(٦) لم يكن الميثاق تفصيلياً بخصوص ما جاء عن تحسين الأوضاع المعاشية للجماهير وخصوصاً حقوق العمال والفلاحين.

إن هذه الجوانب السلبية في الميثاق الجديد لجبهة الاتحاد الوطني أفقدت إمكانيات كبيرة لجعله ميثاقاً طليعياً حقاً بالنسبة لجمهوريتنا الفتية، مرشداً وموجهاً لها. إنه سار

الى حد ما في مستوى سياسة الحكومة وتدابيرها التي تمت حتى الآن بل وتخلف عنها في بعض النواحي، عدا ما يتعلق بالعلاقة مع الجمهورية العربية المتحدة. وهذا خطأ كبير إذ أن المواثيق التي تتبناها المنظمات الشعبية ينبغي أن تكون بمثابة المرشد والموجه للمؤسسات الرسمية الوطنية والحافز على النضال بالنسبة للجماهير الشعبية.

واجبات منظماتنا الحزبية إزاء نشر الميثاق الجديد

١ـ ينبغي دراسة هذه النشرة (حول الميثاق الجديد لجبهة الاتحاد الوطني) دراسة مستفيضة لتكوين فكرة ناضجة عن الميثاق نفسه من حيث أهميته ونواقصه.

٢ـ ينبغي أن يشرح ميثاق الجبهة بأوسع نطاق بين الجماهير الشعبية وخصوصاً يجري التأكيد على أهميته التاريخية في هذا الظرف والجوانب الإيجابية فيه.

٣ـ يستفاد منه لإعادة تكوين وتنشيط لجان جبهة الاتحاد الوطني في كل مكان بروحية إيجابية إنشائية جديدة، وينبغي أن يلاحظ في هذه المسألة بأنه يوجد تياران في صفوف القوميين أحدهما يرفض التعاون والآخر يمكن إشعاره بالمسؤولية التاريخية في الظرف الراهن بالاستناد الى شعوره الوطني وحبه لبلاده وشعبه وأمته، ومن أجل كسبه للتعاون مع سائر القوى الوطنية المناضلة. إن نشاطنا ينبغي أن يتجه بصورة ثابتة لتقوية التيار الثاني مهما كلفنا ذلك من مجهود وأن نعيد الكرّة دائماً مع العناصر الطيبة المخلصة ومن أجل عزل التيار الأول المفرق للصفوف والذي يسير يوماً بعد يوم لا الى موقف المعرقل لسير الجمهورية وحسب، بل والى موقف العداء الصريح لها، والالتقاء مع الاستعمار والإقطاع وأعوان العهد البائد الذين يعلقون الآمال الكبيرة على تفريق الصفوف الوطنية.

٤ـ وهناك نقطة هامة للغاية ينبغي أن يستوعبها رفاقنا جيداً وأن يشرحوها للجماهير وهي أن تفاقم الصراع فيما بعد الثورة مع الإخوان القوميين لم ينشأ قط من اختلاف شعاراتنا في مسألة الوحدة أو الاتحاد أو غيرها، برغم وجود هذا الاختلاف فعلاً... إلا أن الذي عمق هذا الخلاف وسار به نحو الحدة والتصادم هو أن عناصر معينة تحولت من حملة شعارات خاصة الى متآمرين على الجمهورية يضعون خطط القيام بمغامرات واغتيالات لتنفيذ شعاراتهم. إنهم لو كانوا واثقين من صواب شعاراتهم لطرحوها على الشعب بالأساليب الديمقراطية الاعتيادية المشروعة ـ كما فعلنا نحن ـ فإرادة الشعب هي القول الفصل في كل مسألة... أما تجاهل إرادة الشعب وسلوك سبيل التآمر والمغامرة، فإنها جرائم موجهة الى كيان جمهوريتنا الحبيبة التي كللت

النضال الدامي المرير الطويل الذي خاضه شعبنا وكل قواه الوطنية وقدموا خلاله أغزر التضحيات.

أما الآن وبعد أن أقر فريق هام من القوميين ميثاق الجبهة وما ورد فيه بشأن الالتجاء للأساليب الديمقراطية المألوفة، فإنه سيهيئ السبيل لخلق جو إنشائي أفضل، وعليهم الآن أن يبرهنوا بالعمل بأنهم مؤمنون حقاً بالأساليب الديمقراطية المألوفة التي تعتمد على إرادة الشعب.

فمن الممكن أن نعمل موحدين جهودنا في سبيل صيانة الجمهورية، ولكن الشرط الأساسي الذي ينبغي أن يتوفر هو أن يأمن كل منا صاحبه لا أن تستمر القوى الوطنية المختلفة في بذل جهودها المخلصة لإسناد الجمهورية ودعم سياستها، بينما يتآمر الآخرون على الجمهورية وعلى سياستها الوطنية الديمقراطية.

إن توضيح هذه القضية لجماهير الشعب واجب هام جداً على رفاقنا أن يواصلوه بنطاق واسع وبشكل مثابر.

٥ـ من المستحسن إقامة احتفالات واجتماعات صغيرة يشترك فيها مختلف الوطنيين، كما يجري تبادل الزيارات بينهم بهذه المناسبة لتبادل أحاديث الود ونشر روح التعاون ولتقوية الالتزامات الوطنية بين الوطنيين كافة.

بغداد في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٨

المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي

الأزمة المالية في آسيا الشرقية

وليم تاب*

أزمة شرق آسيا تصدرت أنباؤها واجهة الصحافة، أواخر ١٩٩٧، بوصفها الأزمة الأخطر منذ الثلاثينات. فقد تلاشت أقيام حوالي الترليون (ألف مليار) دولار من الأسهم. وحين استعادت بعض أسواق المنطقة أنفاسها، بعد هذا الانهيار، راح المستثمرون يمحصون نقاط الضعف والقوة في اقتصاد كل من بلدانها. وما لبثت المخاوف أن تجددت بشأن ما في اقتصاد اليابان والصين من ثغرات جوهرية.

في مساهمتي هنا أرى أن الأزمة المالية في المنطقة تنطوي على نمطين مألوفين، يتمثل أولهما في اتجاهات التأزم التي نجدها في أسواق رأسمالية غير مقيدة. وتشكل المضاربات المفرطة جانباً أساسياً من طبيعة النظام نفسه. أما النمط الثاني فيتمثل في طريقة انتفاع أقوى الرأسماليين من مصائب أضعفهم.

حالياً تطرح نفسها تساؤلات حول مدى إعادة الهيكلة المطلوبة من اقتصادات المنطقة. فإلى أي مدى يستطيع الرأسمال متعدد الجنسيات أن يملي إرادته على هذه الاقتصادات؟ ومن الذي سيتحمل أعباء الانحدار الذي تنطوي عليه إعادة الهيكلة. والى أي مدى تفلح القوى التقدمية في تنظيم نفسها لمواجهة التقشف الذي يفرضه الرأسمال على شعوب المنطقة؟ وما هي الآثار بعيدة المدى للأزمة الحالية؟ فطبيعة الإجابة على

* أستاذ للاقتصاد والسوسيولوجيا في كلية كوينز وجامعة سيتي. والمادة المنشورة هنا مكيفة عن مساهمة قدمها في ورشة عمل حول العولمة ودولة الرعاية في آسيا الشرقية في ١٢ آذار ١٩٩٨ ورعتها جامعة ألبورغ الدانماركية.

هذه الأسئلة سيكون لها تأثير هام في اقتصاد العالم خلال القرن القادم.

حتى وقت قريب كانت آسيا الشرقية أسرع المناطق نمواً، بل كانت المنطقة الوحيدة التي تشهد النمو السريع حقاً لعشرات السنين، الأمر الذي يفسر كثرة الحديث عن اصطلاحين زعزعا تفاؤل المستثمرين، أولهما «الطاقة الإنتاجية الزائدة» والثاني هو «تخفيض الأسعار». فإفراط المنطقة بالاستثمار في المنشآت ووسائل الإنتاج قد ولّد إمكانية حصول مشاكل إضافية أخطر. فبوجود طاقات زائدة على مستوى العالم في كل شيء، من منتجات الفولاذ الى الورق، عملت الشركات على تخفيض الأجور والاستغناء عن مستخدميها في أكثر البلدان. أما هذا الانكماش، الذي لم يكن مقلقاً منذ الكساد العظيم، فإنه قد يغدو خطيراً إذا تفشى. فهبوط طفيف في الأسعار لا يحدث تأثيراً كبيراً، لكن هذه المنطقة إذا أطلقت موجات مستمرة من تخفيض أسعارها بغية زيادة صادراتها مع وجود طاقات إنتاجية زائدة على نطاق عالمي، فإن حرب الأسعار يمكن أن تقلص هوامش الربح باستمرار فتتجاوز الإفلاسات حدود آسيا. وثمة شواهد كثيرة على إجراءات نقدية تؤدي الى سلسلة حلزونية من تخفيض العملات والأسعار لغرض المنافسة، وذلك بسبب عدم القدرة على معالجة الاستثمارات الفائضة والديون. لكن احتواء الأزمة ضمن المنطقة يولّد مكاسب هائلة للرأسمال متعدد الجنسيات حين يشتري بثمن بخس، أصول المنطقة (أي مؤسساتها الإنتاجية والخدمية والمالية الخ ـ ث جـ). وهذا هو هدف الحلول التي يطرحها الرأسمال المالي والمنظمات المالية الدولية لغرض تسريع مثل هذه السيرورة.

بناء الفقاعة وتفجيرها

كانت أسواق المال العالمية قد اعتادت على النمو في آسيا الشرقية بمعدل ثلاثة الى خمسة أمثال المعدل في اقتصادات أمريكا وأوروبا المتقدمة، وكون العديد من بلدان آسيا قد ربطت عملاتها بقيمة الدولار. لذلك ساد الاعتقاد على نحو واسع بعدم وجود مجازفة في إقراض هذه البلدان، لأن المقرضين افترضوا محافظة هذه العملات على قوتها، فلا خطر ينجم عن هبوط سعر تبادلها. وتحققت بالفعل أرباح هائلة من الاقتراض بفوائد واطئة من أسواق المال في أمريكا واليابان، ومن ثم إقراضها في آسيا الشرقية. وهكذا حصل نمو سريع في هذه المنطقة وتصاعدت قيم الأصول فيها، بفعل تدفق المزيد من الأموال إليها مما حفّز على استمرار التدفق. ولأن هذه الأصول مشتراة بأموال مقترضة ولابد من تمويل تطوير هذه الأصول بقروض جديدة لبقاء الشركات متفوقة في المنافسة

على غيرها، أصبح وهذا يفترض استمرار قيم الأصول المشتراة على الارتفاع، النجاح أصعب فأصعب في هذه اللعبة، واضطر بعض أصحابها الى بيعها لتسديد ديونهم. ومع تزايد بيع الأسهم والعقارات تفشى الذعر. وحين شرع المستثمرون في سحب أموالهم الى الخارج هبطت أسعار العملات. ولأن القروض كانت بالنقد الأجنبي أمسى تسديدها بالعملة المحلية أعلى فأعلى كلفة. فعلى سبيل المثال هبطت قيمة الروبية الأندونيسية الى النصف أوائل ١٩٩٨ خلال ثلاثة أيام فقط، فدب الهلع بين الناس فاشتروا كل ما في المتاجر من معروض السلع، لاسيما الأساسية، خشية أن تشهد الأسعار مزيداً من الالتهاب أو تختفي السلع من الأسواق. وزاد في الطين بلة الإدراك المتنامي بأن المزيد من المشاكل قادم، فتفاقم هبوط العملات والأسهم. وقد لعبت دوراً هاماً في هذا الشأن مساعي الصين لزيادة صادراتها وذلك لأن الأجور فيها أقل بكثير من الأجور في أهم بلدان المنطقة. فزيادة صادراتها قلّصت إمكانية تصريف سلع بلدان المنطقة في أسواق العالم. وأدى ذلك كله الى تآكل سريع لاحتياطي النقد الأجنبي لدى حكومات بلدان المنطقة حين هرعت رؤوس الأموال الى الهرب. فتبين أن الحكومات كانت تتستر على واقع احتياطياتها من النقد الأجنبي بغية إقناع المستثمرين أن أموالهم في أمان. وبغية إلقاء المزيد من الضوء على هذه السيرورة نستعرض معالمها فيما يلي.

اندلعت الأزمة في كوريا الجنوبية أولاً ثم في تايلاند. ففي كوريا أعلنت العجز عن تسديد ديونها شركة هامبو للفولاذ وذلك في كانون الثاني ١٩٩٧، وهي شركة رئيسية في صناعة شديدة التأثر بتباطؤ الطلب، وكان إعلانها بداية لسلسلة من الإخفاقات المماثلة جراء هبوط المبيعات بعد إفراط في الاقتراض، شأن أغلب الشركات، بالقياس الى موجوداتها، مما يجعلها عرضة للأزمة حين يتباطأ الاقتصاد. وكانت الحكومة تحمي مثل هؤلاء المقترضين وكذلك البنوك المحلية التي تقرضهم، فافرطوا في الاستثمار. كان عجز شركة هانبو وما تبعها مثابة النهاية لنجاح النمط الكوري كما سنرى.

أما تايلاند فكانت قد اقترضت أكثر من غيرها بالقياس الى ناتجها المحلي، فصار اقتراض المزيد من المال مثار حذر المستثمرين حين تباطأ نموها، بعد أن كانت تحصل على قروض جديدة قصيرة الأجل لتسديد القروض السابقة. ولئن كانت أغلب القروض في كوريا لشركات ضخمة احتلت موقعاً رئيسياً في التصدير، فإن فقاعة الاقتصاد التايلاندي قد اعتمدت أكثر من غيرها على الاقتراض المفرط لغرض تمويل استهلاك بذخي، مثلاً لبناء المزيد من عمارات المكاتب العالية وساحات لعبة الغولف، بأموال

أجنبية افترض أصحابها أن النمو لن يتوقف. ولكن بحلول أيار ١٩٩٧ تضافر عدم الاستقرار السياسي مع التباطؤ المستمر لسير الاقتصاد لزعزعة العملة المحلية. فقد أحسّ المستثمرون أن الوليمة توشك على النهاية فراحوا يسحبون كل ما استطاعوا من أموالهم تحاشياً للخسائر، ولأنهم أقبلوا على شراء الدولار بالعملة المحلية تآكل احتياطي البلاد من العملة الأجنبية بسرعة، فهبطت قيمة العملة بنسبة ٤٠٪ خلال سنة، وهبط سعر الأسهم بنسبة ٧٠٪ قياساً الى ذروته عام ١٩٩٤، فاستقال وزير المالية في حزيران. ثم اتجهت أنظار المضاربين الى العملة الفيليبينية.

في تموز تعاونت البنوك المركزية في الفيلبين وماليزيا وأندونيسيا لحماية عملاتها. وفي أيلول شرع رئيسا ماليزيا وأندونيسيا في إلقاء مسؤولية مشاكل بلديهما على عاتق المضاربين اليهود، ولاسيما سورس. وفي تشرين الأول تعرضت الأسهم في هونغ كونغ الى هزة لم تشهدها سابقاً، ففي غضون أربعة أيام فقدت ربع قيمتها.

في خريف ١٩٩٧ أعلن صندوق النقد الدولي صفقاته الإنقاذية بمبالغ هائلة، لكنه لم يفلح في تهدئة الأسواق. وقاومت حكومات هذه البلدان شروط الصندوق للإصلاحات البنيوية رغم أنها وعدت بالإذعان. وانطلقت بالونات اختبار حول مشروع للإنقاذ تتزعمه اليابان، كجهد مشترك مع بلدان آسيوية، لإيجاد آلية إقليمية لانتزاع حرية أكبر من السيطرة الأمريكية. لكن المشروع أخفق لإصرار الصندوق، الخاضع لسيطرة أمريكا، على أنه هو الوسيلة الملائمة لمعالجة الأزمة. ومن العوامل التي لعبت دوراً في هذا الشأن اعتماد المنطقة عسكرياً على أمريكا في مواجهة ما يفترض من خطر توسعي صيني، والقلق بشأن قضية كوريا الشمالية، وضعف الاقتصاد الياباني إزاء الاقتصاد الأمريكي في هذه الفترة. ومازال الجدل قائماً ضمن النخبة الآسيوية حول المدى المرغوب والممكن للاستقلال عن أمريكا.

توالت الانتقادات للصندوق من اليمين لتدخله في عمل السوق، ومن اليسار لطبيعة الحلول التي طرحها والمتمثلة في التسديد الكامل للقروض الأجنبية، وفي التقشف كشرط لتقديم «العون» مما له عواقب وخيمة على شعوب المنطقة. وبحلول بداية ١٩٩٨ صارت الأزمة في صدارة صحف العالم الكبرى كل يوم. وراح رئيس البنك المركزي الأمريكي يحذر من انتشار الأزمة الى مناطق أخرى ويدعو الى تقديم قروض ضخمة لتلافي الاضطراب الذي يداني «الهلع». وقام وزير الدفاع الأمريكي بزيارة ذات دلالة الى المنطقة معرباً عن القلق إزاء تعرضها المحتمل الى «الاضطراب» وهو بذلك يقصد التحدي

لواقع الهيمنة الأمريكية، فطمأنه رؤساء المنطقة أن جيوشهم قادرة على معالجة الاحتجاج الشعبي.

هكذا يتضح أن تأثير هبوط العملة التايلاندية على المنطقة يشبه تأثير هبوط العملة المكسيكية على أمريكا اللاتينية. فهذه البلدان كانت تنتهج سياسة لا تختلف عن سياسة تايلاند، وقد تفاقمت الثغرات في أوضاع آسيا الشرقية مع هبوط قيمة العملة التايلاندية فما لبثت صادرات جيرانها إن أمست أقل قدرة على التنافس في الأسواق المشتركة مع تايلاند. فتذكّر المراقبون ما شهدت الثلاثينات من تنافس من خلال تخفيض العملات المحلية كي تنخفض أسعار الصادرات بالعملات الأجنبية. فلا تلبث المكاسب الوقتية أن تتلاشى حين يلجأ المنافسون لتخفيض قيمة عملاتهم المحلية لتستعيد صادراتهم موقعها في المنافسة.

بادئ الأمر انصبّ الاهتمام على الكثير من الديون الميتة في سجلات بنوك المنطقة، تلك الديون الممولة من القروض الأجنبية والتي بات تسديدها متعذراً، كما أثار الاهتمام كون الكثير منها كانت حصيلة معاملات محكومة بالفساد المتأصل في الاقتصاد السياسي لهذه البلدان. فقد دأبت البنوك على إقراض السياسيين مثل سوهارتو وطغمته وأفراد عائلته في أندونيسيا مبالغ طائلة يستثمرونها في مشاريع تبعث على الشك جداً. وهكذا راحت هونغ كونغ، وعملتها مدعومة باحتياطي النقد الأجنبي، تشاهد صادراتها تفقد تنافسيتها فتخسر أسهمها نصف قيمتها بين ليلة وضحاها. وفي كوريا اعتمدت سياسة التنمية الناجحة على قروض، بفوائد أوطأ من المعدل السائد في السوق، لتكتلات الشركات التي تحظى بتأييد الحكومة، ولقاء ذلك يقدم أصحابها تبرعات سخية للسياسيين. وهكذا أصبح الإفراط في الاستثمار النتيجة الفعلية لستراتيج التنمية بصرف النظر عن تكاليفها، وذلك في عالم رأسمالي تسوده فوضى الإنتاج، ولابد أن تؤول فترات ازدهار الاستثمار فيه الى نهايتها. وفي مناخ كهذا راح المقرضون الأجانب يطالبون بإصلاحات عاجلة بعد أن أبدوا كل تعاون طيلة عقود بإقراض كل من شاء بصرف النظر عن سلامة مشروعه.

قاومت نخب آسيا الشرقية مطالب المقرضين الأجانب بإعادة الهيكلة مفضلين الاستمرار على ما اعتادوه، مفترضين أن أمريكا لن تسمح بانهيار اقتصادات بلدانهم. فرغم أنها عاجزة بالفعل عن تسديد القروض، لم تقلص تكتلات (التشايبول) الكورية استثماراتها وهي من أضخم التكتلات المتعددة الجنسيات في العالم. فسعى بعضها حتى

الى زيادة الاستثمار رغم الطاقات الإنتاجية الزائدة عن اللزوم. فواصلت تكتلات هيونادي ودايو توسيع إنتاج السيارات رغم أن طاقة إنتاج السيارات في العالم تشكو من التفوق الكبير في العرض على الطلب. وأصرّت شركة سامسونغ على ولوج إنتاج السيارات رغم أن شركة (كيا) للسيارات، وهي ثاني أكبر منتج للسيارات في البلد، لجأت الى الحكومة طالبة إنقاذها من الإفلاس. وفي أندونيسيا، رابع أكبر البلدان في العالم من حيث عدد سكانها، وأقرب بلدان المنطقة من الانهيار الاقتصادي، واصل سوهارتو تأييد مشروع صناعة السيارات الذي يفتقر الى الجدوى الاقتصادية، ويتولى إدارته ولده الذي اقترض مئات الملايين من البنوك التي تخشى رد مطالبه. وبلغت مئات الملايين من الدولارات خسائر مجمع بتروكيميائي ضخم يديره ولده الآخر. ويتولى أقرباء وأتباع سوهارتو المقربون إدارة مصانع الطائرات وأحواض بناء السفن وبنوك خاسرة جميعاً.

إن بنى السلطة متباينة في المنطقة لكن نمو بلدانها جميعاً كان قائماً على استغلال اقتصادي شديد، وعلى القمع اللازم لإدامة أنظمتها. لقد تزايد الضغط من أجل الديمقراطية وثمة مقاومة متنامية لفساد النخب الحاكمة. وأهم من ذلك أن أسواق العالم، التي تعاني التخمة، قد وضعت هذه الأنظمة في مأزق. فلم تعد واثقة كل الثقة بالنفس في مواجهة ضغوط الأسواق والضغوط السياسية من أجل فتح أسواقها أمام الاستثمار الأجنبي وإنهاء دعم الدولة للبنوك والشركات التي تتمتع بالحظوة.

غير أن التركيز في تفسير الأزمة على آثام الحكام، وليس على الأسباب الكامنة في جوهر النظام الرأسمالي، وعلى الدور السيئ الذي لعبه المقرضون الأجانب، إنما يمهد الطريق أمام حلول تحابي الرأسمال العالمي. فمثل هذا التفسير يتجاهل الإفراط في التفاؤل الذي ميز نشاط خبراء المال الغربيين الذين يعملون، في العادة، للشركات الأجنبية التي تبيع السلع الاستثمارية للمنطقة، والذين أشاعوا الخدر في أسواق آسيا والأوهام في تفسير النجاحات الاقتصادية طيلة العقود الأخيرة، وما انطوت عليه من إفراط الاستثمار في الإنتاج، وما أعقبه من مضاربات مفرطة، ومن ثم انهيار الأسواق.

لمحة من تاريخ المنطقة

لقد خُلقت الأنظمة الفاسدة في المنطقة في ظل الحرب الباردة، سواء بتأييد أمريكا أو على يدها، وكان على رأسها، في العادة، عسكريون ارتبطوا بعلاقة تبعية لأمريكا، وظلوا على استعداد لذبح من يعارض حكمهم. إن تحديات الحركات الثورية، ومغريات إعادة

توزيع الدخل والتخطيط في الأنظمة الشيوعية، قد رد عليها الحكام بإجراء إصلاح زراعي وتنمية ترعاها الدولة في كوريا الجنوبية وتايوان باعتبارهما «دولتي مواجهة». ولإضفاء المشروعية على هذين النظامين من خلال النمو الاقتصادي تلقيا مساعدات أمريكا في إطار الحرب الباردة. وتضافر على تحقيق النجاح الاقتصادي في البلدين ما ورثا من عهد الاحتلال الياباني لهما من تقاليد التدخل الحكومي في الاقتصاد وكذلك المساعدات الخارجية التي شكلت نسبة هامة من رؤوس الأموال التي تدفقت إليهما.

ثمة جدل غير قليل حول صواب القول بوجود نمط آسيوي شرقي للتنمية، ولكن هناك اتفاقاً واسعاً حول قدرة السلطة على مساعدة الرأسماليين المحليين على المنافسة في الأسواق الخارجية، وذلك بأن توفر لهم رأس المال بكلفة زهيدة، والحيلولة دون تسرب المال الى الخارج ليبقى قيد الاستثمار داخلياً، وإبقاء كلفة العمل واطئة بأي وسيلة تحتاج إليها الأنظمة غير الديمقراطية. وقامت البنوك المحلية بتعبئة المدخرات الداخلية وأتاحت للشركات التوسع دون أن تخشى المطالبة بتسديد قروضها، مادامت هذه الشركات تتعاون مع تكنوقراطيي الحكومة. ولم يُسمح للبنوك الأجنبية بالعمل داخل البلاد أو لعب دور كبير في اقتصادها. وحرّمت الحكومات القمعية النشاط على النقابات وحركات المعارضة السياسية وذلك بغية إبقاء الاستهلاك الشعبي في أدنى مستوى والتراكم في أعلى مستوى ممكن.

وهكذا اتبعت كوريا الجنوبية ثم تايوان الاستراتيج الياباني في رعاية الدولة للتنمية بتوفير قروض زهيدة الكلفة ودعم الصناعة لتمكينها من منافسة البلدان المصنعة. ونالت في ذلك دعم أمريكا خوفاً من الخطر الصيني الذي جعلها تتجاوز نهجها في عدم تشجيع التصنيع في العالم الثالث. وبمضي الوقت تغير هذا النهج، وذلك لأن الشركات متعددة الجنسيات، التي مقرها في أمريكا، وجدت في قيام صناعات تحويلية واطئة التكاليف في المنطقة مصدراً ممكناً لجني الأرباح فاقبل الرأسمال المحلي في هذه المنطقة على الاستفادة من هذا التحول في الاستراتيج الأمريكي.

دأبت الصحف الكبرى التي تملكها الشركات على اعتبار النمو الاقتصادي في هذه المنطقة معجزة اقتصادية، وبرّزت بالحديث عن دور «القيم الآسيوية» ما اتسمت به التنمية هناك من استغلال فاحش عرفته الرأسمالية في السابق، بالإضافة الى قمع التطلعات الديمقراطية للسكان. وها قد تكشفت علل هذا النمط للتراكم الرأسمالي بفعل عاملين عنيدين، أولهما تخمة أسواق العالم ووجود طاقة إنتاجية عاطلة على نطاق عالمي.

أما الثاني فهو يتمثل في الفقاعات المالية التي تكونت حين لم تعد الأرباح الضخمة التي درتها اقتصادات المنطقة تجد لها فرصاً مربحة للاستثمار في الإنتاج، فاتجهت الى المضاربات في العقارات والأسهم فضلاً عن المزيد من الإقراض لشركات لا تمتلك كفاءة بل تتمتع بالنفوذ السياسي. وهكذا تضخمت الفقاعة حتى انفجرت كما هو محتوم.

أشباح خفض الأسعار والطاقات الإنتاجية العاطلة

ها نحن اليوم نشهد خفض الأسعار في اليابان وهبوط معدل التضخم الى أدنى مستوياته منذ عقود في البلدان الصناعية المتقدمة، وانهيار أسواق العقارات والأسهم في بلدان آسيا الأخرى، وهبوط المداخيل وقيم الأصول في مسار حلزوني. إن الطاقات الإنتاجية العاطلة في صناعات تمتد من الفولاذ الى السيارات، ومن رقائق الكومبيوتر الى المحركات العاملة بالغاز، قد أدت الى التشاؤم في التوقعات. ولا ترى الشركات جدوى في التخلص من طاقاتها العاطلة في الوقت الحاضر، بل تعمل على تحديثها آملة أن رفع كفاءة مصانعها يساعدها على تسويق المنتجات على حساب شركات أخرى. لكن الواضح أن الطلب العالمي لا يتسع لطاقات إضافية. وصحافة المال طافحة بأمثلة، كهبوط سعر المادة الأولية لصناعة المضادات الحيوية الى ١١ دولاراً عام ١٩٩٧ بعد أن كان ٢١ دولاراً أواسط ١٩٩٦، وذلك لأن الصين والهند صارتا من أكبر منتجيها وهما ماضيتان في توسيع طاقة إنتاجهما. ففي أواخر ١٩٩٧ كانت أسعار ثلثي منتجات الصناعة التحويلية الأمريكية إما تعاني الهبوط وإما الركود.

إن الأزمة المالية في آسيا الشرقية تضطر بلدانها الى تقليص استيراداتها من أمريكا وغيرها، والى زيادة صادراتها حتى لو تطلب ذلك إجراء تخفيض كبير في أسعارها. ومن شأن ذلك إحداث ضغوط إضافية على الأسعار وبالتالي هبوط معدل الربح على كل وحدة. ولو ارتفع الطلب بسرعة كافية لأدى تخفيض الأسعار الى زيادة مجموع الإيراد ورفع مستوى المعيشة لكن التقشف يسود العالم، فآسيا الشرقية مضطرة إليه في ظل أزمتها، وأوروبا مضطرة إليه للوفاء بشروط توحيد عملاتها. أما أمريكا فغير قادرة على استيعاب كل منتجات الطاقات الإنتاجية العاطلة رغم أنها أكبر مستهلك في العالم.

يرى المراقبون عن حق أن اقتصاد آسيا الشرقية ليست نسبته كبيرة في الاقتصاد العالمي وفي تجارته. غير أن الصادرات الى هذه المنطقة شكلت ثلثي الزيادة في صادرات اليابان خلال التسعينات وحوالي خُمس الزيادة في صادرات فرنسا وألمانيا وإيطاليا

وأمريكا خلال هذا العقد. وهذه البلدان أسواق هامة لبعضها البعض أيضاً. فعلى سبيل المثال، يذهب نصف صادرات الصين الى آسيا التي ظلت أسواقها محط آمال المصدرين في كل مكان. فها هو العجز التجاري يبلغ الذروة في أمريكا، مثلاً، بسبب الأزمة الآسيوية. والنمو الطفيف الذي شهدته أوروبا مؤخراً قد يتلاشى جراء تلك الأزمة، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار معايير معاهدة (ماسترخت) لإقامة العملة الأوروبية الموحدة فإن من غير المتوقع أن ينمو اقتصادها بما يكفي لتعويض ما تخسره في آسيا من أسواق.

في ١٥/١١/١٩٩٧ تساءلت مجلة المال البريطانية (إيكونومست): هل يحل الكساد في العالم؟ ومما قالت إن حصول الانكماش «لا يكشف العيب في الرأسمالية بل يكشف عدم كفاءة البنوك المركزية والحكومات» (ص١٥). لست أريد الدفاع عن الحكومات الرأسمالية، غير أن عملها ضمن الشروط الموضوعية السائدة والواجبات المحددة لها، تدفعها الى خيارات معقولة قد لا ترضي دعاة حرية السوق. فالرأسمالية، كنظام، تخلق فقاعات ذات طابع مضارب. هذا ديدنها. فالبنوك المركزية تواجه حالات يتعذر فيها توليد النمو إلا بخلق ظروف تؤدي في المستقبل الى الإفراط في التوسع ومن ثم الانكماش أو الكساد. فالصعود والهبوط في عالم المال جزء متأصل في النظام الرأسمالي كما عرفناه دوماً. والمشكلة تكمن في الثقة باستقرار الأسواق غير المقيدة، لا في الحلول التي تلجأ إليها البنوك المركزية.

ستراتيج الطبقة الحاكمة

تعرضت صفقة الإنقاذ، التي طرحها صندوق النقد الدولي، وكذلك الشروط الخاصة التي فرضها، الى انتقاد مختلف الأوساط. فاقتصاديو حرية السوق وعديد من أعضاء الكونغرس انتقدوا إدارة كلنتون لأن الصفقة تحول دون انفتاح الأسواق الآسيوية انفتاحاً أوسع، ذلك لأن هذا الإنقاذ يجعل المستثمرين أقل حذراً عند استثمار أموالهم، مادام الصندوق وأمريكا جاهزين عند الحاجة للإنقاذ من الإفلاس التام، وبذلك تتضخم الفقاعة. لكن العالم قد شهد، من قبل، فقاعات أضخم مما في آسيا الشرقية، رغم عدم وجود أية صفقة من هذا القبيل. ثم إن عدم اللجوء الى الصفقة الإنقاذية كان سيؤدي الى انهيار النظام المالي في تلك المنطقة، وربما يؤدي كذلك الى انهيار بنوك يابانية وأوروبية ويدفع العالم الى هاوية الكساد. يقول بعض المحللين إن ذلك لن يحدث، فهل هم واثقون؟ ولكن إذا كانت الحاجة تدعو الى صفقة إنقاذية، فمَن الذي تحميه والى أي مدى؟ لمصلحة من

جرى ترتيب صفقة الإنقاذ المكسيكية عام ١٩٩٥ من قبل إدارة كلنتون؟ فلا ريب أن القرض الذي قُدم للمكسيك قد ذهب الى جيوب المستثمرين الأمريكان وغيرهم. فمن شأن مثل هذه الصفقات الإنقاذية إزالة المجازفة أمام الرأسماليين الذين يستثمرون أموالهم بأرباح طائلة في بلدان أجنبية معرضة للهزات.

إن ستراتيج صندوق النقد الدولي في أزمات المصارف هو تقديم مساعدة مضمونة بحجم يبعث على اطمئنان المستثمرين من أن مالهم سيعود إليهم، إذا ما ساءت الأحوال. وذلك يحول دون هلعهم وسحب أموالهم من الاقتصاد المعني ويحفز آخرين على المزيد من الاستثمار في ذلك الاقتصاد الذي لا يلبث أن يستعيد أنفاسه ويجري البلد إصلاحات هيكلية، فيسدد ديونه الى الصندوق وأمريكا فلا يخسر دافع الضرائب أي شيء. تلك هي نظريتهم، ويقولون إنها تحققت في المكسيك، ذلك أنها سددت الديون قبل موعد استحقاقها. لكن شروط الصفقة هبطت بمستوى معيشة الشعب هبوطاً شديداً، وهذه ليست مشكلة عند الطبقة الحاكمة مادامت قادرة على تلافي عواقبها السياسية. ثم إن مثل هذه الصفقات الإنقاذية تشكل سابقة تغري الرأسمال بإقراض مفرط لبلدان مثل المكسيك وكوريا الجنوبية.

يأمل الرأسمال العالمي أن تؤدي أزمة الديون في آسيا الشرقية الى عرض الشركات الخاسرة في المنطقة للبيع بأسعار بخسة، وانتقال السيطرة على البنوك والشركات الى يد الرأسمال الأجنبي، كما حصل في أمريكا اللاتينية عند «حل» مشكلة المديونية هناك. فعالمنا يشهد مزيداً من التركيز والتمركز في مجالات تمتد من البنوك الى الاتصالات السلكية، ومن الكيمياويات الى الصناعة الالكترونية فمن المتوقع اندماج شركات كثيرة على نطاق محلي وعالمي لتشكل مؤسسات عملاقة قادرة على الصمود عالمياً. ولكن من يتحكم بالعمالقة هذه؟ الرأسمال العالمي يريد لأزمة آسيا الشرقية «حلاً» يضطر الرأسماليين والساسة هناك الى التخلي له عن الملكية والسيطرة كشرط للإنقاذ. إن الإفراط في الاستثمار يمثل أزمة للدائنين، بل يمكن أن يوفر لهم فرص الربح. فتوطيد سيطرة الرأسمال متعدد الجنسيات، من خلال تسويات مماثلة لأزمة الديون، هو إحدى السمات الرئيسية للرأسمالية المعاصرة.

الشق الأول من الستراتيج هو حماية البنوك العالمية بإقراض البلد المدين مبالغ هائلة يقوم بتسديدها من خلال التقشف. ويتحقق ذلك بتفشي البطالة المدمرة وتخفيض الأجور. إن تخفيض قيمة عملة البلد سيجعل وارداته أعلى كلفة فيهبط بمستوى المعيشة

من حيث الاستهلاك. فبعد «نجاح» صفقة الإنقاذ في المكسيك، هبط معدل أجور العمال بنسبة ٣٠٪ بالإضافة الى ما ظل الناس البسطاء يعانون طيلة الثمانينات التي سميت «العقد الضائع». فالعبء الذي يتحمله الشعب لا يدخل في حسابات المصرفيين والمنظمات الدولية التي تتولى حماية مصالحهم.

أما الشق الثاني من الستراتيج فيتعلق باستيلاء المستثمرين الأجانب على الأصول المحلية وذلك من خلال إرغام المدين على فتح سوقه وبيع الشركات التي توشك على الإفلاس بسبب الأزمة المالية. فتزداد سيطرة الرأسمال الأمريكي على اقتصاد البلد المدين. وهذا ما يسميه كثيرون «امبريالية مالية».

في ١٣/١٢/١٩٩٧ قالت مجلة «إيكونومست» إن «بعض الإجراءات التي فرضها صندوق النقد الدولي على كوريا الجنوبية، لاسيما في مجالات فتح أبواب النشاط للبنوك الأجنبية، كانت من القضايا المطروحة سابقاً في جدول عمل أمريكا في علاقتها الثنائية مع كوريا». لقد اضطُرت كوريا للموافقة على إجراءات عديدة لا يتوقع المرء أن تكون مرتبطة بصفقة إنقاذية، ومن هذه الإجراءات مثلاً تقليص عدد الوثائق المطلوبة عند استيراد كوريا للسيارات! وعلى غرار ما حصل في أمريكا اللاتينية يريد الصندوق أن يحمي البنوك الأجنبية وتحويل ديون الشركات الى دين حكومي. وهكذا فإن الصندوق المموَّل من الضرائب في أمريكا والبلدان الاخرى يقرض أموال مواطنيها الى البلدان التي تعاني الأزمة فتذهب هذه الأموال، في نهاية المطاف، الى البنوك التي أساءت التصرف بتقديم قروض مفرطة الى هذه البلدان، فساهمت في توليد أزماتها. ومن أول شروط الصندوق على كوريا انتهاج سياسة التقشف التي تؤدي الى زيادة البطالة والمعاناة.

لقد هبطت أسعار البورصة في كوريا بما يزيد على ٤٠٪ وفقدت عملتها أكثر من نصف قيمتها إزاء الدولار، فبات سعر أصول الشركات بالدولار حوالي ثلث ما كان عليه السعر قبل سنة. فأخذ أثرياء الغرب، أفراداً وشركات متعددة الجنسيات، يتصيدون الصفقات الرابحة. فالمغنّي مايكل جاكسون، على سبيل المثال، شرع يتفاوض لشراء منتجع للتزلج من المالك الذي أفلس مصنعه المنتج للألبسة الداخلية. وشركة سامسونغ للالكترونيات، وهي أكبر منتج في العالم لرقائق الذاكرة، تجري المداولات لبيعها بـ ٢,٤ مليار دولار فقط، أي بكلفة مصنع واحد من مصانعها المتعددة. وأثناء المفاوضات مع أمريكا والصندوق تخلت كوريا للمستثمرين الأجانب عن السيطرة على شركاتها

وبنوكها، وهو ما كانت تقاومه حتى ركعت تحت ثقل الأزمة المالية. [وكثيرة هي أمثلة الشركات والبنوك التي ستباع للرأسمال الأجنبي].

ولكن ثمة جانب أعمق للشروط التي أمليت على كوريا. فالتنمية رعاية الدولة التي أنتجت نمواً فائقاً طيلة عقود كانت تنمية قائمة على توفير الدولة قروض زهيدة الكلفة للشركات العملاقة فقامت باستثمارات هائلة لا يمكن أن يحصل مثلها في الغرب ضمن نظامه المصرفي. وهكذا أوصلها الإفراط في الاقتراض الى الأزمة الحالية. فلكي يعود حجم ديونها قياساً الى رأسمالها الفعلي الى المعايير المألوفة في الغرب، لابد من ترشيق نفسها، وبالتالي خلق بطالة واسعة وانكماش عميق. وعلى المدى الطويل، فإن الاقتصاد الكوري، بعد إجراء التغييرات البنيوية المطلوبة، قد يستأنف النمو ولكن على أساس النظام المالي الغربي. لكن فترة الانتقال هذه ستهز المجتمع هزاً عميقاً لا يمكن التنبؤ به، وستكون له عواقب خارج حدود كوريا. ومثل هذه العواقب سينجم عن التغييرات البنيوية للنظام المالي في اليابان، مما يولد بطالة وانكماشاً يعرضان العالم الى خطر الكساد وذلك بسبب أهمية الاقتصاد الياباني. إن سفينتنا تبحر في مياه مجهولة، فأولئك الذين يضعون كل ثقتهم في سحر السوق إنما يعرضون العالم الى مخاطر جدية.

إن الإمبريالية المالية تدفع بالتناقض الطبقي، الى الصدارة، من خلال الكشف عن استخدام الديون كوسيلة لإعادة توزيع الثروة والسلطة، وكأداة فعالة لإخضاع العاملين. إن تنامي الوعي بأساليب رأس المال في صياغة واستغلال قواعد السوق كوسيلة للهيمنة الطبقية يتجلى في حملات الاحتجاج ضد صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، والمنظمة العالمية للتجارة، ومشروع الاتفاقية متعددة الأطراف. فأزمة آسيا الشرقية تبين من جديد أن حلول الامبريالية تزيد معاناة الجماهير وتعيد توزيع الثروة والسلطة لصالح الأثرياء. إن الخبراء على حق إذ يقولون أن لا خيار ممكناً ضمن النظام الرأسمالي. وما ذلك إلا اعتراف بأن الحلول ينبغي البحث عنها خارج البنى المؤسسية الرأسمالية غير العادلة. وإذ تمر الذكرى المئة والخمسون للبيان الشيوعي فإننا نشهد قبولاً متنامياً لإعادة التفكير على هذا النحو كما لم نشهده منذ وقت طويل.

ترجمة ث جـ بشيء من الإيجاز

عن مجلة مونثلي ريفيو ــ حزيران ١٩٩٨.

لماذا الاشتراكية؟

ألبرت أينشتاين*

هل من المحمود ان يتناول شخص غير مختص بالشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالشرح موضوعاً مثل الاشتراكية؟ لعدد من الأسباب أعتقد ان الأمر كذلك. ولنأخذ الأمر أولاً من زاوية المعرفة العلمية. فقد يبدو هنا ان ليس ثمة فروقات منهجية جوهرية بين علم الفلك والاقتصاد: إذ يحاول العلماء في كلا الحقلين اكتشاف قوانين مقبولة عموماً لمجموعة محددة من الظواهر في سبيل جعل الصلات المتبادلة بين هذه الظواهر مفهومة على أوضح ما يمكن. الا أن مثل هذه الفروقات المنهجية موجودة في الواقع. فمن الصعب اكتشاف القوانين العامة في حقل الاقتصاد لأن الظواهر الاقتصادية المبحوثة تؤثر عليها غالباً عوامل عديدة يصعب كثيراً تقييم كل منها على حدة. وفوق ذلك، فإن الخبرة المتراكمة منذ بداية ما يسمى الحقبة المتحضرة من تاريخ البشرية تؤثر عليها وتحددها، كما هو معلوم، عوامل ليست أبداً اقتصادية حصراً في طبيعتها. فأكثر الدول الكبيرة في التاريخ، مثلاً، تدين بوجودها للغزو. حيث رسخ الغزاة أنفسهم، شرعياً واقتصادياً، على غرار الطبقات الغنية في البلد المحتل. فاحتكروا لأنفسهم ملكية الأراضي وعينوا كهنة من بين أوساطهم. والكهنة، وبسيطرتهم على التعليم، جعلوا من التقسيم الطبقي للمجتمع مؤسسة مستقرة وابتدعوا منظومة من القيم التي ينقاد لها الناس منذ ذلك الحين انقياداً غير واع الى حد كبير.

* نشرت مقالة العالم اينشتاين في عدد أيار ١٩٤٩ من مجلة Mouthly Review بمناسبة تأسيسها، وتعيد المجلة نشرها دورياً في العدد الأول من كل مجلد، أي كل عشرة أعوام.

لكن التقاليد التاريخية تعود للماضي، كما يقال؛ فنحن لم نتغلب حقاً في أي مكان على ما يدعوه ثورشتاين فيبلين «مرحلة النهب» من تطور البشرية. فالحقائق الاقتصادية القابلة للبحث تعود الى تلك الفترة، وحتى القوانين التي يمكننا اشتقاقها منها لا تسري على المراحل الاخرى. وما دام هدف الاشتراكية الحقيقي هو بالتحديد ان تتجاوز وان تتقدم متجاوزة مرحلة النهب من التطور الانساني، فإن علم الاقتصاد لا يستطيع في حالته الحاضرة ان يلقي إلا قليلاً من الضوء على المجتمع الاشتراكي المقبل.

ثانياً، تتوجه الاشتراكية نحو غاية اجتماعية ـــ أخلاقية. أما العلم فلا يستطيع ان يخلق اية غايات، ناهيك عن ان يجسدها في كائنات بشرية؛ أقصى ما يستطيعه العلم هو ان يزودنا بالوسائل التي يمكن بواسطتها بلوغ مثل تلك الغايات. لكن الغايات نفسها تخيلتها شخصيات ذات مثل اخلاقية سامية، وهذه الغايات ـــ ان لم تكن تولد ميتة، بل حية ونشطة ـــ قد تبنتها وحملتها الى الأمام كل تلك الذوات البشرية التي تخدم، دون وعي أحياناً، التطور البطيء للمجتمع. ولهذه الأسباب، علينا الا نبالغ بالحديث عن العلم والمناهج العلمية عندما يدور البحث حول مشاكل البشر؛ وينبغي الا نفترض ان اولئك المختصين يمتلكون وحدهم حق طرح آرائهم بصدد القضايا المتعلقة بتنظيم المجتمع.

ترتفع العديد من الأصوات منذ حين مؤكدة ان المجتمع البشري يمر بأزمة، وان استقراره يضطرب بشدة. ومن المميز لهذه الحالة ان الأفراد يحسون باللامبالاة وحتى بالعداء تجاه الجماعة التي ينتمون اليها، صغيرة كانت ام كبيرة.

ولكي اوضح رأيي سأستعين هنا بتجربة شخصية. لقد ناقشت مؤخراً مع رجل ذكي وحسن الاطلاع خطر نشوب حرب اخرى، ستهدد برأيي وجود البشرية جدياً، وذكرت ان منظمة فوق ـــ قومية فقط سيمكنها ان توفر حماية من ذلك الخطر. فقال زائري بهدوء وبرود شديدين: «لماذا تعارض بهذه الشدة زوال الجنس البشري؟».

أنا متأكد انك لم تكن لتجد قبل قرن من الزمان احداً يطلق بخفة قولاً من هذا النوع. انه قول رجل يحاول عبثاً ان يحقق توازناً داخل نفسه إلا انه فقد، بهذه الدرجة او تلك، الأمل بالنجاح. وهو تعبير عن وحدة وعزلة مؤلمتين يعاني منهما كثير من الناس أيامنا هذه. فما هو السبب، وهل من مخرج من هذا الوضع؟

اذا كان طرح مثل هذه الاسئلة سهلاً فإن من الصعب الإجابة عنها بأي درجة من اليقين. لكنني سأحاول الاجابة، قدر ما أستطيع، رغم ادراكي ان مشاعرنا ومساعينا متناقضة ومبهمة غالباً، ولا يمكن التعبير عنها بصيغ سهلة وبسيطة.

الإنسان كائن منفرد وكائن اجتماعي في ذات الوقت. فهو يحاول، ككائن منفرد، ان يحمي وجوده هو ووجود اولئك الأقرب اليه، ان يشبع رغباته الشخصية، وان يطور قدراته الداخلية. وككائن اجتماعي، فإنه يسعى الى نيل الاعتراف والود من أقرانه من بني البشر. ان يشاركهم في أفراحهم، ويواسيهم في أحزانهم، وان يحسن ظروف حياتهم. وما يحدد سمات خاصة لإنسان ما هو فقط وجود هذه المساعي المتباينة، والمتنازعة في كثير من الأحيان، ويعين مزيج محدد من هذه المساعي مدى قدرة فرد ما على تحقيق توازنه الداخلي وعلى المساهمة في تقدم المجتمع. ويحتمل تماماً ان تكون القوة النسبية لهذين الدافعين محددة بالوراثة بصورة رئيسية. الا ان الشخصية التي تنبثق في النهاية، يشكلها الى حد كبير المحيط الذي يجد الإنسان نفسه فيه خلال تطوره، وبنية المجتمع الذي ينشأ فيه، وتقاليد ذلك المجتمع وتقييمه لأنماط خاصة من السلوك. ان «المجتمع» كمفهوم تجريدي يعني بالنسبة للانسان الفرد المجموع الكلي لعلاقاته المباشرة وغير المباشرة بمعاصريه وبالناس من أجيال سابقة. والفرد قادر بمفرده على التفكير، والشعور، والاجتهاد، والعمل؛ لكنه يعتمد الى حد كبير على المجتمع — في وجوده المادي والفكري والعاطفي — بحيث أن من المستحيل تخيله، او فهمه خارج اطار المجتمع. «فالمجتمع» هو الذي يزود الإنسان بالمأكل، الملبس، المسكن، أدوات العمل، اللغة، أشكال التفكير، وبغالبية محتوى التفكير؛ فقد صارت حياة الإنسان ممكنة بفضل عمل وإنجازات الملايين العديدة من البشر في الماضي والحاضر، وهم متوارون خلف هذه الكلمة الصغيرة: «مجتمع».

وهكذا يتضح ان اعتماد الفرد على المجتمع هو من حقائق الطبيعة التي لا يمكن الغاؤها — كما هو الحال بالضبط مع النمل او النحل. ولكن، إذ تقوم كل العمليات الحياتية للنمل والنحل حتى في أصغر تفاصيلها على غرائز موروثة صارمة، فان التكوينات الاجتماعية والصلات المتبادلة لبني البشر متباينة جداً وكبيرة القابلية للتغير. ان الذاكرة، والقابلية على تكوين روابط جديدة بين الأشياء، وموهبة الاتصال الشفوي تمكّن من حصول تطورات لدى البشر لا تمليها الضرورات البيولوجية. وتتجلى مثل هذه التطورات في التقاليد، المؤسسات والمنظمات؛ في الأدب؛ في المنجزات العلمية والهندسية؛ وفي الأعمال الفنية. وهذا يوضح كيف يمكن للإنسان ان يؤثر، بمعنى معين، في حياته من خلال سلوكه هو، وكيف يمكن للتفكير الواعي والارادة ان يلعبا دوراً في هذه السيرورة.

يكتسب المرء عند الولادة، وبالوراثة، تكويناً بيولوجياً يعتبر ثابتاً وغير قابل للتبديل، ويشمل الدوافع الطبيعية التي تميز الجنس البشري. وهو، علاوة على ذلك، يكتسب خلال فترة حياته تكويناً ثقافياً يتلقاه من المجتمع عبر الاتصال وعبر العديد من الأشكال الاخرى للتأثير. ان هذا التكوين الثقافي هو الذي يكون عرضة للتغير، مع مرور الوقت، وهو الذي يعين، الى حد كبير، العلاقة بين الفرد والمجتمع. وتعلمنا الانثروبولوجيا الحديثة، من خلال البحوث المقارنة لما يدعى الثقافات البدائية، ان السلوك الاجتماعي للبشر قد يتباين كثيراً، وذلك تبعاً للانماط الثقافية السائدة وأشكال التنظيم التي تغلب في المجتمع. وعلى هذا بالذات يمكن ان يعلق اولئك الذين يكافحون لتحسين مصائر البشر آمالهم: ان البشر ليسوا محكومين، بسبب من تكوينهم البيولوجي، بأن يدمر بعضهم البعض أو بأن يقعوا تحت رحمة قدر قاس يجرونه على أنفسهم.

واذا ما تساءلنا: كيف ينبغي ان يتغير بناء المجتمع والموقف الثقافي للإنسان في سبيل جعل الحياة الإنسانية مرضية بأكبر قدر ممكن؟ فإننا يجب أن ندرك دوماً ان هناك شروطاً معينة لا يمكننا تعديلها. وكما ذكرنا سابقاً، فان الطبيعة البيولوجية للانسان ليست موضوعاً للتغيير، مهما كان الغرض التطبيقي المراد. وعلاوة على ذلك، خلقت التطورات التكنولوجية والسكانية للقرون القليلة الماضية ظروفاً جاءت لتبقى. فان تقسيماً مفرطاً للعمل وجهازاً انتاجياً عالي المركزية صارا ضروريين تماماً للتجمعات السكانية الكثيفة نسبياً والبضائع الضرورية لاستمرار حياتها. لقد مضى بلا رجعة ذلك الزمن ـــ الذي يبدو جميلاً عندما نستذكر الماضي ـــ حينما كان يمكن لأفراد أو لجماعات صغيرة نسبياً ان تعيش في اكتفاء ذاتي. وليس في القول ان البشرية تقيم الآن مجتمعاً للانتاج والاستهلاك على نطاق الكوكب الا قليل من المبالغة.

ها أنا أصل نقطة يمكنني ان احدد عندها باختصار ما يمثل بالنسبة لي جوهر أزمة عصرنا. انه في العلاقة بن الفرد والمجتمع. فالفرد يدرك اكثر من أي وقت مضى اعتماده على المجتمع، لكنه لا يعتبر هذا الاعتماد شيئاً ايجابياً، كرابطة عضوية، او كقوة حماية، بل يعتبره تهديداً لحقوقه الطبيعية، او حتى لوجوده الاقتصادي. وفوق هذا، فان موقع الفرد في المجتمع يؤدي الى التشديد باستمرار على الحوافز الأنانية لتكوينه، في حين ان حوافزه الاجتماعية، التي هي أضعف بطبيعتها، تتدهور باطراد. ويعاني جميع البشر، مهما كانت مواقعهم في المجتمع، من سيرورة التدهور هذه. وإذ لا يدركون انهم سجناء أنانيتهم الخاصة، فانهم يشعرون بعدم الأمان، والوحدة، وبأنهم محرومون من متعة

الحياة الفطرية، البسيطة وغير المنمقة. ولن يجد الإنسان معنى في حياة قصيرة ومحفوفة بالمخاطر الا من خلال تكريس نفسه للمجتمع.

ان الأصل الحقيقي للبلاء هو، برأيي، الفوضى الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي على حاله اليوم. فنحن نرى جماعة هائلة من المنتجين يسعى أفرادها بلا انقطاع لكي يحرم بعضهم البعض من ثمار عملهم الجماعي — وذلك ليس باستخدام القوة، بل على العموم بالإذعان الكامل للقواعد القانونية السارية. ومن المهم في هذا السياق ان ندرك ان وسائل الانتاج — أي الطاقة الانتاجية الكاملة المطلوبة لانتاج سلع الاستهلاك وكذلك سلع للانتاج الاضافي — يمكن قانوناً ان تكون ملكاً خاصاً للأفراد، وهي كذلك في غالبيتها فعلاً.

تسهيلاً للايضاح سأطلق تسمية «عمال» على كل اولئك الذين لا يشاركون في ملكية وسائل الانتاج، رغم ان هذا لا يطابق تماماً الاستخدام الشائع للتسمية. ان مالك وسائل الانتاج هو في وضع يمكنه من شراء قوة عمل العامل. وباستخدام وسائل الانتاج، ينتج العامل بضائع جديدة تصبح ملكاً للرأسمالي. والنقطة الجوهرية في هذه السيرورة هي العلاقة بين ما ينتجه العامل وما يدفع له من أجر، مقاسين بالقيمة الحقيقية لكل منهما. وما دام عقد العمل «حراً»، فإن ما يقبضه العامل لا يحدد بالقيمة الحقيقية للسلع التي ينتجها، بل بالحد الادنى لاحتياجاته وكذلك بما يحتاجه الرأسمالي من قوى عاملة بالمقارنة مع عدد من العمال المتنافسين للحصول على عمل. ومن المهم أن نفهم ان قيمة ما ينتجه العامل لا تحدد أجره حتى من الناحية النظرية.

يميل رأس المال الخاص الى ان يتركز في أيد قليلة، بسبب المنافسة بين الرأسماليين، وكذلك لأن التطور التكنولوجي وتقسيم العمل المتزايد يشجعان على إقامة وحدات انتاجية أكبر بدلاً من الوحدات الصغيرة. وما ينجم عن هذه التطوات هو تحكم رأسماليين قلائل لا يمكن ضبط سلطتهم الهائلة بصورة فعالة حتى من قبل مجتمع سياسي ديموقراطي التنظيم. وتبقى هذه حقيقة مادام أعضاء الأجهزة التشريعية يختارون من قبل الأحزاب السياسية، وهي ممولة الى حد كبير، أو واقعة تحت تأثير الرأسماليين الذين يعزلون الناخب من الناحية العملية عن الهيئة التشريعية. والنتيجة هي ان ممثلي الشعب لا يحمون في الواقع حماية كافية مصالح القطاعات الفقيرة من السكان. وعلاوة على هذا، يسيطر الرأسماليون حتماً، في ظل الظروف القائمة، على المصادر الرئيسية للمعلومات (الصحف، الراديو، والتعليم)، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ولهذا

فإن من الصعب جداً، بل ومن المستحيل تماماً في أغلب الحالات، ان يتوصل المواطن الفرد الى استنتاجات موضوعية وان يستخدم حقوقه السياسية بذكاء.

يتسم الوضع السائد في اقتصاد يقوم علي الملكية الخاصة لرأس المال إذن بسمتين رئيسيتين: الاولى، ان وسائل الانتاج (رأس المال) ملك خاص، يتصرف المالكون بها حسبما يلائمهم؛ والثانية، ان عقد العمل حر. ومن هذه الناحية بالطبع لا يوجد مجتمع رأسمالي خالص. ولا بد من ان نلاحظ، خاصة، ان العمال نجحوا من خلال نضالات سياسية طويلة ومريرة، في ضمان صيغة محسنة نسبياً من «عقد العمل الحر» لفئات معينة من العمال. لكن الاقتصاد القائم اليوم لا يختلف كثيراً، اذا ما نظرنا اليه في مجمله، عن الرأسمالية «الخالصة».

ان الانتاج يتواصل لأجل الربح، لا لمنفعة المنتجين. وليس ثمة نص قانوني على ان كل اولئك القادرين والراغبين بالعمل سيكونون دائماً في وضع يمكنهم من الحصول على عمل؛ ويوجد على الدوام تقريباً «جيش من العاطلين». فالعامل في خوف مستمر من فقدان عمله. ومادام العاطلون عن العمل والعمال قليلو الأجر لا يضمنون سوقاً مربحة، فسيجري تقليص انتاج السلع الاستهلاكية، وبالتالي ستنشأ ضائقة شديدة. ويؤدي التطور التكنولوجي في كثير من الحالات الى مزيد من البطالة بدلاً من تخفيف عبء العمل عن الجميع.

ان حافز الربح، مقترناً بالمنافسة بين الرأسماليين، هو المسؤول عن عدم الاستقرار في تراكم رأس المال وفي استثماره، مما يؤدي الى كساد متزايد الشدة. وتؤدي المنافسة غير المحدودة الى إهدار هائل في العمل، كما تؤدي، كما أشرت، الى تدهور الوعي الاجتماعي للأفراد.

ان تعويق الأفراد بهذا الشكل هو ما اعتبره أسوأ شرور الرأسمالية. وكل نظامنا التعليمي يعاني من هذا البلاء. فهو ينمي لدى الطلاب روح المنافسة المغالية، ويعلمهم على عبادة النجاح المالي وذلك لتهيئتهم للحياة العملية المقبلة.

انني على قناعة من ان هناك طريقة واحدة فقط للتخلص من هذه الشرور الخطيرة، وذلك من خلال إقامة اقتصاد اشتراكي، يرافقه نظام تعليمي موجه الى غايات اجتماعية. ففي مثل هذا الاقتصاد، تعود ملكية وسائل الانتاج الي المجتمع نفسه ويجري استخدامها باسلوب التخطيط. ان اقتصاداً مخططاً، يوجه الانتاج لسد حاجات المجتمع، سيوزع العمل الذي يجب انجازه بين جميع اولئك القادرين على العمل، وسيضمن المعيشة لكل

رجل وامرأة وطفل. وستنحو تربية الفرد، فضلاً عن تطوير قدراته الداخلية، الى ان تنمي لديه شعوراً بالمسؤولية عن أخيه الإنسان بدلاً من تمجيد السلطة والنجاح في مجتمعنا الحالي.

يجب ان نتذكر، مع ذلك، ان اقتصاداً مخططاً لا يعني الاشتراكية بعد. فمثل هذا الاقتصاد المخطط يمكن بحد ذاته ان يترافق مع استعباد كامل للفرد. أما انجاز الاشتراكية فيتطلب حل مشاكل اجتما ـ قتصادية بالغة الصعوبة: كيف يمكن، في ظل التركز الكبير للسلطة السياسية والاقتصادية، منع البيروقراطية من ان تصبح كلية القدرة والغطرسة؟ كيف يمكن حماية حقوق الافراد وبالتالي ضمان ثقل ديموقراطي مقابل سلطة البيروقراطية؟

ان جلاء أهداف ومشاكل الاشتراكية على قدر عظيم من الأهمية في مرحلة الانتقال التي نشهدها. وبما ان المناقشة الحرة غير المقيدة لهذه القضايا تقع تحت طائلة تحريم قاهر، في الظروف الحالية، فانني أرى في تأسيس هذه المجلة خدمة عامة جليلة.

ترجمة: عماد عباس

اصـــدارات وردتـــنـــا

ألواح ، مجلة عربية تعنى بالفكر والثقافة ، العدد الرابع ١٩٩٨ ، ساهم فيه : أدونيس ، عبد الله حمودي ، د . تيسير الناشف ، جمال الحلاق ، جبرا ابراهيم جبرا ، د . طلعت شاهين ، د . كارمن رويث ، د . محمد المذكوري ، محسن الرملي ، ابراهيم أولجيان ، أحمد العبدلاوي ، محمد خير البقاعي ، عبد الهادي سعدون ، أنرمين ابراهيم ، أحمد ك . معيوف ، د . خالد سالم ، د . عبد العزيز المقالح ، جنان جاسم حلاوي ، رشيد نيني ، رعد مطشر مسلم ، سعد سرحان ، إيلينا موراتايا ، هشام فهمي ، عطا موسى ، سلمان داود محمد ، عبد السلام الجباري ، عنتر حسن أحمد ، جلال نعيم ، مزاحم العبد الله ، سعد عبد الصاحب ، باسم الأنصار ، ملك صهيوني ، إدريس علوش ، جمال عيسى ، رشيد دادا .

عشتار ، فصلية ثقافية تصدر في أستراليا ، العدد ٢٣ ، ساهم فيه : د . عقيل الناصري ، د . حسن الجنابي ، خالد شبيل ، عبد الإله الياسري ، فاخر جاسم ، علاء اللامي ، نصرت مروان ، صالح مصطفى ، طاهر عبد مسلم ، د . زاهد محمد زهدي ، عقيل منقوش ، عبد الستار نور علي ، باسم فرات ، حسين علوان .

حول «مستقبل الرأسمالية»

عزيز سباهي

عن دار المدى صدر مؤخراً كتاب «مستقبل الرأسمالية... كيف تصوغ القوى الاقتصادية الراهنة عالم الغد» وقام الزميل الباحث عزيز سباهي بترجمة الكتاب وقدّم للترجمة كما يلي:

منذ انهيار الاتحاد السوفيتي والأنظمة الاشتراكية السابقة في أوربا الشرقية ودعاة الرأسمالية ما برحوا يجأرون من منابرهم الدعائية الضخمة على أن نهاية التأريخ قد حلّت، وأن المنافسة بين الفكرين الرأسمالي والاشتراكي قد حسمت لصالح الأول الى الأبد، وأن الرأسمالية هي التعبير المنطقي والطبيعي لسير الأمور، وأنها السبيل الأصلح الذي توصلت اليه البشرية للتقدم الذي يستجيب الى طبيعة الانسان وغريزته في حب التملك.

ليست هذه هي المرة الأولى التي يردد فيها ايديولوجيو الرأسمالية هذه الادعاءات، لكنهم يحاججون هذه المرة من مواقع قوة بعد انهيار التجارب الأولى للاشتراكية، وبضراوة تحركها الرغبة الجامحة في مطاردة الاشتراكية لا كنظم أو منظمات وأحزاب سياسية فقط وإنما كفكر من الأساس أيضاً. انها فرصة العمر التي لا يصح التفريط فيها... من هنا تنطلق النيران الحامية على الماركسية، بل وعلى كل تلاوين الفكر الاشتراكي من كل الجهات. وتُساق المبررات لتزويق الرأسمالية وأنظمتها الاقتصادية

والسياسية: الرأسمالية أثبتت قدرتها على تجاوز الأزمات... التطور التكنولوجي العاصف في ميدان المعلوماتية ونظم الاتصالات والمواصلات يمكن أن يوفر المعالجات الوظيفية للمشكلات الانتاجية والمالية... التقدم التكنولوجي الذي وفرته الرأسمالية يمكنه ارضاء الحاجات المتعاظمة في ميداني الانتاج والاستهلاك، وبالتالي زيادة قناعة الناس ورضاهم... الحكم الطبقي التقليدي ورموزه يخلي المكان لحكم التكنولوجيا ومن يمتلك ناصيتها... الرأسمالية تعلمت كثيراً من تجربتها ومن التحديات التي طرحتها الشيوعية ولم تعد ثمة مصاعب لا يمكن ان تتخطاها... الايديولوجيات تخلي المكان لعقلانية التكنولوجيا المعلوماتية... ليست هناك من حدود قومية أو إثنية أو ايديولوجية، دينية أو غيرها، يمكن أن تصمد أمام زحف رأس المال الاحتكاري المظفّر في العالم ممثلاً بشركاته العابرة للقارات والجنسيات... لا صوت يعلو فوق صوت العولمة... والحصيف من يسبق غيره في ركوب موجتها والاقتداء بالنمور الآسيوية الأربعة!.

لقد ظل الحديث عن قدرة الرأسمالية على تجاوز العقبات التي تتولّد بفعل قوانينها هي ما يصدر باستمرار عن دعاة الرأسمالية منذ أن استطاعت المجتمعات الرأسمالية أن تتجاوز الكساد العظيم في أوائل الثلاثينات والنهوض باقتصاداتها المدمرة بعد الحرب العالمية الثانية والانطلاق في الموجة التكنولوجية الحديثة منذ السبعينات، وشاع في الأدب الاقتصادي البورجوازي القول بأن الرأسمالية قادرة بطبيعتها على التكيّف للأوضاع الجديدة... وذهب بعضهم الى القول بأن النظام الرأسمالي القائم لم يعد «رأسمالياً» على النحو الذي حدده كارل ماركس في (رأس المال)، وأطلق عليه بعض هؤلاء اسم «الرأسمالية الاداروية» Managerial Capitalism، مستلهمين في ذلك التقنيات الكنيزية وتدخلات الحكومات الرأسمالية لضبط بعض التناقضات، ومحاولات المؤسسات الاحتكارية لضبط العمليات الاقتصادية في إطار المؤسسة، واجراءات الضمان الاجتماعي في ما بات يعرف بدولة الرفاه الاجتماعي، وغيرها من الأنظمة التي اضطرت المجتمعات الرأسمالية الى اتخاذها منذ الكساد العظيم وكرد على الضغوط العمالية والاشتراكية. وقد غدا الايمان بالقدرة الكلية للتكنولوجيا هو الشكل المفضل للايديولوجيا البورجوازية في الرأسمالية المعاصرة. ان منظم الانتاج الرأسمالي السابق، الفرد المغامر العنيد يخلي المكان الآن الى فريق الخبراء ومجالس الادارة.

والحق نقول ان القول بقدرة الرأسمالية على التكيف إزاء تناقضاتها المتأصلة لم

تصدر عن ايديولوجيي الرأسمالية وحدهم، وانما شاركهم في ذلك بعض دعاة الفكر الاشتراكي منذ أن خرج إدورد برنشتاين ليبشر بالتكيف التدريجي للرأسمالية وقدرتها على تلطيف تناقضاتها الداخلية، والتحول الى «اقتصاد مختلط» يمكن أن تلتقي في اطاره المصالح الطبقية للرأسمالية والعمال على السواء. وعلى ذات المنوال سارت الحركة الاشتراكية الديموقراطية في أوربا الغربية منذ الحرب العالمية الأولى، وقد ذهب ستراتشي (حزب العمال البريطاني) في الخمسينات الى حد الدفاع الحار عن نصيب الرأسمالي مما يتم تحقيقه من فائض قيمة والتأكيد على أن ما يناله الرأسمالي الآن هو بعض ما كان يناله أسلافه من الرأسماليين من قبل. وكانت البورجوازية ولاتزال ترى في ما يدعو له الاشتراكيون الديموقراطيون لا يخرج عن كونه اجتهاداً خاصاً في إطار النظرة الواحدة والمصلحة الواحدة، ولم تجد غظاظة في أن يعتلوا سدة الحكم في البلدان الرأسمالية الصناعية إسوة بممثلي البورجوازية الآخرين.

بيد أن بعض عقلاء الرأسمالية وكتّابها الذين يحرصون على موضوعيتهم لا يرون في ما انتهت اليه الرأسمالية في نهاية القرن العشرين ما يختلف في الجوهر عما جاء به كارل ماركس في (الرأسمال). «كلما أمضيت مدة أطول في الوول ستريت ازدادت قناعتي في أن ماركس كان على حق»، «واقتنعت بشكل مطلق أن تناول ماركس للرأسمالية هو الأفضل في النظر اليها». لم يصدر هذا القول عن اقتصادي متحزب للماركسية، وانما عن رجل أعمال بريطاني يعمل في تنظيم اصدارات الأسهم في الوول ستريت درس الاقتصاد في جامعة اكسفورد على يد أساتذة لا يخفون عداءهم للماركسية. ويكتب السير جون هكس John Hicks، الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد: «انه لأمر غريب أنه بعد مئة عام من صدور «الرأسمال» لكارل ماركس لم يبرز سوى الشيء القليل جداً».

ان الذين نادوا بتغيّر طبيعة النظام الرأسمالي بفعل القوانين التي تصدرها الحكومات الرأسمالية أو بتأثير التنظيمات الخاصة التي تدخلها الاحتكارات في الانتاج والتوزيع، أو بتأثير كليهما، تناسوا أن كل هذه الاجراءات لم ولن تلغي عمل قانون القيمة، وما تنبثق عنه من تناقضات عميقة.

لقد حدد ماركس أسلوب الانتاج الرأسمالي بثلاثة شروط:

١ــ ان المنتجين لا يملكون وسائل الانتاج، بل هم ملزمون ببيع قوتهم العاملة الى مالكي وسائل الانتاج، ويدخل طرفا المعادلة في تناقض وصراع دائم بينهما.

٢ــ ان مالكي وسائل الانتاج هؤلاء مُنظمون في شركات منفصلة تتنافس في ما بينها حول ميادين الاستثمار والأسواق والمواد الخام... الخ وان هذه المنافسة ستدفع بهم الى الاحتكار والانتقال بالمنافسة الى مستوى أعلى.

٣ــ مالكو وسائل الانتاج هؤلاء ملزمون بحكم المنافسة فيما بينهم باستحصال أقصى فائض قيمة ممكن من المنتجين، أي العمال، من أجل أن يراكموا ويراكموا مزيداً من رأس المال في ظل أتمتة متعاظمة وتشريك اجتماعي للعمل وتعاظم الرأسمال العضوي وتزايد الاغتراب العام.

في اطار هذه الشروط الثلاثة أكد ماركس أن الرأسمالية ستبسط هيمنتها على مزيد من البلدان، وستعجل في نشر رأس المال الى كل زوايا الأرض، وستزيد من اللا مساواة بين صفوف المجتمع الواحد وبين شعوب الأرض وستقود الى مزيد من التقدم التكنولوجي ومزيد من الفساد السياسي والى انحدار الثقافة وشيوع الوهن في المجتمع الحديث، وقال بأن النقود ستغدو هي القيمة المكوّنة الذاتية لكل الأشياء، وستجرد العالم بأسره منْ قيمه الخاصة، بشراً وطبيعة: «النقود هي الجوهر المغترب لعمل الانسان ووجوده، وهذا الجوهر المغترب سيسود الانسان، وهذا سيعبده بدوره»، «ان البورجوازية لا تعيش الا اذا أدخلت تغييرات ثورية مستمرة على أدوات الانتاج، وبالتالي على علاقات الانتاج، أي على العلاقات الاجتماعية بأسرها، وبعكس ذلك، كانت المحافظة على أسلوب الانتاج القديم، الشرط الأول لحياة الطبقات الصناعية السالفة. هذا الانقلاب المتتابع في الانتاج، وهذا التزعزع الدائم في كل العلاقات الاجتماعية، وهذا التحرك المستمر وانعدام الاطمئنان على الدوام، كل ذلك يميز عهد البورجوازية عن كل العهود السابقة. فان كل العلاقات الاجتماعية التقليدية الجامدة، وما يحيط بها من مواكب المعتقدات والأفكار التي كانت قديماً محترمة ومقدسة، تنحلّ وتندثر؛ أما التي تحل محلها فتشيخ ويتقادم عهدها قبل أن يصلب عودها، وكل ما كان تقليدياً ثابتاً يطير ويتبدد كالدخان، وكل ما كان مقدساً يعامل باحتقار وازدراء ويضطر الناس في النهاية الى النظر بظروف معيشتهم، وعلاقاتهم المتبادلة بعيون يقظة لا تغشاها الأوهام». (البيان الشيوعي)... كما أكد ماركس أن الفقر والاملاق بين صفوف العمال يزدادان بسرعة تفوق سرعة ازدياد نمو الثروة.

حقاً لقد أدخلت الرأسمالية كثيراً من التغيّرات في بنيتها العامة، سواء كان ذلك بفعل

منطق قوانينها الخاصة أو بحكم التنافس مع الاشتراكية والضغوط التي واجهتها داخلياً وعالمياً. . . ولكن بعد أن زال أخطر منافسيها ممثلاً بالتجارب الاشتراكية الأولى. . . هل تطمئن الرأسمالية على مستقبلها، وهل وجدت سبيلها الى حل التناقضات العميقة المتأصلة فيها؟.

ان من يقرأ كتاب لستر ثورو (مستقبل الرأسمالية)، والمؤلف اقتصادي أمريكي محترف مرموق لا يضمر الود للاشتراكية، ولا يخفي شماتته لسقوط تجاربها الأولى، لا يخرج الا بقناعة، ان الرأسمالية العالمية، وليست الأمريكية وحدها، عاجزة عن الصمود ازاء التحديات العديدة التي تواجهها بقوة، ولا مخرج لها من تناقضاتها المتأصلة والمعقدة، وهي تجر العالم الى مستقبل مرعب مجهول. ان الرأسمالية في حاجة الى رؤية جديدة تنير لها السبيل نحو المستقبل، وهي لا تملك مثل هذه الرؤية ولن تستطيع توفيرها طالما ظلت تقوم على قيمها الفردية المطلقة. ان قصر النظر داء متأصل في الرأسمالية يدفع اليه البحث الدائب عن الربح العاجل، ويحول دون أن تمد نظرها بعيداً في المستقبل، الا أن حدة التشريك الاجتماعي الموضوعي للعمل الذي يصاحب التقدم التكنولوجي يُصدم مباشرة وبحدة بالأطر الضيقة التي تمليها الملكية الخاصة. ان أزمة علاقات الانتاج الرأسمالية تبدو كأزمة في الشروط الرأسمالية للملكية.

لقد أكد ماركس في مقدمة كتابه «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» أن أي نظام اجتماعي لا يهلك أبداً اذا كانت لاتزال أمام جميع قواه الانتاجية فرصة للتقدم وقبل أن تنضج الشروط المادية لوجود علاقات انتاجية أعلى وجديدة في رحم المجتمع القديم.

ان الرأسمالية تتخبط في تناقضاتها الخاصة، وهي تواجه حرباً بين متطلبات استمرار بقائها وتقدمها من جانب وقيمها الرأسمالية الخاصة من جانب آخر، وينعكس هذا الصراع واضحاً فيما يورده لستر ثورو لا في المجتمع الأمريكي وحده، وانما في كل المجتمعات الرأسمالية. ان الرأسمالية تبحث عن التوازن. . . لكنها لا تجد مثل هذا التوازن في كل شيء.

ان المؤلف، وهو يتابع تحليله، استناداً الى البيانات والمعطيات والوقائع الحسيّة يلحظ أن الرأسمالية باتت تفتقر الى النمو والعمالة الكاملة والاستقرار المالي والأجور الآخذة بالارتفاع حقاً. . . كل شيء من هذه يأخذ بالتلاشي. . . فنسب النمو الاقتصادي تتدنى أكثر فأكثر طوال العقود الأخيرة، والبطالة باتت مستحكمة وآخذة بالازدياد،

والأسواق المالية تضطرب بعنف منذرة بانهيارات كبيرة في عديد من البلدان، ومعدلات الأجور آخذة بالتدني، واذا وجد أنها تحتفظ بمستوياتها السابقة الى حد ما، فبصعوبة وعلى حساب الابقاء على مستويات عالية من البطالة، والعُجوز التجارية الضخمة تهدد بانفجار الأسس التي تقوم عليها التجارة الدولية... ان شيئاً ما في الرأسمالية قد تغيّر وأدى الى هذه النتائج المخيفة، ولا بد من أن يتغيّر شيء فيها اذا ما أريد لها البقاء... ولكن ما هو هذا الشيء الذي لا بد أن يتغيّر... ومن دونه لا تعود الرأسمالية قادرة على البقاء؟.

ان عزاء المؤلف الوحيد هو في كون الرأسمالية ــ كما يعتقد ــ لم تعد تجد المنافس القابل للحياة والنمو يمكن أن يندفع الناس نحوه حين تخيب آمالهم... إذ الرأسمالية لا تدمر نفسها كما يرى، والخطر يكمن في الركود وليس في الانهيار التام على غرار ما حدث لأوربا في القرون الوسطى.

لكن الاشتراكية العلمية ترى أن الثورة الاشتراكية تكشف عن نفسها، قبل كل شيء، في الفوضى المتنامية للرأسمالية التي تجر النظام الى طريق مسدود، كما تكشف عن نفسها في التشريك الاجتماعي العام لعملية الانتاج، الا أن هذه الاشتراكية لا تحدث من دون تعاظم الوعي البروليتاري العام بضرورة الثورة، لقد أفلحت الرأسمالية كثيراً في اضعاف الوعي الثوري للطبقة العاملة، وجاء انهيار التجارب الاشتراكية الأولى ليعزز كثيراً من هذا الوضع... ولكن الى أي حد تستطيع أن تنزع الرأسمالية من رؤوس الفقراء حلمهم في المساواة والعدالة الاجتماعية، لا سيما وان التربة والأدوات والفكر والعوامل الأخرى التي أدت الى سعي الناس الفقراء من أجل الاشتراكية لاتزال كلها قائمة؟.

المترجم

العنف ضد المرأة:
ضرب الزوجة كنموذج !

هادي محمود

ضرب المرأة ظاهرة اجتماعية تمارس في بقاع كثيرة من العالم، وتختلف أسبابها، باختلاف الخصوصيات الاجتماعية في كل بلد. في كردستان العراق لم تجر لحد الآن دراسة ميدانية حول هذه الظاهرة، لذا فإن الحديث عن أسبابها قد يأخذ طابعاً عمومياً. على الرغم من غياب الإحصاءات، يلاحظ أن ظاهرة العنف ضد المرأة على العموم قد ازدادت بعد انتفاضة آذار ١٩٩١. وسجلت منظمة دعاة حقوق الإنسان (٣٨٢) حالة قتل للنساء و(٣٧) حالة انتحار[١] بسبب ممارسة العنف أو أعمال التعذيب الجسدي ضد النساء بين عامي ١٩٩٢ ـ ١٩٩٥. وهناك الكثير من الحالات التي لم توثقها المنظمة.

تجري معظم حالات ضرب المرأة داخل الأسرة، ومن الأسباب العامة لتفشي هذه الظاهرة اتساع ظاهرة العنف في المجتمع الكردستاني على العموم بسبب آثار السياسة الدكتاتورية والقمعية التي مارستها السلطة خلال سنوات عديدة، وبسبب انعدام الديمقراطية وقيمها في المجالات المختلفة، وكون العلاقات بين القوى والتشكيلات السياسية مبنية، الى حد كبير، على عقلية الهيمنة ونفي الآخر بكل أشكاله، وهكذا تتفاقم هذه الظاهرة مع تفاقم أزمة الحرية في المجتمع.

يلعب العامل الاقتصادي دوراً معيناً في انتشار مظاهر العنف في إطار الأسرة، فتدهور مستوى المعيشة، وعدم تمكن العائلة من إشباع حاجاتها الأساسية، وتقلص مجالات العمل بالنسبة للرجل، يؤدي حتماً الى ظهور المشاكل العائلية التي تنتهي في

كثير من الأحيان بضرب المرأة.

تتعدد أشكال العنف الممارس ضد المرأة داخل الأسرة لتشمل حالات السب والإهانة والضرب والطرد من المسكن والقتل.

وقد يلجأ الرجل في بعض الحالات الى ضرب المرأة من أجل السيطرة على أموالها أو جعلها مضطرة للتنازل عن حقوقها الاقتصادية. وعلى الرغم من أن القانون العراقي والشريعة الإسلامية منحت المرأة الذمة المالية المستقلة، إلا أن واقع الحال والممارسة الفعلية بخلاف ذلك، فثروة العائلة بالأساس هي ملك الرجل.

إن تفشي الأمية وتدني مستوى المناهج التعليمية والموروث الاجتماعي المتخلف من العوامل التي تساهم في خلق الأرضية المناسبة لانبثاق هذه الظاهرة واتساعها.

وتتداول في الأسواق والمكتبات الكردستانية عشرات الكتب والكراسات التي تباع بأسعار رخيصة بسبب دعم الأحزاب والقوى الإسلامية لها، تنتج وتساهم في نشر ثقافة مفادها أن المرأة «ناقصة علم ودين»، ولا يختلي بها رجل إلا ويكون الشيطان ثالثهما. وأنها يجب أن تمكث في البيت ولا تخرج إلا بإذن زوجها. إضافة الى عدم جواز سفرها لوحدها أو قيادتها للسيارة. إن هذه الوجهة تساهم فعلياً في إعادة إنتاج ثقافة «شعبوية» مشوهة، تجعل من المرأة تابعة للرجل ومشروعاً للخطيئة.

وتساهم أجهزة الإعلام الموجودة في كردستان في بعض الأحيان، ودون دراية منها، في ترسيخ هذه الثقافة المبنية على أساس دونية المرأة. فشخصية المرأة في معظم المسلسلات التلفزيونية المأخوذة بدون دراسة من القنوات الفضائية، شخصية سلبية، معرضة للخطيئة دوماً وتخطط دائماً للإيقاع بالرجل. وإذا ما وجدنا شخصية إيجابية مساهمة في الحياة العامة فإن السيناريو سيعرض حتماً فشلها في الحياة الزوجية. إن هذه الوجهة تخلق حالة من التشكيك في المرأة والنظرة إليها بازدراء.

ويساهم الأسلوب الخاطئ في تربية الأطفال والتمييز بين الذكر والأنثى في التعامل اليومي في ترسيخ عقلية السلطة الأبوية في الأسرة.

إن ذكر الأسباب العامة لا يحل محل البحث العلمي الجاد المعتمد على الإحصائيات والدراسات الميدانية، ومن خلال إثارة الكثير من الأسئلة التي تخص حياة المرأة في مجتمعنا ومنها مدى علاقة ضرب المرأة بتعدد الزوجات، أو بظاهرة الزواج بالإكراه، ومدى الدور الذي تلعبه الأعراف الاجتماعية السائدة والتعاليم الدينية في إضفاء المشروعية على ظاهرة ضرب المرأة.

موقف الشريعة من ضرب المرأة

تتحدث الشريعة الإسلامية عن العلاقة بين الرجل والمرأة بأشكال وصيغ شتى. وورد في القرآن في مواضع عديدة وفي مناسبات مختلفة، آيات حول تحديد تلك العلاقة. وبقي المجال واسعاً أمام الفقهاء الذين اختلفوا في تفسير تلك الآيات.

والتفسيرات المختلفة لا يمكن إلا اعتبارها ظاهرة طبيعية، لأن الأمر هنا ـ حتى إذا ما نظرنا إليه ضمن السياق الديني الذي يتعامل بالمطلق ـ فإن تلك التفسيرات شأن يتعلق بالإنسان. كما أن تنظيم مفردات هذه العلاقة أمر من أمور الدنيا. وروي عن النبي قول مفاده «أنتم أعرف بشؤون دنياكم». لذا لا يمكن التعامل مع هذا الأمر إلا ضمن سياق نسبي، علما أن التفكير العلمي والعقلانية كمنهج للبحث، يحتم علينا عدم قولبة الفكر ولي الواقع وفق منهج يضفي القدسية المطلقة على الأمور مسبقاً.

يتحدث القرآن عن مشروعية ضرب الزوج لزوجته في الآية (٣٦) من سورة النساء. تقول الآية [الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم. واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا. إن الله كان علياً كبيرا].

إن على المرأة إطاعة الرجل الذي له القوامة على المرأة، وإسداء النصيحة وصولاً الى الهجر في المضاجع والضرب. وتشير كتب الفقه الإسلامي الى أن سبب نزول هذه الآية يرجع الى أن امرأة اشتكت من زوجها طالبة القصاص لأن زوجها قام بضربها[٢]. وكان قرار النبي الى جانب المرأة إلا أن الآية القرآنية كانت بعكس القرار الأول. وقد وردت هذه الحادثة في الجزء الثامن من تفسير الطبري ومعظم الكتب الخاصة بالتفسير تذكرها.

فعلى الرغم من هذه الآية فإن النبي يتعامل بمرونة وطيبة مع النساء. وكان مع ممارسة تقاليد أهل يثرب الذين كانوا يتعاملون برفق مع المرأة بعكس أهل مكة[٣]. ولم يضرب النبي نساءه في يوم من الأيام. وقد قال في بعض أحاديثه: «لا تضربوا النساء» أو «لا تضربوا إماء الله». وتحدثنا كتب السيرة النبوية عن أن النبي عندما استاء وانزعج من نسائه لم يلجأ الى ضربهن بل ترك الحياة الزوجية معهن لمدة شهر[٤].

مفردة «الضرب» في القرآن

استخدمت كلمة (ضرب) في القرآن بمعان مختلفة. جاء في سورة النساء الآية (١٠١) [يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا...] وهنا تعني كلمة الضرب: إذا خرجتم في سبيل الله. وجاء في سورة المائدة الآية (١٠٦) [وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح إن تقصروا في الصلاة] وهنا تعني الكلمة (إذا سافرتم).

وجاء في القرآن: [وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم]. وجاء في سورة ابراهيم الآية (٤٥): [وضربنا لكم الأمثال]. وفي هاتين الحالتين تأتي الكلمة بمعنى ذكر المثل.

وفي الوقت الحاضر يفسر كثير من الباحثين معنى كلمة اضربوهن الواردة في الآية الخاصة بالنشوز، بأشكال شتى.

وهنا يجب القول إن القرآن يتحدث عن ضرب المرأة في حالة النشوز فقط وتعني هذه الحالة عدم رضا الزوجة باستمرار الحياة الزوجية مع الزوج والقيام بترك بيت الزوجية بدون إذن الزوج. تقول الباحثة السورية مها علي: إن كلمة ضرب الواردة في آية النشوز تعني نفس معنى ضرب الواردة في سورة ابراهيم «وضربنا لكم الأمثال». دليلها في ذلك أن العرب يستخدمون كلمة «لطم» لدلالة الضرب على الوجه وكلمة (صفع) لدلالة الضرب على الظهر. ويستخدم العرب كلمة ركل عند استخدام الرجل في ضرب المقابل. لذا فإن مها علي تعتقد بأن كلمة اضربوهن الواردة في الآية الخاصة بمسألة النشوز تعني اتخاذ القرار الحاسم بشأن قضية معينة[٥].

أما الصادق النيهوم الأستاذ في الأديان المقارنة في جامعة جنيف الذي وافاه الأجل عام ١٩٩٥، فله رأي آخر. فهو يقول إن الفقه الإسلامي أعطى الحق للرجل في ضرب المرأة خطأ حيث جرى تفسير الآية القرآنية وفق عقلية الرجل في مجتمع سادت فيه القيم والعلاقات الإقطاعية. ويقول إن عقوبة الضرب في القرآن وردت في مجال عقوبة الزنا فقط. فكلمة اضربوهن إذا كتبت بدون نقاط ـ كما كتبت في بدايات تدوين القرآن ـ وبالشكل القريب من ألف باء الآرامية، يتم خلط بين حرفي (ض) و(ع) وكذلك بين حرفي (ر) و(ز) لذا كتبت كلمة اضربوهن بدلاً من اعزبوهن وكلمة (العزب) في اللغة العربية تعني كلمة ترك البيت والمرأة العازبة تعني التي تترك زوجها دون طلاق[٦].

وهكذا يرى النيهوم أن القرآن طرح ثلاث طرق للتعامل مع قضية نشوز المرأة. فهو

يدعو الى إبداء النصيحة، هجر الزوجية وهذا هو المقصود بـ(اهجروهن)، وترك بيت الزوجية بدون طلاق حتى يكون موقف الطرفين أكثر وضوحاً. وهذا هو المقصود بكلمة (اعزبوهن) التي تحولت خطأ الى (اضربوهن) حسب رأي النيهوم.

إلا أن أكثر الباحثين في مجال الفقه الإسلامي يفسرون كلمة الضرب الواردة في الآية المتعلقة بالنشوز، بمعناها المتداول في الوقت الحاضر. كما أن وجهة النيهوم في تحليل الكلمة لا تنسجم مع الحادثة التي نزلت بسببها الآية القرآنية. والأكثر من ذلك أن كتب الفقه الإسلامي وتلك الخاصة بالأحاديث النبوية تشير الى أن الرجال في المدينة قاموا في تلك الليلة التي نزلت فيها الآية، بضرب نسائهم. وقد اشتكى بعض نساء المدينة عند نساء النبي من فعل أزواجهن.

ويرى بعض المتشددين، ومنهم الطبري، أن كلمة (اهجروهن) تعني شد وربط يدي ورجلي المرأة بالسرير حتى تعدل عن رأيها، لأن كلمة (الهجير) تعني الحبل الذي يربط به الجمل[٧]. وبتصوري أن الاختلاف في تفسير كلمة اضربوهن لا يغير بأي حال من حقيقة إعطاء الشريعة الإسلامية الحق للرجل في ضرب زوجته. وهذا الأمر يرتبط بمفهوم القوامة الممنوحة للرجل، إضافة الى جملة من المفاهيم الأخرى التي تكرس تفضيل الرجل على المرأة.

وعلى الرغم من تنوع المذاهب الإسلامية في فهم كيفية الضرب والمناطق المسموح بها، فإن ممارسة الضرب ضد المرأة لا تقتصر على حالة النشوز. فعلى مر العصور جرى السكوت عن ضرب المرأة حتى في الحالات التي لا علاقة لها بالنشوز، في وقت أعطت الشريعة هذا الحق في حالة التخوف من النشوز فقط.

موقف القانون العراقي

لا يوجد في قانون الأحوال الشخصية العراقي أي بند يسمح بموجبه للزوج ضرب زوجته. لكن قانون العقوبات العراقي النافذ رقم (١١١) لسنة ١٩٦٩ المعدل يعتبر تأديب الزوج لزوجته نوعاً من استخدام الحق ولا يجوز المساءلة القانونية بصدده. فقد ورد في المادة (٤١) من قانون العقوبات ما يلي: «لا جريمة اذا وقع الفعل استعمالاً لحق مقرر بمقتضى القانون ويعتبر استعمالاً للحق:

١ـ تأديب الزوج زوجته وتأديب الآباء والمعلمين ومن في حكمهم الأولاد القصر، في حدود ما هو مقرر شرعاً أو قانوناً أو عرفاً. . .».

فالقانون العراقي يعطي الحق للزوج في تأديب زوجته بما هو مقرر شرعاً أو قانوناً أو عرفاً. وهذا التحديد يعني عدم وضع أية حدود لضرب المرأة. فالشريعة تعطي الحق في حالة النشوز وهكذا يكون الضرب ضمن دائرة التأديب. أما العرف الاجتماعي السائد فإنه يجعل من ضرب المرأة أمراً مباحاً ارتباطاً بموقع المرأة، وتحكم العادات والتقاليد الاجتماعية المختلفة.

هل يمكن مواجهة هذه الظاهرة؟

يقع على عاتق العاملين من أجل ضمان واحترام حقوق المرأة، رجالاً ونساءً، مهمات نضالية معقدة، وبالأخص في مجال مواجهة هذه الظاهرة. وبإمكان المنظمات النسوية وتلك العاملة في مجال حقوق الإنسان، أن تقوم بحملات توعية وتثقيف حول مضار هذه الظاهرة السيئة التي تنتقص من إنسانية المرأة والرجل على حد سواء. وتجعل العلاقات الاجتماعية مبنية على أسس ممارسة العنف.

إن النضال من أجل أنسنة العلاقات الاجتماعية كمفهوم سياسي فلسفي هو نضال من أجل مساواة الرجل والمرأة في الحقوق. لكن هذه الوجهة لا تتعارض مع وجهة تأسيس الأسرة كوحدة اجتماعية على أسس المحبة وتفهم المقابل في الممارسة اليومية. إن أنسنة العلاقات الاجتماعية في إطار الأسرة وترسيخ المساواة والتكافؤ مهمة صعبة مرتبطة أساساً بالتحولات الاجتماعية والتغيير في البنية الاجتماعية السائدة.

وتظهر الحاجة في الوقت الحاضر وفي سياق ما هو كائن وموجود الى دراسة أسباب الظاهرة ميدانياً بغية وضع المعالجات الملموسة.

وفي المجال القانوني، تبدو الحاجة ماسة الى إلغاء المادة ٤١ من قانون العقوبات ووضع مادة جديدة من شأنها فرض عقوبة على الزوج الذي يقوم بضرب زوجته والغرامة بمراجعة المحاكم لحل ما يمكن أن ينشأ بينهما من خلاف، إذا ما تعذر ذلك في إطار العائلة وأصدقاء الطرفين.

وتعتبر صياغة مثل هذه المادة ضرورية للتثقيف ولإضفاء اللاشرعية على هذا السلوك، علماً أن ممارسة المرأة لحقها في المساءلة القانونية لزوجها عند ضربها حتى في حالة نشوزها واللجوء الى القضاء طلباً للحماية ومقاضاة الزوج، مرتبط بمدى تحرك المنظمات النسوية ومنظمات حقوق الإنسان لبث الوعي للتذكير بهذه الحماية القانونية.

ويبقى القضاء النهائي على هذه الظاهرة مرتبطاً بالنضال من أجل التقدم الاجتماعي وأنسنة العلاقات الاجتماعية وتحقيق حرية المرأة وحقوقها وإلغاء الاستغلال والنضال ضد العنف بكافة أشكاله.

ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أن البرلمان التركي تبنى قانوناً بداية العام الحالي يمنع ضرب الزوجة.

المصادر:

(١) نداء الحق، نشرة منظمة دعاة حقوق الإنسان في كردستان، ١٩٩٥.

(٢) تفسير الطبري ج٢ ٨، ووردت هذه الحادثة في معظم كتب التفسير عند الحديث عن أسباب النزول.

(٣) السكوت في مواجهة العنف، سلوى الشرفي، النهج، العدد (٤١) ١٩٩٥، ص١٥٦.

(٤) وردت هذه الحادثة في معظم كتب الفقه.

(٥) معنى اضربوهن، مقالة مها علي منشورة في «إسلام ضد الإسلام» للصادق النيهوم، ص٢٢٥.

(٦) المصدر السابق. (٧) النبي والنساء، فاطمة المرنيسي.

اصـــدارات وردتـــنـــا

محسن الرملي : البحث عن قلب حي ، مسرحيات ، دار ألواح ، إسبانيا ١٩٩٧ .

هادي المهدي : الطقس المسرحي المعاصر ، تأملات ، رام للخدمات الطباعية ١٩٩٧ .

عبد الكريم كاصد : دقات لا يبلغها الضوء ، شعر ، دار الكنوز الأدبية ، بيروت ١٩٩٨ .

سيف الرحبي : يد في آخر العالم ، شعر ، دار المدى ، دمشق ١٩٩٨ .

حيدر الكعبي : قصف ، شعر ، دار المدى ، دمشق ١٩٩٨ .

عبد الحميد الصائح : قصيدة العراق ، شعر ، دار ثقافات ، كندا ١٩٩٨ .

رياض ابراهيم : انتفاضة عصفور طيب ، شعر ، دار الوراق ، دمشق ١٩٩٨ .

ديفيد معلوف : حياة متخيلة ، رواية ، ت : سعدي يوسف ، دار المدى ، دمشق ١٩٩٨ .

بلقيس حميد حسن : مخاض مريم ، شعر ، دار الطليعة ، دمشق .

د . جاسم الدباغ : أوليات في العمارة ، الجزائر .

د . رحيم عجينة : الاختيار المتجدد ، ذكريات ، توزيع دار الكنوز الأدبية ، بيروت .

عزيز السماوي ، أغاني الدرويش ، شعر شعبي عراقي ، لندن .

سعاد خيري : المرأة العراقية ـ كفاح وعطاء ، دار الطريق ، السويد .

لستر ثورو : مستقبل الرأسمالية ، ت : عزيز سباهي ، دار المدى ، دمشق ١٩٩٨ .

تموز... الدهر والأسطورة والدين

د. رشيد الخيون

عبر آلاف السنين يحضر، في الذاكرة الشعبية، تموز الإله والراعي والملك، الابن والحبيب والزوج، ذو الطبيعة المزدوجة، يُبعث إلهاً ويموت إنساناً. ببعثه يحل الربيع والخير، وبموته يحل الجفاف والشر. ومن هنا ولدت فكرة دينية مفادها أن الخير من الله والشر من الإنسان، ثم تبلورت عند المتكلمين البصريين والبغداديين، فقالوا: إن الله عادل، والجور ليس من صنعه.

(دموزي) السومري لا يمكث في أرض، فيتغير: انه تموز البابلي، و(آدونيس) السوري، و(بعل) الفلسطيني، و(أوزوريس) المصري، و(أتيس) الروماني، و(ديونيسيوس) اليوناني. استوعبته الأديان بصور مختلفة، تكررت مأساته وآلامه، من عطش وتعذيب وطريقة قتل، فتكاد المناحات تكون واحدة في ذلك الحزن الأبدي. يُخيل لي أن دموع (إنانا) هي دموع مريم العذراء وزينب بنت الإمام علي. وبطبيعة الحال لايعني ذلك التماثل تكرار الحدث، كموقف أو تفاصيل، فالأحداث قد تتكرر، ولكن بمعطيات أخرى. ما يُعتمد هنا ليس الرواية التاريخية، بل الذاكرة الشعبية، وما تسوّغه من أفراح وأحزان عبر الزمان. هذا المقال لا ينفي تعذيب المسيح وصلبه، حسب الأنجيل، ولا ينفي قتل الحسين، كما ورد في كتاب مقتله. ولكن، شئنا أم أبينا، تسربت الميثولوجيا الى وقائع التاريخ، عبر الذاكرة الشعبية، فأكتمل التعبير عن الحزن بشكله (الدموزي) في جنوب العراق، فعلى لسان زينب وفاطمة الزهراء والإمام الحسين أبكى شاعر الأبوذية

والموال العراقي الحجر والشجر والسحاب، كما تحكي مخيلة قراء العزاء الحسيني، ناهيك عن الناس.

في مناسبة الفرح وحلاوة الأمل يظهر دموزي دينياً بالملاك الصابئي (هيبل — زيوا)، والأيزيدي (سجادين)، والزرادشتي (مثرا)، والمانوي (الإنسان الأول) وعناصره النورانية الخمسة، واليهودي (المسيح المخلص)، والمسلم (المهدي المنتظر). ومن جراحات دموزي كانت شقائق النعمان، وخضر الياس الذي تشترك الأديان العراقية في الإحتفال به.

اقترنت بشهر تموز أحداث هامة، وهناك منْ منحه لقب «شهر الثورات». تُقام فيه الأفراح بذكرى استقلال امريكا، والثورات الفرنسية، والمصرية، والكوبية، والعراقية. هذه الثورات جمعت بين الفرح والحزن، فكأنها تحتفل ببعث تموز وموته في آن. «الثورة تأكل رجالها» كما قيل، وهذا يعبر عن جوهر تلك الحقيقة. أهم حدث عالمي استضافه تموز كان صعود الإنسان إلى القمر، ويُقال إن تحديد العشرين منه موعداً لنزول المركبة الفضائية عليه كان مقصوداً «في تذكار عيد النبي ايليا، الذي ورد عنه في سفر الملوك الرابع: أنه بينما كان سائراً مع تلميذه اليشاع، إذا بمركبة نارية، وخيل نارية، قد فصلت بينهما، وطلع ايليا في العاصفة نحو السماء» (فؤاد أفرام البستاني، أحاديث الشهور، ١٤١ عن الكتاب المقدس).

بين المصطلحات الزمانية، الدهر هو المصطلح الأنسب تعبيراً عن خلود تموز في الذاكرة الشعبية، فهو يُشير إلى الأبدية والتقديس والقضاء والقدر. يُعرّف الجرجاني الدهر بقوله: «الآن الدائم، الذي هو إمتداد لحضرة الإلهية، وهو باطن الزمان، وبه يتحد الأزل والأبد». وحذر القرآن الكريم من تأليه الدهر: «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر». ولعلَّ هذه الآية جعلت جمال الدين الأفغاني يطلق لقب الدهرية على غير الديانات السماوية الثلاث، والفلسفات المادية كافة (الأفغاني، الرد على الدهريين). لكن الدهر الذي أستنكر الأفغاني عبادته نجده في حديث نبوي هو الله: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» (الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج ٤). والثعالبي نهى الناس عن لوم الدهر عند الشدائد قائلاً: «فالدهر سهم من سهام الله، منزعه عن مقابض أحكامه، ومطلعه من جانب ما حررته مجاري أقلامه». ومن بقايا تقديس الدهر في ذاكرة سكان جنوب العراق الإشارة إليه بمثابة الإله، فعندما يُراد إيذاء شخص ما يُقال له: «دهر دهرك»، أو «دهر طرك»، وغيرها من دعوات السوء. و خاطب الشاعر الدهر معاتباً:

عجبتُ لسعي الدهر بيني وبينها   فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وعشية مأساته خاطبه الإمام الحسين متهماً:

يا دهر أف لك من خليل   كم لك في الإشراق والأصيل

من صاحب وماجد قتيل   والدهر لا يقنع بالبديل

أما تموز الشهر فقد اختلف ترتيبه في السنة باختلاف الشعوب، انه يرد في التقويم الشمسي فقط، المساير للمواسم الزراعية، فقد لا تحتاج البيئة الصحراوية غير تقويمها القمري. يقول البيروني حول إستعمال التقويمين: «ما تستعمله الأمم من السنين لا يخلو من أحد هذين النوعين، إما مجردين وإما ممتزجين»[١]. فمن الأمم التي استعملت سنة الشمس مجردة الروم والقبط والسريان والفرس، ومن الأمم التي أستعملت سنة القمر مجردة العرب، ثم ثبت ذلك في الإسلام محسوباً من تاريخ الهجرة النبوية، ومن الشعوب منْ مزج بين التقويمين، أحدهما للدين والآخر للدنيا.

يشير البيروني أيضاً إلى اتفاق بعث وموت تموز في شهر واحد بقوله: «اتفاق نيسان مع تموز»[٢]، كما عند السريان والرومان قبل المسيحية، حيث تبدأ سنتهم بتشرين الأول. وبعد إقرار التقويم الميلادي الجديد أختص شهر نيسان بموت وقيامة المسيح، حيث الجمعة الحزينة وعيد الفصح، بعد أن كانت احتفالات البعث والموت تجري منفصلة في نيسان وتموز. كان هذا الدمج على غرار ما فعل البابليون، الذين دمجوا موت وبعث تموز في عيد (آكيتو) الذي يستمر ١١ يوماً (طه باقر، من الأعياد الشعبية في العراق قديماً، مجلة التراث الشعبي).

يصف أبو زكريا القزويني شهر تموز بقوله: «في الخامس منه تطلع الشعرى[٣]، وبطلوعها يعرفون صلاح الزرع وفساده، وذلك أن أصحاب الفلاحة من العجم أخذوا لوحاً قبل طلوع الشعرى بأسبوع، وزرعوا عليه أصناف الحبوب، فلما كان الليلة التي طلعت فيها الشعرى وضعوا ذلك اللوح على موضع عال، لايحول بينه وبين السماء شيء، فما أصبح مخضراً من ذلك النبات فهو صالح في تلك السنة، وما أصبح مصفراً فهو الذي فسد»[٤]. ومن حسنات هذا الشهر: نضج الفاكهة، وقطف العنب، وأكل الرطب بالعراق. لكن كل حسنات تموز لم تلغ إقترانه بالموت وتوقف الخصوبة، ففيه «يُمنع الجماع لشدة الحر، ويرتفع الطاعون، ويكثر الرمد»[٥].

في عالم الآلهة ببلاد سومر الإله (آنو) عالي المقام الذي يترفع عن التدخل في تفاصيل إدارة الكون. يُقابله عند الصابئة والأيزيدية ملك النور، وهناك الرب والله عند

اليهودية والمسيحية والإسلام. ولعلَّ في ذلك تكمن جذور فكرة المتكلمين العراقيين في تنزيه الله من الصفات، وعدم التدخل المباشر في شؤون الكون، فمثلما يُدير الإله آنو الكون بواسطة الآلهة المساعدين، فأن الله، حسب مفهوم المعتزلة، يدير الكون عن طريق عقل الإنسان وطبيعة الأشياء التي جُبلت عليها.

يلي (آنو) ثلاثة آلهة أكبرهم (أنليل)، ثم ثنائي الخصوبة (أنكي) و(ننخرساك) تزوجا فولد لهما سبعة آلهة: (أنبيلولو) لإدارة دجلة والفرات، الأختان (لحار) و(أشنان) لشؤون الماشية والأغنام والحقول والبيادر، (سموكان) لإدارة شؤون الجبال، (يشكر) السحاب والأمطار، وآخر الآلهة في تدرج المراتب هما: (أنكيمدو) الفلاح، و(دموزي) الراعي.

إلى جانب الآلهة المختصين بالأرض هناك آلهة أخرى ترمز إلى الكواكب: إنانا رمز كوكب الزهرة، الإله القمر (سين) أبوها، وأمها (ننكال)، والإله الشمس (أوتو) أخوها، ثم أختها الكبيرة (أرشكيجال) إلاهة عالم الأموات السفلي. ينشب النزاع بين انكيمدو ودموزي على الزواج من إنانا. ويفوز دموزي أخيراً بالزواج منها، بفضل وقوف (أوتو) إلى جانبه، عندها يعلن (أنكيمدو) تنازله، وعلى لسانه يقول شاعر سومري: أنا معك أيها الراعي/ معك أيها الراعي/ أنا معك فلماذا أكافح / لتأكل أغنامك نباتات ضفة النهر/ لترع أغنامك في أرضي المحروثة (كريمر، طقوس الزواج المقدس عند السومريين، ١٠٨).

الزواج المقدس بين إنانا ودموزي يجري في الربيع، فتخضر وتزهر الأرض، لأن إنانا هي رمز الخصوبة والعلاقة الجنسية. وعلى أعتاب الصيف الحار تبدأ مأساة دموزي، فإنانا تحاول الصعود من مملكة أختها (أرشكيجال) حيث عالم الأموات، بعد أن يحكم قضاته عليها بالموت والصلب. لكن الحياة تُعاد إليها بمساعدة مخلوقين يخلقهما (آنكي) تلبية لتوسلات وزيرتها (ننشوبور)، هما (كجرا و كلاتور)، قائلاً لهما: «اذهبا مدا قدميكما نحو العالم السفلي، حوّما على الباب كالذباب، دورا حول الباب كما يدور المحور». يمضي المخلوقان ويدخلان إلى العالم السفلي، فيجدان إنانا مصلوبة بالمسامير (٦)، وسرعان ما يبعثان فيها الحياة، بعد ثلاثة أيام من الموت، لكن المجلس الإلهي لا يسمح بصعود الأموات دون بديل. فإنانا محاطة بأشرار «لا يعرفون طعاماً ولا شراباً، لا يأكلون طحيناً مرشوشاً، ولا يشربون الخمر المراق، ينتزعون الزوجة من حضن زوجها، ينتزعون الطفل من صدر مرضعته». في البداية أرادوا أخذ وزيرتها بدلاً عنها، لكنها قالت لهم: «هذه وزيرتي ذات الكلمات المناسبة، رسولة كلماتي الصحيحة». ثم توافق على جعل دموزي قربانها المقدس من أجل الخصوبة، بعد أن وجدته بمدينتها أيريك (أوروك) سعيداً طيلة

غيابها، ولعلّ ذلك كان باكورة التفكير بالقرابين والأضحية. يشرع عفاريت عالم الأموات في البحث عن دموزي، فيهرب من حضيرة إلى أخرى، وبعد القبض عليه يتعرض للعذاب حتى موته، أي مكوثه بالعالم السفلي، ستة أشهر، فتموت الحقول والبساتين الموسمية. بعد ذلك تقدم اخته (كنشن) نفسها قرباناً فتحل محله ستة أشهر. أما إنانا فحزنت عليه كثيراً ورددت المراثي والمناحات.

ظلت طقوس الزواج المقدس بين إنانا ودموزي عيداً سنوياً ببلاد سومر، يمثل الملك فيها دور دموزي وتمثل الكاهنة الكبرى دور إنانا. فيضاجع الملك الكاهنة، و في موسم آخر تخرج «مواكب العزاء وحمل المشاعل عند ذكرى موت دموزي». في بابل كانت تتلى في المعبد ملحمة التكوين مساءً في أعياد أكيتو، السالفة الذكر. في تلك المناسبة: «يدخل الملك لوحده مع الكاهن الأعلى، ويسلب منه الإشارة الملكية، ويلطم الملك على وجهه، في إثناء ذلك يُصيب الناس هلع وخوف وبكاء، ويسيرون جماعات خلف عربة الإله مردوخ، فالإله قد غاب، أو اختفى لأنه مأسور من العالم السفلي، وأن الملك ممثل الإله على الأرض لم يعد ملكاً، فهي لحظات حرجة جداً، تنتهي أن يُعيد الكاهن السلطة للملك»[7].

أفراح وأحزان السومريين، ببعث وموت دموزي، نجد ملامحها في الأديان، مع التحوير والتهذيب. ففي المندائية تفيد قصة الخلق والنشوء[8] أن يأمر ملك النور أو الخالق العظيم رسوله الملاك (هيبل ـــ زيوا) بالنزول إلى (أور) عالم الظلام. أمره يصدر بعد نزول الكائن الروحي (نشمشا) أو (مانا) إلى عالم الظلام حيث الكائن الرهيب (الروهة). وبعد تحرير مانا من عالم الأموات تدخل في جسد آدم لتهبه الحياة. تقول (نشمشا)، كما ورد في كتاب الصابئة المقدس «كنزا ربا»: «منْ جعلني أسكن في الظلام الشرير، منْ أراني النار، ومنْ رماني في الماء الآسن، الذي منه تكون الفانون» (لاحظ ما ورد على لسان داوود في المزامير: «اللهم خلصني، فإن المياه قد بلغت حلقي، نجني من مبغضي ومن قعر المياه»). يقوم (هيبل ـــ زيوا) بإنقاذ (نشمشا) حتى تبقى الروح خالدة، بعد أن تحررها من الجسد الفاني، مثلما أُنقذت إنانا من الموت الخاص بالبشر، لأن الآلهة لاتموت، وما مات من دموزي إلا نصفه الإنسان. ينتصر (هيبل ـــ زيوا) رمز النور على (الروهة) رمز الظلام. تتكرر ثنائية النور والظلام في الأديان، ولكن بمعان أخرى، منها ثنائية الخير والشر، أو الله وأبليس وغيرها. بعد إنقاذ (نشمشا) يعود (زيوا) مُبشراً «بأزهار الكروم، وانتشار النور واندحار الظلام». في الربيع يحتفل الصابئة بعيدهم الصغير، ويسمى «هبة الله الصغرى» و«التقدمة الصغرى»، وهو «عيد الأزهار، وموعده

الأصلي اليوم الثامن عشر من شهر أيار»[٩]. لقد تغيرت شهور التقويم المندائي عن المواسم على مدى القرون، يعود ذلك إلى إضافة خمسة أيام كبيسة قبل الشهر التاسع، «وقد استمر الفرق وتراكمت الأيام، حتى غدا عيد رأس السنة الكبير يقع في أواخر تموز، في حين أن موقعه الأصلي كان في شباط»[١٠]. يقول النديم عن علاقة الصابئة القدماء بأحزان دموزي أو تموز، عند استعراضه لتقويمهم السنوي: «في النصف منه (شهر تموز) عيد البوقات، يعني النساء المبكيات، وهو تاوز عيد يُعمل لتاوز الإله، وتبكي النساء عليه كيف قتله ربه، وطحن عظامه في الرحا، ثم ذراها في الريح ولا تأكل النساء شيئاً مطحوناً في رحا»[١١]. ويقول فراس السواح في كتابه «لغز عشتار»، نقلاً عن مصادر أخرى: «إن تاعوز كان شاباً يافعاً، قتله سيده ثم طحن جسده بين حجري الطاحون، وذرّى أجزاءه في الهواء، لذلك كانت النساء خلال العيد لا تأكل قمحاً مطحوناً». ولعل الصابئة قد اقتبسوا من الكنعانيين بعض اسطيرهم، أيام كانوا بفلسطين، فأضافوه الى الأسطورة السومرية. إن مكانة يوحنا المعمدان عند الصابئة لا تنفي تواجدهم بفلسطين يوماً ما، رغم ما يُثيره نزوح إبراهيم الخليل، مع أسرته فقط، من أور الكلدانية، وهو أحد المقدسين عندهم، من شك في أصلهم الفلسطيني، ناهيك عن تشابه طقوسهم، وأساطيرهم في الخلق والتكوين، وعبادتهم مع الديانة السومرية والبابلية. هناك تماثل كبير بين الديانتين المندائية والمانوية، فماني ينحدر من أسرة مندائية، تقطن بدست ميسان (العمارة)، ولعلّ الاسم منحوت من مانا المندائية السالفة الذكر. وورد في النصوص المانوية أن الإله (ملك النور) استدعى ام الحياة بعد ان هاجم الظلام مملكته، وهي بدورها استدعت الإنسان الأول ابن الإله، الذي يتكون درعه من خمسة عناصر نورانية، فيُهزم في البداية، لكنه ينتصر أخيرا بمساعدة الروح الحية (نغرين، ماني والمانوية، ٧١).

في الديانة الأيزيدية تظهر تفاصيل أخرى، تشبه إلى حد ما الملحمة السومرية، ثم البابلية. و فيها أن أحد الملائكة السبعة، و الآلهة السبعة عند السومريين ايضا، خلقهم الإله (ملك النور) من أجل إدارة أو خلق عناصر الكون، بعد أن سئم من الدرة التي «أحتفظ بها أربعين ألف سنة، يغضب منها ويفجرها. من دخانها ظهرت السموات، ومن أجزائها كانت النجوم والأرض»[١٢]. ومن بين الملائكة السبعة، الذين خلقهم ملك النور، يُكلف الملاك «سجادين» بخلق النباتات وثمار الأرض. وعلى غرار البابليين يكون رأس السنة عند الأيزيديين الأربعاء الأولى من شهر نيسان. وأكثر من هذا أن أعيادهم تستمر طوال

نيسان، ويحرم الزواج فيه إكراماً للأنبياء الذين تزوجوا فيه، فهو شهر الخصوبة المقدس. لكن مصدراً أيزيديا يقول: «يُصادف هذا العيد دائماً أول أربعاء من النيسان الشرقي، وهو من أكبر أعياد الأيزيدية، ورأس سنتهم الجديدة، أنه عيد الملاك (طاووس ملك)، ليس هذا فحسب، بل يعتبر كل شهر نيسان مقدساً، يحرم فيه حفر الأرض (على إعتبار أنها حبلى فلا يجوز إيذاؤها) أو الزواج باعتبار أن شهر نيسان هو عروس أشهر السنة (أعراس الطبيعة)، وفيه يتم زواج الملائكة» (نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيدية، ٢/١٨). كذلك يرسم الأيزيديون، على غرار الزرادشتيين، صليب (مثرا)، تبركاً به، فهو سيد المراعي (الأيزيدية، بقايا دين قديم)، أنه دموزي الزرادشتي. ويظهر في المثيولوجيا الأيزيدية، كما في أديان أخرى، من قصص النزول إلى العالم السفلي، كشخصية أسطورية يحمي الأمة الأيزيدية من الهلاك بقتله للثعبان الرهيب ذي السبعة رؤوس، بعد أن سد نبع الماء حتى كاد الناس يموتون عطشاً[١٣].

أما في اليهودية فيُشير الكتاب المقدس، بوضوح، إلى أحزان اليهود على تموز، ففي «سفر حزقيال» ما نصه: «ثم أتي بي إلى مدخل باب بيت الرب، الذي هو جهة الشمال، فإذا هناك نساء جالسات يبكين على تموز»[١٤]. أكد أكثر من باحث في السومريات أن «نشيد الإنشاد لسليمان» جاء على غرار الملحمة السومرية، التي نحن بصددها. يقول فاضل عبد الواحد: نشيد الإنشاد «مقطوعات غزلية ترد تارة على لسان فتاة هيمانة بفتى أحلامها، الذي سحرها بجماله وخصائله، التي راحت تتحدث، وبصورة ساخرة حتى عن علاقتها الجنسية معه»[١٥]. ويرى الباحث أن الفتى يرمز إلى يهوا الإله (دموزي)، والفتاة ترمز إلى إسرائيل (إنانا). كذلك يرى كريمر في كتابه «طقوس الجنس المقدس» «أن النشيد جاء على غرار ما كان يقوم به الملوك السومريون، وهو عبارة عن إحتفال عرس ملكي، لا يُزيد على كونه مجموعة أغان تُغنى في تلك المناسبة. وفي نفس المكان يقول (كريمر) حول أصل كلمة عرس، وما نُحت منها من كلمتي عريس وعروس بأنها مشتقة من العرش الذي يجلس عليه الملك والملكة، أو الملك والكاهنة الكبرى في احتفالات الزواج المقدس. أما ما ورد من تفسيرات ضمن حاشية «نشيد الإنشاد» في الكتاب المقدس، فملخصه بالآتي أن النشيد يرتقي إلى القرن الأول الميلادي، وهو عبارة عن نقل شعائر دينية وثنية إكراماً لإله يموت وتبحث عنه حبيبته في الجحيم. وما ورد فيه من معانٍ جنسية عبر عن حب شريف، يقصد به الأمانة أكثر من الجنس. فإنه نص دنيوي، يبرر زواج سليمان (النبي والملك) من بنت فرعون، وقد

دخل في الكتاب المقدس صدفةً، ومن المحتمل أن يكون حب «نشيد الأناشيد» بشرياً، جنسياً ومقدساً في آن واحد (الكتاب المقدس، ١٣٧٩ ـ ١٣٨٠).

يقول فراس السواح حول تشابه احتفالي الميلاد التموزي والمسيحي: «إن أم الإله أدونيس (دموزي، في الاصل) قد حولت نفسها إلى شجرة عندما حملت به، ثم ولدته وهو في هذه الحال، فأتى طفلاً ذا جمال لا حد له، فأحبته الإلهة أفروديت وهو طفل صغير، فأخذته إليها»[١٦]. فالشجرة ما زالت من طقوس أعياد الميلاد تأخذ موقعها في الكنائس وبيوت المسيحيين، ولعلَّ شجرة الميلاد دائمة الخضرة ذات علاقة بتلك الأسطورة، وهناك منْ يضع تحت الشجرة دمى تُشير إلى طفل وخراف، فدموزي كان راعياً، وليس مصادفة أن يكون أغلب الأنبياء رعاة، فهناك منْ يُشير إلى صلة مفهوم الراعي والرعية برعاية دموزي للأرض والمراعي.

إن صرخة إنانا ومعها النادبات «ويلي عليك يا دامو. . . ويلي عليك يا ابني» تجد صدىً عند مريم العذراء، فورد على لسان القديس أفرام السرياني، في أحد أناشيد الميلاد قوله: «كيف أدعوك أيها الغريب عنا، والذي صار منا، هل أدعوك أبناً؟ هل أدعوك أخاً؟ هل أدعوك خطيباً: هل أدعوك رباً، أنا أخت من بيت داود الأب الثاني، وأنا أم من أجل الحبل بك، وأنا خطيبة من أجل قدسك»[١٧]. ويقول فاضل عبد الواحد حول الشبه بين مأساتيَّ المسيح ودموزي: «شخص مقرب سلّم دموزي إلى الشياطين هي زوجته، وشخص مقرب سلم المسيح وهو أحد تلاميذه المقربين. «كما قتل الإمام الحسين يد جماعة زعيمها قريب له يُدعى عمر بن سعد. ومثلما ندمت إنانا على دموزي، ندم (يهوذا) على فعلته، ورد النقود التي تقاضاها وشنق نفسه»[١٨]. كذلك ورد في العزاء الحسيني أن عمراً عض يده ندماً على قتل الحسين، بعد إفلاسه من المنصب الذي وعده به أمير العراق، وهو ولاية الري بإيران. يقول أبو فرج الأصفهاني في «مقاتل الطالبيين» حول محاكمة مسلم بن عقيل بقصر إمارة الكوفة، انه قال لعمر بن سعد: «يا عمر ان بيني وبينك قرابة دون هؤلاء، ولي إليك حاجة، وقد يجب عليك لقرابتي نُجح حاجتي»[١٩].

يحضر العطش بشكل رئيسي في الملاحم الثلاث، وربما في كل قصص القتل، فهو أقرب المعاني للجفاف والموت، وتكاد لا تكتمل صورة الحرمان والعذاب بدونه. قال الشاعر السومري في عطش دموزي: «ذهبوا بابني الحبيب / إبني الحبيب ذهب يبحث عن الماء» / فأسلموه إلى الماء (لعلَّ المقصود بذلك المياه الآسنة في جهنم، كما عند المندائية، وكما ورد في مزمور داوود السالف الذكر). وحول عطش المسيح ورد في الكتاب

المقدس (أنجيل يوحنا ١٩): «أنا عطشان، وكان هناك إناء مملوء خلاً، فوضعوا إسفنجة مبتلة بالخل على ساق زوفى[٢٠] وأدنوها من فمه، فلما تناول يسوع الخل قال: تم كل شيء، ثم حنى رأسه وأسلم الروح». يبدو العطش في الشعر الحسيني، ومجالس العزاء مادة أساسية في عرض المأساة، فالسقاة يتنقلون بين الناس بقرب الماء البارد، وهم يصيحون: يا حسين يا عطشان، لعنت أمة حرمتك الماء. ويكون ذلك أكثر حماسة عندما يُصادف عاشورا الباحورة. وكي يبقى العطش حياً في طقوس عاشوراء قيل على لسان الإمام الحسين: «شيعتي مهما شربتم عذب ماء فاذكروني»[٢١]. ظل محرّم مباركاً عند العرب والمسلمين، يقول المؤرخون عنه: «إن اليوم الأول منه كان معظّماً، مثل النيروز عند الفرس، والسابع منه خرج يونس من بطن الحوت، وبردت النار على إبراهيم، وفيه غلب موسى السحرة، وأجيب زكريا حين أستوهب يحيى. . .»[٢٢]. لكن بعد قتل الحسين تحول ذلك الفرح إلى حزن سنوي، عند فئة واسعة من المسلمين. استجاب البويهيون لذلك الحزن، الذي منع العباسيون مظاهره عشرات السنين، فأقاموا أول حداد رسمي توشحت فيه بغداد بالسواد السنة ٣٥٤ هـ، بعد أن كانت مجالس العزاء تُعقد خفية.

كثيراً ما يتماثل الموقف الدرامي في لحظات القتل وبعدها، فالمسيح يضرب ضرباً مؤلماً بالآلات الجارحة، ويثقب كفه بالمسامير، بعد أن يوثق بالحبال الغليظة، ويجبر على حمل الخشبة الكبيرة التي سيُصلب عليها. كذلك ملأت جسد الحسين النبال من كل جانب، وحوصر بالرماح والسيوف، ثم يذبح من القفا من قبل شخص تصفه مخيلة خطيب العزاء: أن له بوزاً كبوز الكلب، وشعراً كشعر الخنزير. ومثلما ظل دم المسيح حياً بالكنيسة، ظل دم الحسين المخلوط بطين كربلاء، كما يُعتقد، حياً في الذاكرة الشيعية. في دراما قتل الحسين ورد الآتي: «قال عمر بن سعد لسنان بن أنس أنزل ويحك إلى الحسين فأرحه، فقال سنان لخولي بن يزيد احتز رأسه، فبدر خولي ليحتز رأسه فضعف وأرعد، فقال له سنان، وقيل شمر، فتّ الله في عضدك مالك ترعد، ونزل سنان، وقيل شمر، إليه فذبحه ثم أحتز رأسه الشريف. . . وأقبل القوم على سلبه. . . وأخذ خاتمه بجدل بن سليم الكلبي، وقطع إصبعه مع الخاتم»[٢٣] وبعد الموت سُلب منه كل شيء، وداست الخيل صدره ورأسه، و جثث القتلى من أهل بيته وأصحابه. ورد في التمثيل بجسد المسيح وجسدي صاحبيه الآتي: «فجاء الجنود فكسروا ساقي الأول والآخر اللذين صُلبا معه. أما يسوع فلما وصلوا ورأوه قد مات، لم يكسروا ساقيه، لكن أحد الجنود طعنه بحربة في جنبه، فخرج لوقته دم وماء» (أنجيل يوحنا ١٩/٢٦-٣٦). وفي المشهد السومري الآتي:

العفريت الأول، وهو يدخل الحظيرة، والإسطبل طعنه على خده بمسمار ثاقب
والثاني، وهو يدخل الحظيرة، والإسطبل ضربه على خده بمحجن الراعي
الثالث، وهو يدخل الحظيرة، والإسطبل أزال القاعدة على الماخضة المباركة
الرابع، وهو يدخل الحظيرة، والإسطبل رمى من على المشجب الكأس المعلق على المشجب
الخامس، وهو يدخل الحظيرة، والإسطبل حطم الماخضة، لا لبن يسكب منها حطم الكأس، دموزي لن يعيش بعد هذا، حظيرة الغنم في مهب الريح، لقد مات دموزي(٢٥).

من بقايا دموزي في ذاكرة الشعوب الورد الأحمر البري المعروف بشقائق النعمان، وعلى حد تعبير فراس السواح في «لغز عشتار» أنه بقايا دماء (أدونيس). يستقصي السواح معان كلمة النعمان الدالة على الخضرة، وعالم النبات بشكل عام، فهي مشتقة من نعم (جمع نعمة)، ومن معان الأخيرة: النضر، المخضوضر، ومنها تُشتق كلمة الناعمة (الروضة أو الحديقة). وبالتالي أن النعمان يعني الأخضر، أو الخضر، الذي ما زال حياً في ذاكرة العراقيين، وله عيد شعبي سنوي، تشترك فيه الديانات العراقية كافة، ولكن في طقوس متباينة.

بعد كل ما تقدم، أرى أنه ليس من الحق تعطيل الذاكرة الشعبية بإلغاء الأعياد ومجالس الأحزان، كما ألغى خلفاء عباسيون الاحتفال بأعياد نيروز، ومنهم منْ حاول استبداله بتيروز سماه على أسمه، أو إلغاء احتفالات العزاء الحسيني بأرض العراق مهد ذاكرتها، أو مجالس الذكر الصوفية. كل ذلك يُعدّ تجاوزاً خطيراً على العاطفة الشعبية. لكن الحق أن تُرشّد وتهذب حتى تكون بإطارها التاريخي الحضاري، وبطقوس روحية تعبر عن أفراح وأحزان الأرض والإنسان بما يُناسب روح العصر.

ما بقي من متابعة لآثار دموزي في الأديان والمذاهب هو فكرة المنقذ، أو المهدي، وهذا ما نحيله إلى دراسة قادمة.

الهوامش:

(١) البيروني، القانون المسعودي ١/ ٦٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) كوكب مشهور ومعظم عند قبائل عربية بالحجاز، وكان معبوداً من قبل فئة من المنجمين (تلخيص البيان في ذكر فرق أهل الأديان، ٢٤٢).

(٤) عجائب المخلوقات، ٥٨.

(٥٨) المصدر نفسه.

(٦) كريمر، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ٨٠.

(٧) لعلَّ فكرة غرس المسامير بكفي المسيح، مستوحاة من تلك المسامير، لكن الأسطورة تُشير بأنها من صنع الغجر، لذا كُتب عليهم التشرد بسبب آلام المسيح.

(٨) فاضل عبد الواحد، مجلة سومر، المجلد ٣٤. طه باقر، من الأعياد الشعبية في العراق قديماً، مجلة التراث الشعبي.

(٩) رودولف، النشوء والخلق في النصوص المندائية.

(١٠) ناجية المراني، مفاهيم صابئية مندائية، ١٤٣.

(١١) المصدر نفسه، ١٢٨-١٢٩.

(١٢) الفهرست، ٣٨٧.

(١٣) جورج حبيب، اليزيدية بقايا دين قديم، ١٢.

(١٤) خليل جندي، نحو معرفة حقيقة الديانة الايزيدية، ١/ ٣٧.

(١٥) ورد في العهد القديم، الطبعة الرابعة، دار المشرق، بيروت، ١٧٨٦: «أن تموز إله آشوري بابلي من أصل شعبي، مشهور باسمه السامي أدونيس في أساطير البحر الأبيض المتوسط، فكانوا كل سنة في شهر تموز، وبمناسبة إقامة الإله من الجحيم يحتفلون بالحداد عليه».

(١٦) مجلة سومر، المجلد ٣٤.

(١٧) لغز عشتار، ٣٠٢.

(١٨) المصدر نفسه، ٢٦٩ عن الموسوعة المريمية.

(١٩) مجلد سومر، المجلد ٢٨.

(٢٠) مقاتل الطالبيين، ١٠٨. كانت حاجة مسلم بن عقيل قضاء دين عنه، ودفن جثته بعد إعدامه، وإبلاغ الحسين أن لا يأتي الكوفة.

(٢١) ورد في «معجم الكتاب المقدس» ص٤٣٨: إنه اسم نبات ذكر عدة مرات في العهد القديم، والرأي التقليدي بين اليهود أنه الزعتر، ويظهر أن هذا النبات استعمل استعمالات متنوعة في التطهير من البرص والخطيئة ومن الأوبئة، وللطهارة القدسية.

(٢٢) راجع تفاصيل قصة مقتل الحسين في «مقاتل الطالبيين» لأبي الفرج الأصفهاني. لا ندري، إن كان ثمة صلة بين عطش عاشورا واسم سوق ومحلة «العطش» ببغداد القرن الرابع الهجري، أو أنه سوق خاص ببيع الأحجار الكريمة، ومنها الحجر الثمين «كهرب عطش» (راجع التوحيدي، الرسالة البغدادية، ٢٦٥).

(٢٣) عجائب المخلوقات، ٥١.

(٢٤) الخطيب عبد الزهراء الكعبي، كتاب مقتل الحسين، ٧٥-٧٦. بدأت الحكومة العراقية تذيعه بصوته من دار الإذاعة العراقية بداية من محرم ١٩٥٩.

(٢٥) طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ١٨٢-١٨٣.

مراكز القوى المؤثرة في إيران

مجلس صيانة الدستور

حميد سليمان الكعبي

«مجلس صيانة الدستور» حسب دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية يتألف من اثني عشر عضواً، يعين منهم القائد الأعلى للبلاد ـ «زعيم الثورة» ـ ستة، بينما ترشح السلطة القضائية عدداً آخر يزكي مجلس «الشورى الإسلامي» ستة آخرين يقترحهم على الزعيم الذي يصدر أمر تعيينهم. والواجبات الرئيسية لهذا المجلس هي: النظر في التشريعات التي يصدرها مجلس الشورى لتأييد، أو رد انطباقها مع (أ) أصول الشريعة الإسلامية، و(ب) دستور البلاد، وكذلك الإشراف على انتخابات مجلس الشورى والخبراء، وهو مجلس منتخب آخر، لا يضم إلا الفقهاء، مهمته انتخاب «زعيم الثورة»، أو إعلان عدم صلاحية الزعيم في حالات معينة بعد انتخابه وممارسة أعماله.

ومع أنه لا يجري ابراز دور مجلس الصيانة إعلامياً، ومع أن رئيسه لا يندرج ضمن تسلسل الشخصيات الرسمية الرئيسة في البلاد[1] إلا أنه من الواضح أن أعماله ومسؤولياته تفوق كثيراً أعمال ومسؤوليات مجلس الشورى نفسه. فلهذا المجلس، بشكل غير مباشر، حق تعيين مصير زعيم الثورة ـ وهو حاكم البلاد المطلق ـ بما في ذلك عزله، كما أن لهذا المجلس حق الفيتو على كل تشريعات مجلس الشورى.

وعندما وقعت خلافات بين مجلسي الشورى والصيانة ـ صدور تشريع ورفضه من قبل الأخير ـ شكل الزعيم الراحل، آية الله الخميني، مجلساً آخر عين أعضاءه بنفسه،

أسماه «مجمع تشخيص مصلحة النظام» ليكون حكماً بين المجلسين. وقد ازدادت أهمية المجمع بعد تعيين الشيخ الرفسنجاني لرئاسته، وإضافة العديد من وزرائه ـ الذين فقدوا مناصبهم الوزارية بعد انتخاب السيد الخاتمي للرئاسة ـ إليه، وكذلك بعد إناطة مهمة «رسم خط مشي البلاد» به.

في أول انتخابات شهدتها البلاد، بعد حوالي سنة من انتصار الثورة، واجهت وزارة الداخلية ـ وهي المسؤولة إجرائياً عن صلاحية المرشحين ـ مشكلة فيما يتعلق بمرشحي حزب «توده» الشيوعي. فالحزب يؤمن بالاشتراكية العلمية، حسب برنامجه المعلن، وقد فسرتها وزارة الداخلية على أنها تعني أو ـ على الأقل ـ تتضمن الإلحاد، لذلك سألت مجلس الصيانة عن الموقف من مرشحي حزب توده (دون أن تبين السبب الحقيقي للسؤال، ومن دون أن تجد مانعاً قانونياً صريحاً من قبول ترشيحهم: الإيمان بالثورة، عدم العمل على تقوية النظام السابق، عدم التعاون مع أجهزة الأمن السابقة أو البلاط، والخ).

وقد رفض مجلس الصيانة بيان رأيه في الموضوع، تاركاً القرار الصعب لوزارة الداخلية نفسها، مما اضطر هذه الى السؤال بصراحة: إن هذا الحزب المادي، بينما ينص قانون الانتخابات على أن يكون المرشح، ومن ثم النائب، مسلماً أو من أتباع أحد الأديان الرسمية المعترف بها في البلاد. وفي انتهازية قل نظيرها، تهرب مجلس الصيانة من تبعات موقف على تلك الخطورة، بأن أعلن لوزارة الداخلية أن هذه مسألة إجرائية هي من صلاحية السلطة التنفيذية، أي: وزارة الداخلية. واضطرت وزارة الداخلية الى قبول ترشيحات ممثلي حزب توده، إذ لم تجد فيهم ما يخالف الشروط التي نص عليها قانون الانتخابات. ولم يكن وصول عدد من الشيوعيين الى عضوية مجلس الشورى (مهما كبر فهو لا يشكل إلا نسبة ضئيلة من مجموع النواب) ليشكل مسألة ذات شأن للنظام آنذاك: فدور حزب توده في الثورة ضعيف، وتاريخه مشوب بأخطاء فادحة منعت صيرورته حزباً جماهيرياً حقيقياً من جهة، والبلاد كانت تعيش جو انتصار ثورة مفعم بروح التآلف والتعاون الحزبي والفئوي القائم على أساس فكر الخميني وسياسته في تصفية آثار النظام السابق. كما أن للمجلس نفسه حق إسقاط عضويته عن أعضائه، في أي وقت يريد. كما أن قائد البلاد لم يتدخل في الأمر في ذلك الحين، ربما للاعتبارات التي ذكرنا، وربما للإفادة في وجود الشيوعيين في المجلس للاستفادة من فكرهم السياسي وتجربتهم في العمل البرلماني أثناء وبعيد الحرب العالمية الثانية، تقوية الانطباع بديمقراطية النظام الجديد، والى غير ذلك من أسباب ربما يكون ارتآها، أو لكل ما تقدم من أسباب، مجتمعاً.

وسارت عملية انتخاب المجلسين الثاني والثالث على المنوال نفسه، ولم تنشب خلافات جدية بشأنها بين مجلس الصيانة ووزارة الداخلية لعدم تدخل المجلس في بحث صلاحية المرشحين من جهة ولأن توازن القوى داخل النظام الحاكم كان يفرض شبه تطابق بين المجلس والوزارة من ناحية أخرى، وكان «الخطر» المشترك الرئيس ـ في تقدير جناحي الحكم معاً ـ يتمثل في منظمة «مجاهدي خلق»(٢) والتنظيمات الشيوعية: حزب توده، ومنظمتي «فدائيي خلق»(٣)، جناح الأغلبية منها وجناح الأقلية، وكانت مُطارَدة جميعاً وقد اضطرت الى الابتعاد عن العمل الشرعي. كما أن اختلاف وجهات النظر بين التيارين المتصدرين للثورة والقائدين للبلاد لم تكن قد ظهرت بشكل حاد بعد. وكل ما هنالك أن عدداً من مرشحي المجلس الثاني اعترضوا على النتائج مدعين وقوع تزوير في بعض المراكز الانتخابية، وجرى التحقيق في الادعاءات مع تعديل بعض النتائج في حينه، واعترض مجلس الصيانة نفسه على نتائج انتخابات المجلس الثالث بالحجة نفسها، وجرى التحقيق أيضاً، ورد ادعاء المجلس فأبقيت النتائج(٤).

وفي المجلس الرابع، الذي جرت انتخاباته بعد رحيل آية الله الخميني بنحو سنتين، وإذ كانت الخلافات بين التيارين السائدين داخل النظام قد تبلورت قبل ذلك بمدة، مارس مجلس الصيانة إشرافه، الذي خوله إياه القانون، على الانتخابات منذ الخطوة الأولى، وبشكل اعتبره الكثيرون مخالفاً للقانون: تدقيق صلاحية المرشحين، يعني تكرار عمل وزارة الداخلية، أو بالأحرى تدقيق عملها والرقابة عليه! وارتفعت أصوات الاحتجاج: من وزارة الداخلية، لان وزيرها ـ وكان محسوباً على «اليسار» ـ اعتبر ذلك تدخلاً في عمل وزارته، ومن «اليسار» ـ ممثلاً بـ«مجمع روحانيون مبارز»(٥) أساساً، ومنظمة «مجاهدي انقلاب إسلامي»(٦)، وتنظيمات أخرى أصغر، باعتبار عمل مجلس الصيانة مخالفاً للقانون الذي لم يخوله إلا النظر في اعتراضات من ترد صلاحيتهم ـ ولكن بقيت الاعتراضات دون جدوى. وذكر المعترضون مجلس الصيانة بموقفه عند الانتخابات الأولى، فلم يرد عليهم! وجاءت نتائج تدقيقه لأسماء المرشحين ـ وكذلك مرشحي مجلس خبراء الدستور الذي جرت انتخاباته الثانية في الأيام نفسها ـ لتحقق مخاوف «اليسار»، فقد أعمل مجلس الصيانة قلمه لشطب اسم من لا يرتضيه، دون أن يكلف نفسه عناء إيضاح الأسباب! وحتى عندما اعترض المرشحون الراسبون في امتحان مجلس الصيانة، مطالبين ببيان الأسباب، اكتفى هذا بإبلاغهم بأن الرفض سببه المادة كذا أو كذا من قانون الانتخابات، دون إفهامهم سبباً محدداً يبين عيوبهم أو نقائصهم. وصرح

الناطق باسم المجلس آنذاك، آية الله كاشاني، بأن المجلس لا يحبذ إعلان الأسباب لأنها تسبب فضائح لبعض المردودين! ولأن إعلان أسباب الرفض قد يودي بالحياة العملية للمردودين، فإنهم ربما يصلحون لأعمال ومسؤوليات أخرى، غير النيابة، ولا يريد مجلس الصيانة إيجاد انطباع عنهم بأنهم لا يمكن أن يمارسوا أية مسؤولية! ولما كانت اعتراضات المردودين لم تجد أي رد فعل عند «زعيم الثورة» الجديد، السيد الخامنئي، فقد كانت شكاواهم لدى رئيس الجمهورية غير ذات معنى أصلاً. كما أن عدم وجود آلية لحل إشكال من هذا النوع، كمحكمة دستورية مثلاً، وضع المسألة كلها في زقاق مسدود.

وتحقق لـ«اليمين» ما أراد: أكثرية نحو ثلثين في مجلس الشورى كان أول «إنجازاتها» تحريم استيزار الموسوي وثانيها إقرار ميزانية الانفتاح التي أطلقت يد البازار في حياة البلاد، وما ترتب عليه من القفز الجنوني لوتائر التضخم، والإثراء بأرقام فلكية لعدد محدود من الرأسماليين لقاء إفقار متزايد لجماهير الشعب الكادحة، الأمر الذي صاحبته اضطرابات اقتصادية و/ أو اجتماعية في عدد من المدن الايرانية اتسمت بالعنف غالباً، وازدادت ظاهرة انتشار المحتالين الاقتصاديين الذين يشكلون شركات «مضاربة» - وهي شركات تستدرج توفيرات متوسطي الحال بزعم استثمارها لتختلسها بعد زمن قصير - وظاهرة رواج الصكوك عديمة الأرصدة، الأمر الذي اضطر النظام الى تعديل قانون الصك وتشكيل محكمة خاصة للنظر في دعاواه ودائرة إجراء خاصة لتنفيذ ما يترتب على دعاواه. كما صعّد من ظاهرة الإضراب العمالي، بحيث اضطر النظام الى معالجتها بشكل مبتكر حقاً: السماح للعمال بعدم العمل! ومداومة إيصالهم الى ومن محلات عملهم ومواصلة تقديم وجبات الطعام لهم في مواقع عملهم كالمألوف، مع عدم الإعلان عن أي شيء بهذا الخصوص في تضامن عجيب من كل وسائل الإعلام!

ولم تكن الضجة الناشئة عن الموقف نفسه تجاه مرشحي مجلس الخبراء، المردودة صلاحيتهم، على الضخامة نفسها، وذلك لسبب رئيس هو أن المرشح ينبغي أن يكون فقيهاً - ويندر وجود من يمثل «اليسار» بين الفقهاء، ويزداد ندرة في من يريد منهم دخول معركة انتخابية - اضافة الى أسباب أخرى. إلا أن البازار تمكن أن يتخلص، متشفياً، من ترشيح شخص «مزعج» كالخلخالي، الذي ضاعت اعتراضاته هباءً حتى كاد يُنسى هو نفسه كلياً!

وليتخلص مجلس الصيانة من إحراجات لا ضرورة لها، فقد عدل له مجلس الشورى قانون الانتخابات بأن نص على أن إشراف مجلس الصيانة على الانتخابات هو إشراف «استصوابي» وليس رقابياً فقط! وفي حين ضغط «اليسار» فحمل مجلس الشورى على تعديل

آخر ينص على ضرورة وجود ممثلين عن المرشحين في المراكز الانتخابية، فقد كان يسيراً على مجلس الصيانة رفض هذا التعديل بحجة أنه يشكل عبئاً على خزانة الدولة! وبالتالي فهو يخالف الدستور! ولم يلح مجلس الشورى، فهو لم يكن حريصاً على هذه المسألة ابتداء!

وعندما جاءت انتخابات المجلس الخامس قبل نحو ثلاث سنوات، فقد كان طبيعياً أن يمارس مجلس الصيانة العمل نفسه، وأن يبدو عمله طبيعياً لا شائبة قانونية فيه.

كما مارس الدور نفسه في انتخابات الرئاسة، فاختزل المرشحين من أكثر من مائة الى أربعة فقط. وليس واضحاً ما الذي منعه من رد صلاحية السيد خاتمي، وإن كان يرجح أنه لم يكن يتوقع له الفوز ـ بله الفوز الساحق ـ اعتماداً على حقيقة تفشي اليأس في نفوس المواطنين العاديين من المشاركة في العمل السياسي، التي لم تجلب له تحسينا في مستوى معيشته، وتشابه برامج المرشحين ـ أو بالأحرى ادعاءاتهم ـ مع غياب التنفيذ، وانعدام الوسيلة المناسبة لمحاسبتهم على النكوص عن وعودهم الانتخابية. وربما كان مجلس الصيانة ـ ومن ورائه كل «اليمين» بالطبع ـ واثقاً من نجاح ضغوطه التي بلغت حد أن أحد أعضائه لم يترك سماعة التلفون خلال الحملة الانتخابية للاتصال بممثلي مجلسه في المراكز الانتخابية وطلب التعهدات منهم ومن المسؤولين الإداريين بـ«تأمين فوز» الشيخ ناطق نوري ـ وضغوط مراكز القوى الأخرى والدور المبرمج منذ أكثر من سنة على الانتخابات لإبراز الشيخ ناطق نوري وتسويقه للمواطنين.

وعندي، أن مجلس الصيانة، حتى إن كان حسب حساب فوز السيد خاتمي، فقد كان حسب أيضاً أن يلجأ الى سلاحه المجرب الآخر، وهو تزوير النتائج. ولكن المشاركة الجماهيرية الحقيقية كانت من السعة بحيث أدخلت ذلك المجلس وربما شلت يد اليمين كله فمنعته من التلاعب بالنتائج. فقد اتضح، منذ الساعات الأولى للانتخابات كثافة الحضور الجماهيري، ومنذ اللحظات الأولى لفرز الأصوات أن هذا الحضور كان بسبب خاتمي ومن أجله، وأنه يتقدم بفارق كبير على منافسيه، والرئيسي منهم بخاصة، وتأكد ذلك عند انتهاء عملية الفرز والإحصاء: مشاركة نحو ثلاثين مليون ناخب (مقابل نحو عشرين مليون في الانتخابات السابقة)، صوّت أكثر من عشرين مليون منهم للسيد خاتمي مقابل نحو سبعة ملايين لمنافسه الرئيس الشيخ ناطق نوري، واقتُسم نحو مليون صوت بين المرشحين الاثنين الآخرين!

وعدا عن السياسة العامة لمجلس الصيانة، وقد تقننت، فقد كان الانتقام من نتائج انتخابات الرئاسة أحد دوافع موقفه في التحضير للانتخابات التكميلية للمجلس الخامس (استوزر عدد من النواب أو عينوا في مراكز إدارية قيادية بعد تسلم السيد خاتمي الرئاسة

فشغرت مقاعدهم). تقدم عدد من المرشحين لهذه الانتخابات، أبدت وزارة الداخلية صلاحية مائتين وتسعة وعشرين منهم، أحالت أسماءهم وملفاتهم الى مجلس الصيانة، الذي أعاد التدقيق فشطب على أسماء نحو نصفهم بحيث لم يبق إلا مائة وثمانية عشر متنافساً. وكانت حصة طهران ـ كالمعروف والمتوقع ـ من الرد هي الأكبر، فمن مجموع مائة وثمانية وأربعين مرشحاً ابتدائياً، وافق مجلس الصيانة على صلاحية ستة وستين مرشحاً فقط. وكالعادة، كان من بين من رد صلاحيتهم عدد ممن سبق له أن وافق عليهم في انتخابات سابقة! أو كانوا نواباً في السابق! بل حتى ممن سبق أن وافق هذا المجلس على صلاحيتهم في انتخابات المجلس الخامس الأصلية، وإن لم يفوزوا!

وكان واضحاً أن أكثر المردودين هم من «اليسار»، فكان طبيعياً أن يبدأ التذمر، وأن يكون شديداً، نظراً للآمال والتوقعات التي أثارتها المشاركة الهائلة في انتخابات رئاسة الجمهورية وما ترتب عليها من فوز السيد خاتمي، مما صار يعرف بـ«أسطورة» أو «ملحمة» الثاني من خرداد (= ٢٣ أيار، وهو يوم انتخابات الرئاسة). فكان أن قدم أحد المردودين، وهو الوزير السابق بهزاد نبوي، اعتراضاً شديد اللهجة على الأسباب الثلاثة التي اعتمدها مجلس الصيانة لرد صلاحيته، واصفاً إياها بالمضحكة، وعلى قرار المجلس برد صلاحيته هو معتبراً إياه «غير عادل» و«سخيف»، مهدداً بأنه في حالة عدم تبديل القرار سيقدم شكوى قضائية ضد الهيئة المركزية للإشراف على الانتخابات (المنبثقة من مجلس الصيانة) وأنه سيقوم بـ«أي عمل قانوني آخر».

وتلاحقت الأحداث: طلب «اتحاد الجمعيات الإسلامية لطلبة عموم البلاد ـ مكتب تحكيم الوحدة»، (وهو تنظيم «اليسار» الطلابي)، سماحاً من وزارة الداخلية لعقد تجمع طلابي احتجاجاً على «الإشراف الاستصوابي لمجلس الصيانة» وعلى «رد الصلاحيات المنحاز»، عند المدخل الرئيسي لجامعة طهران، فوافقت الوزارة. ثم تقدم «اتحاد الطلاب الحزب اللهيني بجامعة طهران»[(٧)] الى وزارة الداخلية بطلب إجازة لعقد تجمع للاعتراض على التجمع الأول، يعقد في نفس زمان ومكان ذلك التجمع!

وافقت الوزارة على التجمع إلا أنها طلبت تبديل مكانه أو زمانه، منعاً للاشتباكات وأعمال العنف، فأعلم هذا الاتحاد الأخير الوزارة بانصرافه عن عقد الاجتماع، ثم وجه رسالة الى رئيس الجمهورية، مع صورة منها لوزارة الداخلية، يطلب فيها إلغاء اجتماع التنظيم الأول، وإلا فإنه سيتدخل بناء على توصية الإمام! (الخميني) مباشرة.

وانعقد التجمع، وما أن انتهت تلاوة القرآن حتى بدأت هتافات مضادة له وهجوم على

لاقطة الصوت، في حين لزم رجال الشرطة دور المتفرج! حتى وقعت مصادمات في الشوارع الخلفية المحيطة بالجامعة، وأخذت الشرطة تعتقل المتفرقين، وتشاء الصدفة (!) أن يكون أكثر المعتقلين من أعضاء المجموعة الأولى التي أقامت التجمع بموافقة الجهة الرسمية المختصة، وهي وزارة الداخلية التي ترأس - تنظيمياً - جهاز الشرطة نفسه! وقد اشتكى اتحاد الجمعيات، قضائياً، على مدير الشرطة العام، لموقف أفراده المشجع على الاعتداء أولاً، والمنحاز في الاعتقالات ثانياً.

وامتدت أصابع الاتهام في تخريب التجمع وإثارة أعمال العنف خلاله الى «أنصار حزب الله»[8]، فسارع هذا التنظيم الى إصدار بيان يعلن فيه عدم مسؤوليته وينكر وجود أعضائه في مكان التجمع أصلاً. (كما لمّح الى استحقاق التجمع ومنظميه ما جرى لهم لكون شعاراتهم استفزازية! ومطالبهم غير مقبولة!).

أما وزارة الداخلية، التي لم تفعل شيئاً عملياً لمنع الاعتداء، واعتقلت شرطتها ضحاياه، فقد أعلنت أنه كان من مسؤولية السلطة القضائية أن تتدخل!

وفي هذه الأثناء رتب التلفزيون - وهو والإذاعة مركز قوة آخر لـ«اليمين» - لقاءً مع المتحدث باسم مجلس الصيانة، آية اللهة جنتي، الذي أعلن أن المجلس إنما مارس حقه القانوني في الإشراف «الاستصوابي»، وأن على من لا يعجبه ذلك أن يطرح الأمر على مجلس الشورى الذي - إن ارتأى - يمكنه تعديل القانون، أو على الحكومة التي يمكنها تقديم اقتراح الى مجلس الشورى للتعديل، فإن ارتأى هذا فائدة في التعديل أو ضرورة له فهو سيفعل ذلك! (لكي يرفض مجلس الصيانة مثل هذا التعديل، بموجب حق الفيتو الذي يتمتع به! وهو لم يقل ذلك طبعاً)، وليس من الصحيح اللجوء الى أساليب الضجيج وافتعال المشاكل، التي لا تؤدي إلى غير الخلافات والحزازات! فمجلسه لا يتأثر بأمثال هذه الأعمال المثيرة (لم يقل الديماغوجية).

أما عن أسباب رد صلاحية بعض المرشحين، وقد كانوا نواباً سابقين أو جرى تأييد صلاحيتهم في انتخابات سابقة، فقد أجاب - بسخرية أبوية! ممن يطرحون اعتراضاً كهذا - بأنه اتضح للمجلس بأن بعضهم توفرت عنهم في هذه الأثناء وثائق تدل على دورهم في تثبيت النظام الملكي السابق، أو ارتباطهم بجهاز أمن الشاه (الساواك)، كما أن بعضهم الآخر انحرف بعد خروجه من مجلس الشورى فتنكر لولاية الفقيه[9] أو أخذ يمارس أعمالاً غير قانونية ولا شرعية كتعاطي الربا أو اعتياد المخدرات مثلاً! أما لماذا لم يعلن مجلس الصيانة أسباب الرد بشكل محدد، فقد أوضح بأنه ليس من سياسة المجلس

الإعلان، وإنما هو يوجه كتباً رسمية الى وزارة الداخلية يبين فيها أسباب الرد بموجب المادة القانونية التي تنطبق على المرشح المعني، دون أن ينص على السبب تحديداً، وذلك حفظاً لسمعة وكرامة! المرشحين أنفسهم، حتى إن أرادوا هم أنفسهم الإعلان! خاصة وأنه يمكن تكليف المردودين أو بعضهم بمسؤوليات إدارية، لاحقاً، فليس من الصلاح تسبيب فضائح كهذه لهم! وقد نسي الشيخ المتحدث أنه لم يبين لرد الصلاحية غير تلك الأسباب، فكيف يبرر إسناد مسؤوليات إدارية لهم إن كانوا من أعوان النظام المباد أو خدام الساواك أو مرابين أو معتادي مخدرات أو مخالفين لولاية الفقيه؟!

ولكنه كان يتكلم من جانب واحد، وليس ثمة من يناقش أقواله. وكذلك فعل بعد أيام وهو يلقي خطبة صلاة الجمعة!

ولكن «مجمع روحانيون مبارز»[١٠] وجه رسالة، نشرتها بعض الصحف، الى مجلس الصيانة، يعترض فيها على عمله، رافضاً أسبابه بوصفها «اتهامات لا أساس لها»، وحذر من أن هذا الأسلوب لن يؤدي الى «إضعاف» النظام وإضعاف مجلس الصيانة وبث اليأس في قلوب الحريصين على الثورة ومجتمعنا الثوري فقط، وإنما الى تضييع الحدود كلياً ما بين الثورة والثورة المضادة، والنظام وما هو خارج النظام، وهو يعني ـ بشكل غير واع ـ هتك حيثية قوى الثورة والمناضلين ضد النظام الملكي، ومسؤولي العقدين التاليين للثورة، وإلقاء المجتمع في الشك والإبهام فيما يتعلق بكل القوى ذات العلاقة بالثورة والنظام». وبعد أن يتهم مجلس الصيانة بالتحزب، ويعتبر موقفه مغايراً للمصلحة القومية ومصلحة النظام، ويحذره من أن هذا الموقف سيضعف مركزه الشعبي، يحذره من «عواقب أمثال هذه التسلكات المغايرة لروح الدستور والمخالفة لمطلب الشعب العام»، ويطالب «الحريصين الحقيقيين» على النظام والثورة أن «يفكروا بتغيير مناسب لهذه المعضلة عن طريق القنوات القانونية».

ولكن لليمين وسائله الأخرى التي يفضلها: فقد وصلت الى الصحف ووكالة الأنباء الإيرانية، عبر أجهزة الفاكس، رسائل تعلن عن «قيام تجمع طلابي كبير دفاعاً عن الدستور»، مع إشارة غامضة الى منظميه، توحي بأنهم نفس «اتحاد الجمعيات الإسلامية لطلبة جامعات عموم البلاد ـ مكتب تحكيم الوحدة»، مما اضطر هذا الاتحاد الى اصدار بيان سريع ينفي علاقته بالأمر.

وبعد إذاعة مقابلة الشيخ جنتي المذكورة آنفاً، وجه له سكرتير «مجمع روحانيون مبارز»، الشيخ مهدي كروبي، رسالة نشرتها هي الأخرى بعض الصحف، فاضحاً كذبه ـ

دون أن يتهمه بالكذب بل بـ«النسيان لكثرة مشاغله»! معرياً مغالطاته، مبيناً أن الإشراف التدقيقي بشكل يخول مجلس الصيانة رد صلاحية المرشحين ليس من نص قانون الانتخابات، وإنما هو تفسير هذا المجلس للقانون، وأن القانون نص على تخويل مجلس الصيانة بحث اعتراضات من ترد صلاحيتهم، صيانة لحقوقهم تجاه عسف وزارة الداخلية، وعلى هذا فإن ما قام ويقوم به مجلس الصيانة هو غير قانوني أصلاً! وحذر - كما حذر مجمعه قبلاً - من عواقب العمل حسب هذا التفسير، والتنفيذ المتحيز للصلاحية المأخوذة وفقه.

ثم أصدر اتحاد الجمعيات بياناً حذر فيه من مواجهة النظام لأزمة شرعية إن لم يلغ الإشراف التدقيقي لمجلس الصيانة على الانتخابات، وأصدرت «منظمة مجاهدي الثورة الإسلامية» بياناً سجلت فيه اعتراضها على عمل مجلس الصيانة، وانتقدت تصريحات متحدثه، معتبرة أن «الاعتراض على جهاز الاشراف على الانتخابات حق للتجمعات السياسية»، ثم أصدرت بياناً آخر أعلنت فيه عدم ترشيح ممثلين عنها في الانتخابات - بعد أن رد مجلس الصيانة صلاحية ممثلها السيد بهزاد نبوي - متوقعة أن يقل الإقبال على الانتخابات، رامية مسؤولية ذلك على «أولئك الذين يجدون المنافسة الانتخابية السليمة والحضور الواسع والفعال والحقيقي للشعب في ميدان السياسة مخالفاً لميولهم الاحتكارية»، مؤكداً هو الآخر عزمه على السعي المستمر لإعادة النظر في قانون الانتخابات وإلغاء الإشراف التدقيقي».

ثم وجه السيد بهزاد نبوي رسالة مفتوحة الى رئيس الجمهورية، معترضاً على رد صلاحيته، منتقداً مبررات مجلس المصلحة في هذا الرد، معتبراً إياها «مضحكة»، «سخيفة» و«عديمة الأساس»، مؤكداً أن من يشككون بنضاله ضد النظام السابق لم يعملوا - مجتمعين وطوال أعمارهم - بقدر ما عمل هو طوال عشرين عاماً ضد ذلك النظام، وأنهم كانوا «يخافون السير أمام نقطة شرطة» في حين كان يقضي هو سبع سنوات في سجون ذلك النظام. وبين أنه مضطر هذه المرة الى عدم السكوت لأن الصمت يشجع هؤلاء على موقفهم، بحيث أنه لا يدري ما سيكون مصيره وغيره من الحريصين على الثورة، مذكراً رئيس الجمهورية بموقفهم من ترشيحه ثم انتخابه هو شخصياً للرئاسة، معلناً أنه لن يكتفي هذه المرة بـ«الأخذ بتلابيبهم على الصراط المستقيم» ومحاسبتهم هناك، وإنما يطالب هو، اليوم، بواجبه الدستوري بأن يطالبهم بتقديم أدلتهم على معارضته (أي: معارضة بهزاد نبوي) لولاية الفقيه، وما يثبت عمله على تقوية دعائم النظام الملكي السابق وتعاونه مع السافاك، كما يطالب بسحب إضبارته من وزارة الأمن للبحث عن وثائق من هذا النوع.

وإذا كان صمت «زعيم الثورة» في خضم هذه الأحداث ذا مغزى، فإن عدم توجيه هذه الرسالة إليه، وحتى عدم إعطائه نسخة منها، أكبر مغزى.

ولكن، هل سيقدم رئيس الجمهورية على الخطوة المطلوبة منه؟

أظن أن أولوياته لا تسمح له بذلك، فهو ربما كان يفكر الآن في طريقة لمواجهة السلطة القضائية أولاً، كما أن أسلوب عمله يتصف بالحذر وسياسة الخطوة خطوة.

الهوامش

(١) سلسلة المراتب رسمياً، بعد زعيم الثورة، هي على النحو التالي: ١ـ رئيس الجمهورية، ٢ـ رئيس مجلس الشورى و٣ـ رئيس السلطة القضائية.

(٢) = مجاهدي الشعب، وكانت لها سمعة واسعة قبل الثورة، واعتبرت ذات دور مصيري في نجاح الثورة، إلا أن مخالفة المرحوم الخميني لها، وتعاونها التكتيكي مع الخيل الخاسرة: حكومة بازركان، شخص بازركان، ثم الرئيس بني صدر، ابعدها عن الشارع الإيراني ثم ـ عملياً ـ عن إيران كلها، فانتقلت قيادتها الى فرنسا ومنها الى العراق حيث صارت أحد مخالب صدام حسين وتسلطه.

(٣) = فدائيي الشعب، وهي منظمة قريبة جداً من حزب توده، وكانت بصدد الاندماج به قبل توجيه الضربة الكبرى له سنة ١٩٨١ـ١٩٨٢.

(٤) جرى التحقيقان بإيعاز مباشر من المرحوم الخميني وعلى أيدي ممثلين شخصيين عنه.

(٥) = مجمل رجال الدين المناضلين، أما ممثل «اليمين» فيدعى «جامعه روحانيت مبارز»، أي: مجتمع رجال الدين المناضلين، وقد تأسس قبل نجاح الثورة، وقاد اعتصام رجال الدين في مسجد جامعة طهران احتجاجاً على غلق مطار طهران بوجه عودة المرحوم الخميني وكان يضم أعضاء التنظيم الاول أيضاً.

(٦) = منظمة مجاهدي الثورة الإسلامية، وتقف الى يسار المجمع المذكور، وقد مثلها وزير في وزارة المرحوم علي رجائي، وآخر في وزارة السيد مير حسين موسوي. وعندما أثار اليمين تشويشات عليها لجأت الى المرحوم خميني تسأله رأيه فيها وموقفه منها، فصرح بإسلاميتها وثوريتها! وقد أشيع مع تلك التشويشات أن قادتها شيوعيون، أو شيوعيون سابقون على الأقل. وهي تقاطع الانتخابات منذ مدة، فلا ترشح أحداً كمنظمة، وإن كان أعضاؤها يرشحون أنفسهم فرادى.

(٧) يقول عنه التنظيم الاول إنه لا وجود حقيقي له!

(٨) تنظيم يعمل بدون إجازة رسمية، ينشط في تخريب تجمعات «اليسار» وفي إثارة الشغب في احتفالات الليبراليين، ومهاجمة دور السينما التي تعرض أفلاماً لا تعجبه، فيحطم نوافذها وكراسيها ويعتدي على المتفرجين فيها. وهو يحتج بشدة على الإشارة الى لاقانونيته، بكونه إنما يمارس واجبه الشرعي! في «النهي عن المنكر» بموجب تكليف ديني عام وحكم شرعي صادر عن قائد الثورة المتوفى، آية الله الخميني، ورد في وصيته السياسية، حث فيه أبناء الشعب المخلصين على المبادرة الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مباشرة إذا وجدوا تلكؤاً من الاجهزة الرسمية في ذلك. والعجيب أن إجراءً رسمياً لم يتخذ ضده على أفعاله الإجرامية، بل إن أحداً من المسؤولين لم يوجه له اللوم عليها بشكل محدد!

(٩) الإيمان بأن المرجع الأعلى لكل السلطات يجب أن يكون فقيهاً مجتهداً، هو عادل طبعاً نظراً لفقاهته!

(١٠) = مجمع رجال الدين المناضلين، وهو الحزب «اليساري» الذي كان سائداً طوال تولي المرحوم الخميني لمركز الولي الفقيه، واضطر بعد وفاته وما رافق انتخابات مجلس الشورى الرابع الى تجميد نشاطه، الذي لم يستأنفه إلا أثناء حملة انتخابات الرئاسة الأخيرة.

قصة زوال النظام السوفيتي

ستانسلاف مينشيكوف*

صدر مؤخراً واحد من أحسن الكتب بشأن ما حصل في الاتحاد السوفييتي خلال العقد الاخير، عنوانه «الثورة من فوق: قصة زوال النظام السوفييتي» ألّفه دفيد كوتز (أستاذ جامعي امريكي) وفرير وير (صحفي كندي أقام فترة طويلة في موسكو). الكتاب، أساساً، تشريح اجتماعي نزيه للأمراض التي أدت الى انهيار النموذج السوفييتي، وهو متعاطف مع قضية الاشتراكية، ويخلو من أية تصورات مسبقة، وذلك على العكس من معظم الكتب التي صدرت في الولايات المتحدة حول هذا الموضوع. يبين الكتاب، بشكل مقنع، ان انهيار النظام السوفييتي كان نتيجة عملية تخريب متعمدة قام بها أعضاء في النخبة الحاكمة باتوا بشكل متزايد معادين للشيوعية وانصاراً للرأسمالية.

انها ثورة مضادة من فوق، في حين كانت الاغلبية الشعبية مؤيدة للاشتراكية رغم الاخطاء التي حصلت، انها ثورة مضادة قادها يلتسين بدعم من الائتلاف النخبوي.

القضية الرئيسة في الكتاب تعود بجذورها الى التقاليد الفكرية التروتسكية التي كانت تتهم القيادة السوفيتية (الستالينية) بتحويل نفسها الى بيروقراطية حاكمة ضمن

* مينشيكوف اقتصادي روسي يعمل الآن محاضراً في جامعة ايراسموس في هولندا، ويتنقل باستمرار بين موسكو وروتردام ـ هولندا، وهو أيضاً رئيس باحثين في المعهد المركزي للاقتصاد الرياضي، من ضمن كتبه المنشورة باللغة الانكليزية، كتاب «المدراء وأصحاب المليارات» اصدار دار التقدم ١٩٦٩، وكتاب «الراسمالية، الشيوعية، التعايش» بالاشتراك مع الاقتصادي الشهير جون كالبريث، اصدار دار هاوتن ١٩٨٨ سبق للثقافة الجديدة ان نشرت له في العدد ١٩٤ حوار كالبريث.

نظام رأسمالية الدولية. وكان جيمس برنهام، وهو منظّر تروتسكي، قد استحدث مفهوم «الثورة الادارية» وقد اعتمد اليوغسلافي دجيلاس مفهوماً مماثلاً في كتابه «الطبقة الجديدة» الذي صدر في بداية الخمسينيات. ولكن الطروحات التروتسكية بقيت عاجزة عن تفسير النزوع التاريخي للنخبة الحاكمة، أي تحولها النهائي الى طبقة رأسمالية تستولي على الملكية الاشتراكية. لقد كان تصور تروتسكي وبرنهام ودجيلاس يقوم على اساس ان تلك « الطبقة الجديدة» سوف تسعى للابقاء على النظام، وذلك لضمان الحفاظ على مواقعها من خلال آلية الدولة الادارية. ولكن الذي حصل كان العكس بالضبط، فقد تملك تلك الطبقة رغبة جامحة لتحطيم النظام الذي كانت تريده. وجدير بالذكر أن التنبؤ بما حصل في الاتحاد السوفياتي لم يأت على يد أساتذة أو منظرين، وانما على يد روائي ساخر هو جورج أورويل في روايته الشهيرة «حديقة الحيوان».

ان تحول خلفاء لينين وستالين الى «طبقة من السراق» هو من المواضيع التي لاتزال بحاجة الى حيز اكبر من التحليل النظري والسياسي. لقد قام كوتز وويير بشرح جزء من تلك القصة التي اكاد اتفق مع معظمها. ولكن تبقى هناك نقاط اختلف معهما حولها، وهي:

أولاً ـــ لا أتفق معهما في القول ان غورباتشوف كان يسعى للحفاظ على الاشتراكية والاتحاد السوفياتي. لقد اعترف غورباتشوف نفسه، عندما زار هولندا قبل عدة سنوات، بأنه كان يفكر بتحطيم النظام قبل ان يصبح عضواً في المكتب السياسي. كما اعترف ايضاً بأنه سعى الى مركز السكرتارية العامة للحزب لانه لا يوجد منصب آخر يتيح له امكانية تحقيق هدف تحطيم النظام من فوق. ولا اشك بصدق اعترافه هذا رغم انه كان ولايزال يستخدم المصطلحات والتعابير الاشتراكية.

عام ١٩٨٧، قام غورباتشوف بتنحية يلتسين من كافة مناصبه الحزبية. سبب تلك الخطوة هو المنافسة الشخصية بين الاثنين وليس الاختلاف حول قضية التحول نحو الرأسمالية.

كان الاثنان متفقين حول الهدف ومختلفين حول سرعة انجازه. كان يلتسين يريد تسريع التغيير، في حين كان غورباتشوف يفضل ان يتم ذلك التغيير ببطء يضمن بقاءه في القمة.

أما المعارضة الرئيسة داخل المكتب السياسي، فكان يمثلها ما كان يدعى «التيار المتشدد» الذي عارض التحول الى الرأسمالية، واراد الحفاظ على السمات الاشتراكية للنظام. ومعظم المنتمين لهذا التيار لم يشاركوا في عمليات النهب التي جدت في السنوات الأخيرة.

أما أقرب حلفاء غورباتشوف في المكتب السياسي فهم ياكوفليف وشفيرنادزه. لقد بدأ ياكوفليف نشاطاته المعادية للشيوعية مباشرة بعد توليه منصب سكرتير في الحزب، اذ استعان بطاقم من المستشارين الذين ساعدوه في عملية الدعاية الهادفة الى نقض الأسس النظرية للماركسية والاشتراكية. يعتقد الكثير من الناس في روسيا اليوم ان ياكوفليف قد ارتبط بوكالة المخابرات الامريكية اثناء اقامته في الولايات المتحدة في العامين ١٩٥٨ و١٩٥٩. كانت هناك الكثير من الادلة على ذلك، وعرضت على غورباتشوف، لكنه اهملها وأبقى على ياكوفليف ضمن مساعديه المقربين.

أما شفيرنادزه، فاعترف موخراً، بأنه كان قد ناقش مع غورباتشوف سبل تغيير النظام في أواخر الثمانينات، وذلك عندما كانا يستجمان على ساحل البحر الاسود، وكان كلاهما في ذلك الوقت اعضاء في المكتب السياسي، ولكنهما لم يكونا قياديين بعد. وبالمناسبة، فان شفيرنادزه كان أحد الأثرياء في ظل النظام السوفياتي، كما هو الحال أيضاً مع حيدر علييف، رئيس جمهورية اذربيجان الحالي، الذي كان أحد عرابي «اقتصاد الظل». عمل شفيرنادزة بعد تسلمه وزارة الخارجية على معارضة واسقاط الفرضية الشيوعية القائلة ان الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية يمثل التناقض الرئيسي في عصرنا، مما أدى الى تحول جذري في السياسة الخارجية السوفيتية، فصارت تلك السياسة موالية للغرب في عهد غورباتشوف، الأمر الذي نتج عنه تخلي الاتحاد السوفياتي عن اصدقائه وحلفائه في اوربا الشرقية.

ثانياً: لقد اصاب المؤلفان بشأن التحول الى الرأسمالية لنخبة حزب الدولة في الاتحاد السوفياتي السابق، الا انهما لم يشيرا بما فيه الكفاية الى الحالات الاستثنائية الكثيرة داخل تلك النخبة. ان معظم الذين يحكمون روسيا اليوم كانوا يتمتعون بمراكز جيدة في ظل النظام السوفيتي، غير ان قلة فقط من موظفي الحزب السابقين سواء في العاصمة أو في الاقاليم، صارت في عداد طبقة رجال الاعمال الجديدة. كما ان بعض من قادة الكومسومول تمكن ايضاً من ان يصبح من اصحاب الملايين، الا ان هؤلاء جميعاً يمثلون الاستثناء وليس القاعدة.

ان الكثير من كوادر الحزب السابقين استمروا بالعمل كاداريين محليين في ظل النظام الجديد، ومعظمهم حافظ على ولائه السابق، وكان لهم دور بالغ الاثر في اعادة النشاط لخلايا الحزب الشيوعي، وفي الفوز الذي حققه في انتخابات عام ١٩٩٥ البرلمانية، وفي حصول زوكانوف على ٣٠ مليون صوت في انتخابات عام ١٩٩٦ الرئاسية.

باستثناء قادة جمهوريات الاتحاد السوفياتي الذين اصبح معظمهم حكاماً دكتاتوريين على جمهورياتهم بعد استقلالها، فان معظم اعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية السابقين يعيشون الآن على رواتبهم التقاعدية الضئيلة. كذلك هو الحال مع الكوادر الوسطى في الحزب الذين اعرف الكثير منهم. لذا لا يصح القول ان معظم هؤلاء تحولوا الى رأسماليين أو مناصرين للرأسمالية.

أما الذين تحولوا فهم مدراء المشاريع ورؤساء المهندسين في صناعات النفط والغاز والتعدين وبعض الصناعات الاخرى التي انتعشت في ظل النظام الجديد، ومن ابرزهم فكتور چيرنوميردن (رئيس وزراء روسيا السابق) واليكبيروف وآخرون. تمثل هذه الفئة شرائح مختلفة من الطبقة الادارية التي كانت تسيطر في الواقع على الاصول والموجودات الاقتصادية رغم انها لم تكن تملكها قانونياً، الامر الذي ساعدها على الاثراء. لقد كان طموح هذه الفئة يتمثل في امتلاك حصة حاسمة من الاسهم في المصانع والمؤسسات التي تسيطر عليها. هذا ما جعلها تطالب اثناء انعقاد مؤتمر الحزب الشيوعي عام ١٩٨٨ بالغاء وزارات التصنيع على المستوى الاتحادي. وأخيراً، فقد تمكنت هذه الفئة من تحقيق ما كانت تطمح اليه، أي امتلاك الاسهم والهيمنة على حامليها في مشاريعها ومؤسساتها، اصبح ذلك ممكناً بعد خصخصة تلك المشاريع كوحدات مستقلة عن هيئات التنسيق العليا في الوزارات السابقة.

اذن، فالمدراء الحمر السابقون اصبحوا هم الشريحة الجديدة من المدراء الرأسماليين الآن، ثم انضم اليهم اعضاء البيروقراطية الاقتصادية العليا، خصوصاً بعد ان اصبح بالامكان السيطرة على شركات الطاقة ذات المشاريع المتعددة مثل كاز ــ بروم ولوك ــ أويل. أما الفئة الاخرى التي تشكل ايضاً جزءاً مهماً من الطبقة الرأسمالية الجديدة، فهي من خارج الحزب، وكانت تسيطر على «اقتصاد الظل» بما فيه السوق السوداء. تعطي التقديرات لاقتصاد الظل ما نسبته ١٥٪ من الناتج المحلي الاجمالي السوفيتي في اواخر الثمانينيات. أما الآن، فإن تلك النسبة تتروواح بن ٢٥ و٤٠٪، اضافة الى التهرب من دفع الضرائب.

عدا ذلك، فقد كانت هذه الفئة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع البيروقراطية الاقتصادية، بمستوياتها الدنيا والوسطى، مشكلين بذلك حلقات لسلسلة سرية داخل الاقتصاد السوفيتي، وعندما اجيز النشاط الاقتصادي الحر في اواخر حكم غورباتشوف، سارعت هذه الفئة الى استثمار ثروتها المتراكمة إما في البنوك الجديدة أو في استثمارات

المشاريع الخاصة. ومن أغنى أفراد هذه الفئة، الشبه إجرامية، هوكسنسكي، رئيس مجموعة بنك (موست)، الذي مارس الكثير من النشاطات الاقتصادية السريّة عندما كان مدير انشاءات. كذلك هو الحال مع سمولينسكي، رئيس بنك (ستوليچين)، ولوزكوف، رئيس بلدية مدينة موسكو، وهو منافس محتمل لمنصب الرئاسة. اضافة الى الفئات الآنفة الذكر، فقد نبت وتكاثر في اواخر حكم غورباتشوف جيش من اصحاب الاعمال الصغيرة، واصحاب الدكاكين والاكشاك في شوارع موسكو، وعدد كبير من هؤلاء اصبح ينتمي الى الطبقة الرأسمالية الجديدة.

وهكذا ولّدت الاشتراكية السوفيتية طبقة رأسمالية من نخبتها الحاكمة، استكملها وعززها تنامي «الرأسماليين المخفيين» في اقتصاد الظل الذي نما، لفترة طويلة، قبل انهيار النظام الاشتراكي. وقد بحثت ذلك بحثاً مفصلاً في كتابي الجديد.

ثالثاً: صور المؤلفان موقف المثقفين الروس تصويراً غير دقيق بالقول انهم أيدوا التحول نحو الرأسمالية. لا شك ان بعض افراد النخبة المثقفة كان معادياً للنظام، خاصة في موسكو ولينينغراد وحواضر أخرى، وهذا يشمل: كُتّاباً، ومسرحيين، ومخرجين سينمائيين، ومحرري صحف، إلا أن بقية شرائح المثقفين، ذات الملايين المتعددة، كالأطباء، والعلماء، واساتذة الجامعات، والمعلمين، والمهندسين، وغيرهم، كانت معارضة لسياسات يلتسين الرأسمالية. وقد عانت هذه الشرائح من الافقار الشديد بسبب تلك السياسات. والملايين من هؤلاء يصوتون الآن لصالح الحزب الشيوعي الروسي، وقسم منهم يصوت ايضاً لصالح القوميين الروس وزعيمهم چيرونوفسكي.

رابعاً: كان موقف معظم الاقتصاديين الروس معارضاً لاصلاحات گايدار الرأسمالية، وهذا يسري على جميع مدراء معاهد الاقتصاد، ونوابهم، ورؤساء الاقسام في اكاديمية العلوم السوفيتية، واساتذة الجامعات. ويمكن القول، ان أي اقتصادي سوفيتي بارز لم يؤيد هذه السياسة الاقتصادية. فالاقتصاديون السوفييت لم يرددوا الآراء التبسيطية حول الرأسمالية، وكان لديهم ادراك واضح حول الادوار المختلفة للملكية الرأسمالية وغير الرأسمالية، كما كان لديهم رؤى واقعية بخصوص الاقتصاد الاشتراكي واسلوب أدائه.

ملاحظات ثانوية: أولاً ـ استشهد المؤلفان بتقرير (كول بيرغ) الذي صدر عام ١٩٩١، وذلك لدعم الرأي القائل ان غالبية النخبة الحاكمة كانت مؤيدة للتحولات الرأسمالية. وهنا أجد نفسي مضطراً لتكرار القول بأن هذا الحكم غير صحيح. فمعلوم

ان قانون صيف ١٩٩٢ اشترط ان تكون نسبة ٥١٪ من ملكية المنشآت والمصانع من نصيب العمال والموظفين والمستخدمين، ومن دون هذا الشرط، ما كان بامكان كايدار وچوبايس ان يحصلا على موافقة البرلمان على مشاريع الخصخصة. وهذا مايؤكد ان تفكير النخبة السياسية كان لا يزال في اطار المشاريع والمصانع الخاضعة لسيطرة الشغيلة كأساس للاقتصاد.

ثانياً ـ فيما يتعلق باحداث آب ١٩٩١، والتي اعطيت صفة الانقلاب من قبل وسائل الاعلام الغربية المؤيدة لغورباتشوف ويلتسين، فانه لا يوجد دليل يثبت ان ما حصل كان محاولة انقلابية. كما لا يوجد دليل يثبت ان غورباتشوف قد تعرض للحجز في منزله. هناك الكثير من الادلة المادية على انه كان قد اعطى موافقته على تلك الحركة ولكنه خان القائمين بها ثم تخلى عنهم فيما بعد. كما ان يلتسين هو الآخر كان على علم مسبق بتلك الحركة فالجنرال فارينكوف، وهو أحد المشاركين المزعومين في الحركة، أصر على المثول أمام المحكمة، فوجدته بريئاً، وتم اطلاق سراحه. كما تم العفو عن الآخرين دون محاكمة.

ان الانقلابات الحقيقة المضادة للدستور حصلت على يد يلتسين وحده، أولها، تفكيك وحل الاتحاد السوفياتي في ك١ / ١٩٩١ بأسلوب غير شرعي، وبالتواطؤ مع كراڤچوك (رئيس اوكرانيا) وششكفيچ (رئيس روسيا البيضاء)، وثانيها، كان في اكتوبر ١٩٩٣، عندما ارسل الدبابات الى مبنى البرلمان لاعتقال قادته وحله بسبب تركيبته المعادية للرأسمالية. ان الديمقراطية الحقيقية كانت قد دخلت روسيا قبل ان يأتي يلتسين الى الحكم. لقد زرت مبنى البرلمان عدة مرات في تلك الفترة، ولا زلت اذكر الروح الديمقراطية والعفوية التي كانت سائدة فيه. لقد اعترف يلتسين فيما بعد، بأنه ارتكب خطأً فادحاً عندما أبقي في عام ١٩٩١ على أحد معالم النظام السوفياتي، أي: السوفيتات. فالسوفيتات كهيئة منتخبة شعبياً، كانت اعلى من السلطة التنفيذية على كافة المستويات وهي تمثل الديمقراطية الحقيقية حسب تصور لينين، وذلك لأنها ديمقراطية مباشرة، وليست ملتوية كالديمقراطية البرلمانية. ان احتكار الحزب الشيوعي هو الذي شلّ فاعلية السوفيتات. لذلك ما إن زال هذا الاحتكار، حتى اصبحت السوفيتات مؤسسات ديمقراطية حقيقية. بعد انقلاب اكتوبر ١٩٩٣، الغى يلتسين جميع السوفيتات، واستبدلها بنظام غير تمثيلي.

وأخيراً، فان ملاحظاتي الانتقادية لا تعني عدم اعجابي وتقديري لكتاب كوتز ووير، وانما هي مساهمة في تحليل أوضاع روسيا اليوم.

ترجمة واعداد: سامر اسماعيل ابراهيم

قراءة في كتاب:

«العرب والنموذج الأميركي»*

نبيه سليم

يقول مؤلف هذا الكتاب، د.فؤاد زكريا ان المد الاميركي الزاحف، على المستوى السياسي والاقتصادي والعسكري، وعلى المستوى الفردي في عقول الناس ونفوسهم، هو الذي أقنعه بضرورة تحليل النموذج الامريكي تحليلاً موضوعياً، وايضاح أبعاده للإنسان العربي حتى يتخذ موقفه من هذه المسألة الحيوية بوعي وتبصر، دون أن ينجرف في تيار الدعاية أو يغرق في خضم التضليلات.

والقضية التي يطرحها المؤلف في هذا الكتاب هي:

أولاً — ان النموذج الامريكي فريد في نوعه، حدث مرة واحدة ولا يقبل التكرار.

ثانياً — ان هذا النموذج الذي بهر الناس، مليء بالعيوب الذاتية.

ثالثاً — ان هذا النموذج لا يصلح لأي بلد في العالم الثالث، وفي العالم العربي بوجه خاص.

قد نحمل على اميركا عند مساندة اسرائيل بصورة مفضوحة، ولكن في عقول الكثيرين منا إعجاباً بها، مقروناً بالرهبة والانبهار.. ولا سيما بين الفئات الآتية:

١ — هناك اصحاب المصالح المباشرة.. ممن يعتقدون ان ارتباط بلادهم بأميركا يهيء لهم أفضل مناخ لنشاطهم الاقتصادي، وهم آمنون على مصالحهم.

* صدر عام ١٩٩٢ في القاهرة عن مكتبة مصر.

٢ ـــ اشخاص يتسمون بانحراف الوعي الاجتماعي والأخلاقي.. وهولاء ينظرون الى أميركا على انها مرادف للترف، والمتعة الاستهلاكية.. وتتجه وتطلعاتهم الى تحقيق النموذج الاميركي في حياتهم الخاصة. وبعض هؤلاء لديهم ادراك كامل للتميز الصارخ الذي يجلبه الأخذ بالنموذج الامريكي، ومع ذلك فإنهم يتعلقون به اشد التعلق، لأنه، ببساطة، لا يكترثون بمصير الآخرين.

٣ ـــ كثيرون ممن تلقوا العلم في امريكا او قاموا بزيارات لها، ودخلوها، في مقتبل اعمارهم، بغيروعي سياسي واجتماعي متماسك، يجرفهم التيار، ويعودون حاملين اعجاباً غير مشروط بالنموذج الأمريكي.

٤ ـــ الذين يتأثرون بالصورة الإعلامية البراقة للحياة الامريكية من خلال مشاهدة افلامها السينمائية ومسلسلاتها التلفزيونية، واغانيها ورقصاتها وازيائها.. فتترسب في اذهانهم صورة امريكا الضخمة، الفخمة، المترفة، القادرة على كل شيء..!

وهذه الفئة الاخيرة، الخاضعة للتضليل الإعلامي المنهجي المدروس، تؤلف كما يؤكد د.زكريا، الشطر الأكبر من انصار امريكا في بلادنا.

أمريكا ظاهرة فريدة لن تتكرر

الظروف التي لا تقبل التكرار، والتي جعلت من أميركا «الدولة الأعظم» في العصر الحديث، هي:

أولاً ـ امريكا قارة تنتمي الى العالم الجديد.. اي انها ارض بكر لم تستهلك، وهي غنية بالموارد الطبيعية الى حد كبير. هبط عليها فجاة مجموعة من المنتمين الى حضارة بلغت أوج نهوضها وتفاؤلها، حاملين خبرات العالم القديم وتراثه العلمي والفكري وطموح الانسان الحديث الى السيطرة على الطبيعة وتشكيل حياة جدية لنفسه.

ثانياً ـ امريكا كان يسكنها شعب مسالم، أدت به عزلته النائية وعدم اختلاطه بالحضارات الاخرى الى التخلف، وان كان صاحب حضارة مزدهرة في مناطق معينة: المكسيك، اميركا الوسطى واجزاء من امريكا الجنوبية، وخاصة بيرو. وبحكم تفوق اسلحة الموت لدى الغزاة المستعمرين الاوربيين انتصروا على اصحاب الارض الاصليين، ومن المؤكد ان امريكا ظلت دائماً تدرك بوعي تام أهمية التفوق في التسلح، بدليل انها مازالت تفوق سائر بلاد العالم في هذا الميدان الرهيب. وهنا يطرح الدكتور فؤاد زكريا على القراء العرب السؤال التالي: ألم تستنتجوا من هذا الوصف لموقف الأمريكيين

من الهنود الحمر السكان الأصليين لهذه البلاد شيئاً؟ ألا يذكرنا ذلك، الى حد بعيد، بموقف الصهيونية من فلسطين؟ لقد أردت ان اجري هذه المقارنة، كما يوضح الدكتور فؤاد زكريا، حتى لا يشعر القارىء بالدهشة حين يجد أمريكا تؤيد اسرائيل الى هذا الحد الذي يبدو احياناً غير مفهوم. فالى جانب المصالح المشتركة والسياسة الرسمية، هناك شيء في نفس المواطن الامريكي يجعله متعاطفاً مع الحجج الصهيونية إذ يرى فيها تكراراً للحجج التي قامت عليها بلاده، والتي كان يستخدمها أجداده لتبرير إبادة الهنود الحمر.

ثالثاً ـــ نظام الرق الذي انتشر في اميركا على اوسع نطاق حينما كان المستوطنون يبنون مجتمعهم الجديد، وقد أسهم الرق بنصيب هائل في إثراء هذا المجتمع. مؤخراً كشف مسلسل «الجذور» التلفزيوني جانباً من الاساليب البشعة التي عانى منها الرقيق. حيث تم استغلال عمل ملايين العبيد الأشداء، طوال أجيال كثيرة، بلا أي مقابل، مما حقق نهوضاً اقتصادياً سريعاً لأمريكا.

رابعاً ـــ كان موقع امريكا المنعزل، الذي يفصله عن بقية العالم محيطان شاسعان، من اكبر عوامل تقدمها. أي انها لم تتأثر بالحروب المدمرة، بل كانت الحروب بالنسبة إليها مصدراً هائلاً للربح، وقوة دافعة ضخمة لاقتصادها، ومزيداً من الارباح لمصانع اسلحتها.

يستخلص المؤلف مما تقدم نتيجة في غاية الأهمية: هي ان أمريكا لا تصلح أصلاً لاتخاذها «نموذجاً»، ذلك لأن من طبيعة الظاهرة الفريدة ان تحدث مرة واحدة، فلا تقبل المحاكاة.

أمريكا من الداخل

الانسان الامريكي نوع فريد من البشر، وهو يتمتع بمنتجات التكنولوجيا الاكثر تطوراً مع شعور حاد بالحرية، هذه هي الصورة كما تبدو على السطح، ولكن هناك الوجه الآخر للصورة. فالثراء الامريكي ليس مطلقاً، ففي اميركا فقراء بأعداد غير قليلة، وفيها عاطلون يشكلون نسبة من القوى العاملة تصل احياناً الى ١٠٪ والسؤال هنا هو لماذا يكون في امريكا فقراء وهي تتمتع بكل هذا الثراء؟ ولماذا يكون هناك عاطلون عن العمل بالملايين؟ وهنا نضع ايدينا على نقطة اساسية من النقاط التي تميز مجتمع الثراء والوفرة هذا: هي اللاإنسانية. فنسبة الجريمة في المجتمع الاميركي أعلى مما في معظم المجتمعات الاخرى، وهي جريمة تكنولوجية تستخدم فيها أحدث الأساليب والمعدات.

اما ظواهر التعصب العنصري، الذي لاتزال آثاره باقية بوضوح وخاصة في الجنوب الاميركي، فأمرها معروف. وكذلك إدمان المخدرات وتفكك الأسرة وانحلالها وانعدام المشاعر الإنسانية الحميمة من سمات هذا النموذج الامريكي الذي ينعتونه بـ «العالم الحر».

في الانتخابات الامريكية من المحال ان يكون اي شخص قادراً على ترشيح نفسه على نحو يعطيه أملاً في النجاح إلا اذا كان منتمياً الى طبقة الأثرياء، لأن النظام يجعل من المستحيل ان ينجح مرشح مالم ينفق على الدعاية الملايين.

واذا كان الشاب «حراً» في اختيار نوع التعليم الذي يريده، فما قيمة هذه الحرية اذا كانت نفقات التعليم باهظة، ونفس الشيء للعلاج.. والأمثلة لا حصرلها، وكلها تدل على أن «الحرية» موجودة قانوناً، ومحترمة شكلاً، ولكن كل شيء يتم تحت السطح وبطريقة «قانونية» أيضاً، بحيث تفرغ هذه الحرية من مضمونها الحقيقي، وتكون اطاراً خارجياً يختلف محتواه الداخلي كل الاختلاف.

النموذج الامريكي يؤكد على ان حافز الربح هو القوة الدافعة الى العمل والابتكار، ويتهم خصومه بانهم لا يعطون الانسان فرصة كافية لكي يربح الى اقصى مدى تسمح به إمكاناته، يكون معنى ذلك ان فلسفة هذا النموذج الامريكي مادية حتى النخاع، وان تشدقه بحماية المعنويات والروحانيات ليس نفاقاً وحسب، بل تناقض صارخ يرفضه أبسط عقل منطقي. فإذا كنت من أنصار هذا الرأي الامريكي، فكيف تدعي انك خصم للمادية او كيف تنصب نفسك حامياً للمعنويات وحارساً لإنسانية الإنسان؟

أمريكا وقضايا السياسة

لقد دخلت امريكا المنطقة العربية بكل ثقلها بدافع الرغبة في السيطرة على موارد مادية حيوية ولا سيما البترول، فبدونه يتوقف نبض الحياة في اقتصاد العالم الغربي، على أن أميركا، في سعيها الى بلوغ هذا الهدف، كانت تحتاج الى وسيلة تختلف عن الوسائل التقليدية التي كانت تلجأ اليها الدول الاستعمارية السابقة. وسرعان ما اهتدت الى تلك الوسيلة بعد الحرب العالمية الثانية متمثلة بالطموح الصهيوني الى انشاء اسرائيل على ارض فلسطين العربية. وسرعان ما تبنت قضية الصهيونية، وساعدت بكل قوة على اقامة الدولة الاسرائيلية وعلى استمرار وجودها وتوسعها، متخذة أهم أداة لتحقيق هدفها في السيطرة على المنطقة، وعلى مواردها.

ان بين العرب واميركا ثلاث قضايا رئيسية، هي: الاختيار الايديولوجي، والبترول، واسرائيل. ويتناول د.زكريا هذه القضايا بمزيد من التفصيل، مبيناً بأن الاهداف الرئيسية التي تسعى اليها امريكا في سياستها البترولية إزاء العرب، هي الربح واستمرار تدفق البترول، وان لا يصبح البترول العربي أداة مضادة للمصالح الامريكية. مثال ذلك ان البترول لا ينبغي ان يؤدي الى ان يصبح العرب قوة اقتصادية تعتمد على نفسها وتنمو بصورة مستقلة عن اطماع الدول الكبرى، وجعل البترول مصدر نفع للغرب بوجه عام، وأمريكا بوجه خاص، بدلاً من ان ينتفع به اصحابه الاصليون بأحداث نهضة حقيقية في بلدانهم العربية. ولهذا فان السياسات المطبقة تهدف في النهاية الى ان تضمن دوران بلدان المنطقة في حلقة النفوذ الامريكي. فاذا شاءت شعوب المنطقة ان تتحرر حقيقة من هذا النفوذ وان تسير في طريقها المستقل، فلا بد كما يؤكد د.زكريا ان يكون البترول أحد المفاتيح الرئيسية التي تستخدمها من أجل الخروج من سجن التبعية والانقياد.

في علاقة العرب بامريكا، من خلال قضية البترول، تستغل قوتها من أجل فرض شروطها الجائرة. وتهدد باحتلال منابع البترول العربي، لكي تحافظ على العلاقة غير المتكافئة في التعامل بهذه السلعة الحيوية، مما يضفي ظلالاً قاتمة على النموذج الامريكي!.

قضية اسرائيل

لا بد لكل من يبهره النموذج الامريكي، ويحلم بمحاكاته عندنا ان يواجه مشكلة اساسية، هي التوفيق بين إعجابه المفرط بأمريكا، وبين ما يعرفه عن الارتباط الوثيق بين امريكا واسرائيل. وقد اثبتت الاحداث بانه ارتباط عضوي لا ينفصم، وأننا لا يمكن ان نكون جادين لو حاولنا ان نحتفظ بصداقتنا لامريكا، وان نقف في الوقت نفسه موقفاً حازماً في وجه النزعة التوسعية الإسرائيلية.

فمن يختار البديل الاول ينتهي به الامر الى موقف متهاون في قضية اسرائيل المعتدية. ومن يأخذ البديل الثاني مأخذ الجد، لا بد ان يصطدم بشكل او بآخر، بالمصالح الامريكية. والسياسة الامريكية تدفع العرب الى الدخول باختيارهم في معسكر امريكي واحد، الى جانب اسرائيل. التكتيك إذن هو الذي طرأ عليه التغيير، أما الاستراتيجية العامة فتظل على حالها: حماية المصالح الامريكية عن طريق ركيزة اساسية هي اسرائيل، وكل من يقبل التعاون معها لتحقيق هذا الهدف.

ان المنطق السليم وحده يكفي لإقناعنا بأن استيراد السلاح من أمريكا من أجل محاربة اسرائيل عملية مناقضة لذاتها. فقد يكون في إمكاننا ان نستعين بأمريكا في أمور اخرى، ولكن ليس في صراعنا مع اسرائيل. ذلك لأن من يستنجد بأمريكا لكي تعينه على الوقوف في وجه اسرائيل هو كالمستجير من الرمضاء بالنار، كما جاء في المثل العربي البليغ.

قضية الأيديولوجيا والتنمية

الايديولوجيا، كما تُستخدم هنا، يوضحها د.زكريا، بأنها لا تعني اكثر من مجموعة الأفكار الاساسية التي تشكل نظرة المجتمع الى نفسه والى العالم، او الموقف الاساسي الذي يعبر به المجتمع عن اتجاهاته في الحاضر وأمانيه في المستقبل. ومن الطبيعي، في هذه الحالة، ان يكون هناك ارتباط وثيق بين الايديولوجيا - بهذا المعنى - وبين قضية التنمية. فالتنمية ليست مجرد «نمو» كما قد يوحي أصل اللفظ ذاته، وإنما هي مسيرة شاملة تسترشد في سعيها الى التقدم بأفكار رئيسية توجهها، ومن واجب من يتصدى الى التنمية مجتمعة ان يجيب على اسئلة اساسية مثل: لمصلحة من تتم التنمية؟ وهل تكون التنمية اقتصادية فحسب، أم تشمل المجال الاجتماعي والثقافي ايضاً؟ وما نوع المجتمع الذي نريد ان نحققه عن طريق هذه التنمية؟ ولو أمعن المرء التفكير في هذه الأسئلة، لوجدها كلها أسئلة ايديولوجية، أي أسئلة تتعلق بمجموعة الأفكار التي يرسم بها المجتمع طريقه في الحياة.

ومن هنا كانت التنمية التي تقوم على اساس رأسمالي، مثلاً، مختلفة كل الاختلاف عن تلك التي تهدف الى إقامة مجتمع اشتراكي، لأن الاختيار الايديولوجي الذي ترتكز عليه التنمية مختلف في الحالتين.

فالنموذج الامريكي مطروح اليوم، بقوة وإلحاح، على العالم العربي، بوصفه نموذجاً أمثل للتنمية. فأنصار هذا النموذج يؤمنون بالأيديولوجيا الأمريكية، ويعتقدون ان الأسس التي ترتكز عليها تصلح للمجتمعات العربية، بل انها هي التي تحمل في طياتها إمكانات حل المشكلات المزمنة التي تعاني منها مجتمعاتنا.

وعلى الرغم من كل الروابط المتينة، سياسياً واقتصادياً وتعليمياً وثقافياً.. الخ، بين الدول العربية البترولية وبين امريكا، فإن هذه الأخيرة لم تسهم في وضع برنامج يساعد الدول الغنية على الانتفاع من اموالها في ارساء دعائم اقتصاد داخلي متين، معتمد على

ذاته، قادر على مواجهة الظروف التي ستجد عندما تنضب موارد البترول. لماذا لا تساعد أمريكا الدول العربية البترولية الغنية على وضع برنامج للتنمية توظف فيه معظم فوائضها المالية في الداخل، بدلاً من ان تودعها في بنوك غربية وامريكية خدمة اقتصاد هو أصلاً قوي معتمد على ذاته؟ والحقيقة الثانية هي ان امريكا تسرع في استنزاف الثروة البترولية العربية، دون مراعاة لحاجات البلاد المنتجة وحقوق الأجيال القادمة.

والحقيقة الثالثة في هذا المجال، هي أن الدول الغربية الصناعية وعلى رأسها أمريكا، تحرص على ان تنشر في الدول العربية الغنية عادات استهلاكية متطرفة (بما فيها استهلاك السلاح) تحقق لها عدة أهداف، ولكنها تعود بالضرر الوخيم على أصحابها.

يستنتج د. زكريا ان نمط الحياة الاستهلاكية، الذي يفتح الأبواب على مصراعيها لمنتجات البلاد الصناعية المتقدمة، لا يصلح حتى للبلاد العربية الغنية، ناهيك عن الفقيرة. فحين تتخذ البلاد الفقيرة من النمط الأمريكي نموذجاً، وحين تحاول ان تقلد أسلوب الحياة الأمريكي، متصورة ان هذا الاسلوب سينجح عندها كما نجح في بلده الأصلي، فإنها تسقط في هوة سحيقة، ذلك لأن البلد الفقير أقل قدرة، بطبيعة الحال، على استيعاب وسائل الترف الاستهلاكي. والنتيجة الطبيعية هي تشجيع فئة محدودة جداً على الاستثمار السريع الربح في تجارة السلع الاستهلاكية واستيرادها، وفئة اخرى أكبر قليلاً من السابقة، على اقتناء هذه السلع. اما القاعدة الشعبية الواسعة فسوف تنظر بحسرة الى القلة المحظوظة، وسوف تجد أمامها نماذج صارخة للاستهلاك السفيه من جهة، ولأن أعباء المعيشة ستزداد ثقلاً عليها من جهة اخرى، نتيجة الارتفاع المستمر في الأسعار الذي تحدثه تصرفات تلك القلة المحظوظة. ومن المستحيل معالجة موقف كهذا عن طريق التبشير بفلسفة «مجتمع الأسرة الواحدة» بين افراد المجتمع الفقير. واذن فالنموذج الامريكي لا يلاءم أي مجتمع فقير محدود الموارد.

ويختم د. زكريا كتابه الصغير في حجمه (٨٧ صفحة) الكبير في دلالته، بأن أميركا، بحكم تكوينها ومصالحها، لا تستطيع إلا أن تكون كذلك. أما نحن فمازالت أمامنا فرصة للاختيار. وليس هناك على الاطلاق ما يرغمنا على ان نختار طريقاً ينفع بلادنا سواء الغنية أم الفقيرة، ولن يوجه من ينقاد له إلا إلى طريق الهاوية.


أدب وفن

وداعاً زينبُ..

وداعاً أيتها الأمُّ المسرح!

من دورها في فيلم (سعيد أفندي) حتى «سرطان» المنفى، مسيرٌ طويلٌ وخاطف! وقبله الكثير الذي تعرفه (زينب).. القليل الذي نعرفه!

«دكِلْبَخْ عزّوزي.. دكِلْبَخْ.. كَعَدْ كَبل إخْوتَه!»

هذَه العبارة التي قالَتها المَمثلة الرائدة زينب (فخرية عبد الكريم) في ذلك الفيلم تخاطب صغيرها (في الفيلم).. عزيز الذي أطلَّ عليها من «سطح العالي» في ذلك الصيف العراقي، مُمْسكاً بالمحجَّر، وهي في صباح الحوش البغداديّ.. تلك العبارة ظلَّتْ تلخِّصُ (زينب) عندي، وتستخلصها، طيلة الزمان الذي جَرْجَرَنا وجَرْجَرْناهُ، من خمسينيات هذا القرن العشرين، حتى أواخره.. من السذاجة الوطنية الأولى، حتى فداحة المنفى المديدة.. حتى «السرطان» الذي قطفها ناضجة بالعذاب!

ظلَّت تقول وتقول على خشبة المسرح.. خشبة الزمان، ثم خشبة المنفى.. فهل ثمة خشبةُ إنقاذ؟! فلم يكن شيء سوى السرطان الذي أخذها إليه، بعيداً عن عذاب السذاجة الوطنية الأولى وفداحة المنفى المديدة.

هي الأمُّ في (سعيد افندي).. وهي (أم شاكر).. هي سليمة (خاتون) الخبّازة في (النخلة والجيران)، والأرملة المعشوقة في (الحارس).. الأمُّ الصارمة في (بيت برناردا ألبا)، والأمُّ المكافحة في مسرحية بريشت، وغيرذلك كثير كثير.. في المسرح والتلفزيون، ثم الكثير الكثير في المنفى المديد، ثم الكثير المركّز في «السرطان» الذي آواها بعد عَجْز الوطن وعَجْز المنفى.

وليس لي — أخيراً — إلاّ أن أقول:

دكِلْبَخْ زينبْ.. دكِلْبَخْ!

مهدي محمد علي

* دكلبخ تعني (برافو).

على هامش مئوية بريشت:

الفنان الدكتور عوني كرومي:

لم يكن في سمائنا نجومٌ كثيرة
حينما أشرقت في حياتنا أفكار بريشت!

حوار أجراه خالد سليمان

لا بد للمسرح من أن يختلف عن كل الحقول الأخرى بإنشاء نظم لا مألوفة للتحاور والتلاقح، وهذا لا يتم إلا بتوسيع فضاء المخيلة... هذا ما يبحث عنه المخرج العراقي «د. عوني كرومي» في تجاربه وورشاته المسرحية، وهو ينتقل من أكاديمية الفنون الجميلة وفرقة المسرح الشعبي في بغداد، الى جامعة اليرموك في عمان، الى ورشة عمل أخرى في البحرين، ثم الى ورشات عمل في ألمانيا، وأوسلو، وأخيراً الى سورية، والخوض في تجربة جديدة مع طلاب (المعهد العالي للفنون المسرحية) في دمشق، وهي مسرحية (عرس البرجوازي الصغير) لبرتولد بريشت.
حول هذه المسيرة أجرينا معه هذا الحوار:*

إن دور المسرح هو استفزاز المتفرج كما يقول «بيتر بروك»... والتأثير في المشاهد قد لا يكون وحده وإنما بإتاحة الفرصة أمامه ليستمتع بكل الصور التعبيرية وليختار ما يشحذ الخيال. ما رأيك بهذا الدور للمسرح الذي يحمل معاني ودلالات كثيرة؟

أنا أعتقد أن المسرح هو مكان لتبادل المعرفة والخبرة وجوهر ما يحمله المسرح من

*أجري هذا الحوار خلال التدريبات على مسرحية (العرس) في دمشق.

المعنى هو أنه يحاول أن يقدم ويجسد الظاهرة الاجتماعية وتكون هذه الظاهرة، على الأكثر، تلك التي لا تجمع الواقع، التي تحاول أن تدين أو تعرّي العلاقات الاجتماعية، وتخلق حواراً مع المشاهد في أن يرى ويتحسس ويدرك هذه الظاهرة. المسرح هو إعادة خبرة المشاهد بشكل فني جمالي وأدوات فنية يعجز المشاهد عن القيام بها، فيتمتع بها بواسطة المؤدي القادر على إنجازها، لأن المشاهد يعيش الخوف والموت والألم بدون أن يخاطر بحياته الذاتية وأن يقدمها قرباناً لفكره، فالممثل هو الذي يقدم القرابين بواسطة فنه وليس بواسطة فعله الطقسي الحياتي. المسرح يجب أن يمتع، ولكن هذه المتعة يجب أن لا تلغي متعة التهذيب والتعليم، وإذا كان المسرح أخلاقاً في كينونته، فلأنه يرتبط بالإنسان وحياته منذ الطفولة حتى الشيخوخة.

في بعض الفترات تحدث هوة بين الفن المسرحي التهذيبي التعليمي التبشيري وبين الترفيه والمتعة والإسقاط والتنفيس والتطهير، وإن ردم هذه الهوة يرتبط بإدراك وفهم واستيعاب المسرحيين لوظيفة المسرح الجوهرية. وأفهم أن هناك حدوداً تكمن بين فكرة الاستسهال وفكرة التبسيط التي تقود دائماً الى تدنٍّ، وتبعد عن المسرح فكرة الرقي، وإذا أدركنا أن المسرح فن الشعر والشاعرية ندرك كم أن هذه الخصوصية في المسرح تخدم الإنسان ولغة التفاهم والتحاور، لأن العلم والشعر هما الوسيلتان لإلغاء الفروقات الحضارية بين البشر.

وما هو تقييمك للمتلقي بوصفه الضفة الثانية للعرض المسرحي؟

المشاهد في المسرح هو فنان، مبدع، خلاق. فالفنان ينطلق من كونه مشاهداً والمشاهد يشارك في إبداع الفن من خلال ذاكرته وحياته وتجربته فيتفاعل مع المنتج على أنه عبارة عن المحفزات أو المؤشرات أو العلامات تستثير هذه المخيلة أو هذا الواقع المعاشي المخزون لكي تعود التجربة المقدمة وقد امتلكت شفافية ورقّة الحقيقة.

فالمشاهد في المسرح يمثل لكنه يمثله في نموذجه الداخلي فاستثارة المشاهد بالوسائل الفنية المتعددة هي المحاولة لاستثارة التجربة والخبرة في داخله.

قلت لي قبل أيام بأن لديك دراسة جديدة تحمل عنوان «برتولد بريشت، بين دجلة والفرات» عن تجربتك البريشتية في العراق. ماذا تحوي هذه الدراسة؟

هذه الدراسة تحوي معلومات عن تجربتي مع «بريشت» منذ مراحل تعرفي الأولى

على أدب ومسرح برشت في الستينات عندما استثني جماعة المجددين في الستينات، قدمنا ضمن عروض الموسم المسرحي لعام ١٩٦٥ مسرحية (الاستثناء والقاعدة) لبريشت وكانت من إخراج علي رفيق وعملت فيها ممثلاً ومساعداً في الإخراج. لم يكن في سمائنا نجوم كثيرة حينما أشرقت في حياتنا أفكار المسرحي العالمي «برتولد بريشت». كنا شباباً نحلم في تغير العالم... تغير الحياة... بناء قيم جديدة تحترم الإنسان وحقوقه وحياته. عالم خال من استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، حيث العلم والمعرفة للجميع، والثقافة والفن من أجل زيادة المتعة في العيش على كوكب خال من الحروب والدمار. كنا شباباً لم نتجاوز العشرين من العمر، حيث أحبطت أحلامنا بعد أن تغير مسار الثورة الى مسار التفرد والديكتاتورية والدمار... شباب محبط وبعضه منهار مما حصدته الانقلابات العسكرية في الحياة الاجتماعية، حيث أضحت النشاطات الاجتماعية محصورة بل مصادرة وغاب النشاط الديمقراطي...

شبّان يرتحلون من المدن النائية صوب بغداد العاصمة التي مازالت تتنفس شيئاً من تقاليدها الحضارية العريقة... كان الفن هو الوسيلة التي نجابه من خلالها كل مظاهر التخلف والتسلط... حيث كان يمثل لنا المساحة المتبقية من حرية النشاط الاجتماعي والسياسي.

كانت أفكار التجديد تسيطر على نشاطنا المسرحي وكنا نرغب أن نكون شيئاً آخر غير ما هو متعارف عليه ومألوف... كنا نشتاق الى رؤية العالم بعيون غريبة. كنا متمردين ورومانسيين في أحلامنا، كنا نبحث عن كل ما هو جديد وغريب ومترجم.

وهكذا، وجدنا في «بريشت» أولاً تمرداً على شكل المسرح ومساحة العرض، حيث شكّل بحثه في إلغاء وهم الطبيعة أو الواقع ضرورة ملحة في تخلص المسرح من عوامل السحرية والغموض والتحرر من عملية التخدير والاستهلاك التي كنا نعتقد أنها أخطر الأمراض على مسرحنا الناشئ الحديث.

وتحوي هذه الدراسة أيضاً كما قلت لك، معلومات عن تجربتي منذ الستينات والأعمال التي أخرجتها. مثلاً: غاليليه غاليلي والإنسان الطيب وكريولان ورؤى سيمون مشار ودائرة الطباشير القوقازية والقائل نعم والقائل لا.

هناك رأي يقول إن العقلية المسرحية العراقية مازالت تستمرئ «وعي الضد» فيما يتعلق باستغلال النظم الخطابية في مجاورة المتلقي العراقي، حيث أنها تتكئ على

مقارنة مشاعره في جملة الظروف التي يعيش في ظلها. فلم يتمكن المسرحي العراقي من استيعاب البيئة الاجتماعية التي يعيشها المتفرج. ويشير هذا الرأي الى أن المسرح في العراق يتمحور حول خطابين: الخطاب البكائي «المسرح الجاد»، والخطاب التهريجي. ألديك تعقيب على هذا؟

أولاً، المسرح العراقي يعيش منذ نهاية القرن التاسع عشر أزمة الصراع بين مسرح التهذيب والتعليم والتربية وبين مسرح المتعة والتسلية. ازدادت هذه الهوة في فترات مما أدى الى قطيعة بين المسرحيين أنفسهم، مثلما حُجِّم مسرح التهذيب والتعليم لفترات طويلة في أروقة المدرسة، وفقد الكثير من فعاليته السياسية والنقدية الاجتماعية، حيث انحسر حتى نهاية الثلاثينات عندما بدأ المسرح الاجتماعي يطرح نفسه بديلاً لكلا الاتجاهين وبالذات عندما نعلم أن هذه المرحلة كانت نهاية مسرح التهريج والشارع والاحتفالات الذي انحسر نهائياً في منتصف الستينات، لكي يبقى مسرحاً ترفيهياً بمناسبة الأعياد والاحتفالات حيث اعتاد المسرح استئجار السينمات الصيفية والصالات العامة. ومع تأسيس معهد الفنون الجميلة في بغداد ظهرت حركة أكاديمية تسعى لتبني المسرح التقليدي الأوروبي وتعمل على عرض النماذج المسرحية الأوروبية بحجة رقي الفن والأكاديمية في طرح الإعداد والتنفيذ. ولكن خريجي الدورة الأولى لمعهد الفنون الجميلة أعادوا المحاولة لكي يعملوا على ردم الهوة من خلال تأسيس الفرق المسرحية الشعبية التي تعمل بأسلوب أكاديمي وفني بهدف رقي المسرح من جهة ورقي المجتمع من جهة أخرى. ولقد تبنت هذه الفرق تطوير اتجاه مسرح التهذيب والتعليم السياسي الذي نشأ وتطور في بداية القرن واستمر فترة من الزمن قد تتجاوز ربع قرن.

ومع تطوير معهد الفنون الجميلة وأكاديمية الفنون الجميلة في بغداد، ظهر اتجاه ثالث أطلق على أكثر محاولاته روحية التجريب والتجديد.

ومع بداية الثمانينات عاد المسرح الشعبي، مسرح التسلية والترفيه، لكي يأخذ تقاليد الفرق الشعبية ذات المنحى الاجتماعي النقدي، الى جانب تقديم عروضه على مسارح متطورة نسبياً وحديثة البناء، وهذه الفرق ابتعدت عن الجانب السياسي لتحقيق روحية معاصرة وانتهاج سبل متطورة لأشكال المسرح الشعبي عما كان سائداً في منتصف الثلاثينات. في هذه المرحلة طور العديد من الفنانين علاقة بينهم وبين الجمهور تمتاز بالترميز والتأويل ابتعاداً عن مضايقات الرقابة ووصولاً الى المشاهد بأسلوب فني راق، مستفيدين من كل تجارب المسرح السياسي والأكاديمي. وهذا الاتجاه استقطب

الجماهير التي تبنته وسعت إليه، حيث أقام الجمهور مع هذا المسرح حيلة تواطؤ مستمرة، بعيداً عن أعين الرقيب، ولكن هذا النوع من المسرح لفظ أنفاسه في بداية التسعينات ولم تبق من محاولاته إلا محاولات قليلة جداً، لم يستطع الفنانون أن يقاوموا ظروف الحياة مما دفع بالبعض منهم الى الهبوط في صيغة الروح الشعبية التي لا تتجاوز مسرح المتعة والترفيه، والجزء الآخر الذي استمر، سقط في شكلانية مفرطة وفي غموض وعدم وضوح ليسقط أخيراً في روح المودة بعيداً عن فعالية المسرح الاجتماعية، وبعض من هذا الاتجاه اعتقد أن الثورية في الشكل هي تحدٍّ وتمرد على الصيغ الفنية، إن الصراع في مسرح الثمانينات والذي انحسم على الضد والوصول الى وعي المشاهد عبر صيغ دلالية رمزية تخلق متع التفكير، ولكنه في المحصلة لا يبقى إلا على هامش الاحتفالات المسرحية والمهرجانات.

أما عن البكائية وكما يدّعي البعض، فهذا غير صحيح، لأن المأساة تفرز مشاعر صادقة من الحزن للتعبير عن الحالة النفسية والشعورية. إن التهريج في البكاء لا يختلف عن التهريج في الضحك. فلا أعتقد أن هناك مسرحاً يهز مشاعر الجمهور إلا بموضوعته وأزماته التي يقدمها، فإذا ما أدركنا أن مسرحيات الانتظار والحرمان والغربة والاستلاب والعزلة، كل هذه الموضوعات تهز مشاعر الإنسان بالذات، إذا ما قدمت من منطق المعايشة والمشاركة بالحدث، حيث يتحول هم المسرح وهم الإنسان في المسرح الى عرض لمعاناة وأزمات الإنسان المعاصر. أما المسرحيات التي تؤسس بهدف إثارة الحزن والبكائية كغاية، فهي لا تختلف عن مسرح التسلية، لأنها في الحقيقة تغرق في الوهم وتغيب وعي الإنسان، وإن هذا الاتجاه في المسرح العراقي الذي يعتقد البعض أنه يعتمد على إثارة الحزن لا نجد له وجوداً بقدر ما نجد أن للواقع وجوداً. فإذا كان الواقع محزناً ومؤلماً، فلا يمكن لنا أن نمنع من المشاركة فيه كأتم عزاء. أذكر هنا عندما كنا نعرض مسرحية «ترنيمة الكرسي الهزاز» لقد حاول أحد المشاهدين وهو فنان وقريب من المسرح وعضو في «فرقة المسرح الشعبي» أن يشاهد هذه المسرحية الى النهاية فلم يستطع، ليس لأن المسرحية مبكية، بل لأن مأساته بفقدان ابنه وانتظار عودته هي التي كانت تثير بكاءه مثلما كانت المسرحية تثير شجونه وتدفعه الى التذكر، لأن المسرحية كانت تهدف لكي تقول يجب علينا أن لا ننسى. إن المسرحية كانت تقف بالضد من حالة النسيان واعتيادية الإنسان. إلا أن المتعة في إدراك الواقع من خلال العرض كانت هي الأكبر، لأن قدرة المشاهد على التأويل والتفسير والإسقاط، كانت كبيرة ومفعمة بحالات

من الإدراك والوعي. أنا أعتقد أن هنالك نجاحاً في هذه العروض لأنها حققت المعايشة كوسيلة للمشاركة.

هناك مصطلح مسرحي يتسع استخدامه في حياتنا الثقافية والفنية في المنفى وهو «المسرح العراقي في المنفى»... الى أي مدى يصح استخدام هذا المصطلح والمسرح يتأسس على فكرة الآن/ هنا. أقصد أن المسرح يرتبط بالبيئة التي ينشأ فيها، كيف يمكن إعادة تأسيسه خارج العلاقات البيئية الاجتماعية والثقافية الأولى؟

جميع الفعاليات المسرحية التي تقدم باللغة العربية في دول الإقامة هي محاولات... يحاول الفنانون العراقيون من خلالها التعبير عن أنفسهم وتحسس وجودهم الفني وتحمل في داخلها إشراقات وأبعاد وتجربة المسرح العراقي كما أنها تحمل في ذات الوقت رغبة في التصدي والنقد والاحتجاج على الواقع العراقي من خلال إظهار أزمة الغربة ومعاناة المنفى... وهي موجهة بالدرجة الأولى الى الجالية العراقية والعربية، لهذا يحاول الفنانون في الخارج التعبير عن مواقفهم الايديولوجية والسياسية أكثر من محاولتهم للوصول الى معالجة جمالية لأزمة الإنسان المنفي. وهذه على الأكثر محاولات في البلدان الأوروبية والأمريكية. أما المحاولات التي بقيت في محيط المسرح العربي أي في داخل البلدان العربية فقد حاولت أن تتواصل مع حركة المسرح العراقي في الداخل وتعكس اجتهاداته وسماته التجريبية والتجديدية الى جانب تعميق إشكالية الإنسان ووجوده في الخارج.

كما أنها اعتمدت أكثر من منحى لمعالجة الأزمات السياسية والقومية الى جانب تقديم نماذج مسرحية تقدمية تناقش أزمة الإنسان والمجتمع، وأزمة الإنسان والوجود. حيث استمرت هذه النماذج في تقديم وجه المسرح العراقي المتقدم والمتطور فنياً على مستوى الشكل والمضمون، حتى أصبحت لعروض المسرحيين العراقيين في المنطقة العربية، روح تأسيسية كنموذج يحتذى في تبني المسرح كوجه حضاري يخدم تقدم المجتمع.

كما أنها كانت ومازالت تجارب تجريبية تقدم نموذجاً فنياً يمكن أن يسهم في تطوير المسرح العربي، لرصانتها وجديتها وروحيتها الأكاديمية، وعلى الأكثر تجارب تواصل فيها فنانوها العراقيون من خلال ورشات عمل مسرحية أو من خلال التدريس.

أما محاولات الفنانين العراقيين المنفيين والذين يعملون في المسارح المحترفة الأوروبية والأمريكية فهي ضمن تجارب المسارح العالمية التي تسعى الى تبادل الثقافات والحضارات والاتجاهات التجريبية لتقديم أزمات الإنسان من خلال حوار

المعايشة والمصاهرة الثقافية. وما عدا تلك التجارب فلا توجد إلا محاولات قليلة نادرة للمسرحيين العراقيين.

منذ ستين وأنت تعمل مع المسرحيين الشباب ضمن التجريب والتجديد في العراق والبلدان العربية وأوروبا، والآن تنهمك مع طلبة المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق لتقديم مسرحية «عرس البرجوازي الصغير» لبرتولد بريشت، ماذا عن هذه المسيرة؟

ربما أكون أكثر المسرحيين الذين قضوا فترة من عمرهم على كراسي الدراسة الأكاديمية وفي داخل المختبرات، حيث نجد أن أهم ست مسرحيات من حياتي أخرجتها كتطبيقات عملية، وبين فترات الدراسة عملت مع الشباب وعندما أكملت الدراسة الأكاديمية عدت للعمل مع الطلبة وعلى مدى سنوات تجاوزت العشرين عاماً حيث ارتبطت بالشباب لإعدادهم والكشف عن مواهبهم وقابلياتهم. فأنا من جهة سعيد بأنني أقدم مواهب جديدة وممثلين، حيث أنني كنت المخرج الأول في حياة الكثير من الممثلين الموجودين في المسرح العراقي، كما أن روح التجريبية والمختبرية التي تأسست منذ المراحل الأولية دفعتني للاستمرار بالتجريب والدراسة، لكي يكون المسرح الأكاديمي حقل تجارب، ولهذا وجدت في المسرح التجريبي نافذة مستقبلي، كما أن العمل الاستهلاكي الاحترافي لن يستهويني لأنه يفتقر الى الصدق والتضحية والتفاني. وبما أنني أكره الجاهزية والأعمال الاستسهالية، فإنني أجد في نفسي القدرة على تحمل ضعف بعض جوانب العمل المسرحي التي هي ميزة قلة الخبرة عند الممثلين الذين أتعامل معهم وليست بسبب القابليات والمواهب التي أتمتع بتفجيرها وإيصالها.

إنها محاولات صادقة تسهم في تطوير فن المسرح والوعي الاجتماعي الذي أربط نفسي ومعطيات فني به، كما أن الورشات المسرحية التي قمت بها في كثير من البلدان العربية أرى أن ثمارها تجنى يوماً بعد يوم من خلال تطوير الحركة في هذه البلدان. كما أنني أنظر لأعمالي المسرحية على أنها تجربة متواصلة لعزف لحن حياتي من خلال موضوعته على أوتار مختلفة. إن جميع الأعمال التي قدمتها ما هي إلا تنويعات على موضوعة واحدة ومهمة ألا وهي موضوعة الإنسان، لهذا تراني ما أن أنتهي من ورشة مسرحية، حتى أتواصل بأخرى بشروط وظروف مختلفة، ولكنها تخضع للأحاسيس نفسها التي تعنى بتجربة. فمثلاً للعام الماضي وهذا العام، أي ١٩٩٧ / ١٩٩٨، تواصلت

على مدى أكثر من ثمانية أشهر في ورشات عمل مختلفة ابتداءً من ورشة البحرين التي أنجزت ثلاثة إنتاجات مسرحية: «طوابق» تأليف فوزية شويش و«الخيول» تأليف ابراهيم غلوم، وصولاً لمحطة أخيرة لمسرحية «جويرة» تأليف عقيل السوار.

أما ورشة «أوسلو» فكانت محاولة لاستثمار مفردات مسرحية جديدة، والتعامل بالفضاء، واستثمار اللغات المختلفة، حيث نجد النرويجية والانجليزية والعربية تدخل، لكي تكون جزءاً من جدية المفردات التي أجرب عليها.

أما تجربتي الحالية في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق فلها ثلاثة أبعاد:

أولاً: محاولة تقديم نموذج مسرحي واقعي نقدي بأساليب حديثة ووسائل تعبيرية متقدمة.

ثانياً: محاولة الوصول الى أسلوب مع الممثلين الطلبة واجتهاد في العمل على الشخصية والنص.

ثالثاً: نطمح أن تكون هذه المساهمة البريشتية كفيلة بتكريم هذا الفنان الكبير بمناسبة ذكرى ميلاده المئوي. حيث سيرافق هذا النص تجربة قراءة مفاهيم البريشتية في المسرح على مستوى «النص/ الممثل/ المشاهد». حيث أرى في هذه الأقانيم الثلاثة جوهر التجربة وغاياتها، انطلاقاً من مقولة ماذا تفعل أستطيع أن أعرف من أنت، فالعمل المتواصل مع الطلبة والشباب التجريبيين متعة ما بعدها متعة، حيث أنني أتعلم الى جانب أن أعلم ما خبرته الحياة بداخلي. أنا أعرف أننا لا نستطيع أن نحقق الكمال ولكننا نسعى للوصول الى الرقي.

تصويب واعتذار

	الخطأ	الصواب
العدد ٢٨٢:		
ص١١١ (السطر ٦)	خفت	غفت
ص١١٢ (السطر ٣ من الأسفل)	ويطيب بكاس	ويطيب لي كأسٌ
ص١١٣ (السطر ٧)	(جرجرا)	(جربرا)
ص١١٣ (السطر ٧)	صديقة	حديقة
ص١١٣ (السطر ١٢)	بصورة	بعودة
العدد ٢٨٣:		
ص١٠٢ (السطر ١)	خدْرَهُ	خدْنَهُ

مسرحية

أرض الله*

شكر خلخال

الشخصيات: ١ ــ الجندي. ٢ ــ الأسير.

**** ملاحظة:** [هناك فارق جسدي واضح بين الشخصين، فالجندي ضئيل الجسم ضعيف البنية (شخصية دونكيشوتية)، فيما الأسير ضخم وطويل القامة].

**** الخشبة:** أرض رملية، في وسطها آلية عسكرية محطمة، بقايا عظام بشرية وجماجم منتشرة في أماكن مختلفة.

[ظلام.. عيون نارية تلتمع في مختلف الاتجاهات.. نواح نئاب.. اضاءة تدريجية.. يدخل الأسير مربوطاً بحبل طويل، يتبعه الجندي ممسكاً بطرف الحبل وفوهة بندقيته تخط في الأرض، متعبان، يتوقفان. الجندي يتفحص المكان].

الأسير: انك تضلّ الطريق، ولم أعد قادراً على المشي.. يجب ان تجد حلاً سريعاً.

الجندي: .. سنجد الطريق، وسنصل بسلام.

الأسير: ستصل أنت، أما أنا فسأموت جوعاً وعطشاً.

الجندي: قبّحك الله.. أي انسان أنت لا تقدر على تحمّل العطش بضعة أيام؟ [يخرج زمزميته ويعب آخر ما فيها] لا يا صغيري.. لن تموت الا بيديّ هاتين. ثم ان الشحوم التي تختزنها في جسدك، ستكفيك لعدة أيام.. تغذّ عليها يا صغيري، ولا

* ساعد في انجاز هذا النص الكاتب جمال الساعاتي.

تعترض على مشيئة الله.. هيا تحرك.

الأسير: لن أتزحزح من مكاني حتى تطعمني وتسقيني. وقبل هذا عليك ان تحدد وجهتك، فلا يعقل ان تستمر هذه المتاهة حتى الموت.

الجندي: انك تستفزني وتحرضني على استخدام قواي، ولكنني امنحك العذر.. فلست تمتلك ما يكفي من الخبرة لتدرك الذي يعنيه غضب امثالي. هيّا.. الى الأمام سر.

[يجلس الأسير متكئاً على الآلية، ويبدو أنه سيغط في نوم عميق].

الجندي: عليك اللعنة، انك متخاذل، هيا انهض وواجهني ان استطعت.. هيا ايها المهزوم الخاسر، ان اخلاقي ومبادئي لا تسمح لي بقتل انسان نائم. هيا انهض وواجه، لتموت كفارس نبيل.. يا الهي لقد نام.

[يربطه الى الآلية، وينهمك بالبحث فيها فيعثر على علبة طعام، يرقص ويخبئها] ها ها ها.. انه المدد.. وكيف لا؟ ان القدر لا يتخلّى عن المنتصرين [يخرج زمزميته ليشرب] رحماك ايها الرب، ووعداً بالنصر حتى آخر قطرة [الزمزمية فارغة] قطرة.. ماء.. يا الهي لقد نضبت ينابيع الأرض.

[يتفحص المكان وكأنه يبحث عن الطريق.. نواح ذئاب بعيد.. يخاف ويقرفص بجانب الأسير ويخاطبه]:

ماذا تظن هذا المكان.. هل هو مقبرة؟. أظن ان معركة عنيفة دارت هنا.. ألا ترى ذلك معي؟.. انظر [يشير الى بقايا العظام]: يا الهي، كم شهراً، بل كم سنة مرّت عليها.. [يقترب منها] انها مجوفة وخاوية كمعدتك [يحمل عظمة طويلة ويتوجه نحو الأسير]: هذه عظمة فخذ.. بل هي عظمة ساق، نحيفة وطويلة، انها تشبهك [يلوح بالعظمة فتتهشم بيده.. يسمع صوتاً قادماً من بعيد، كأنه ازيز طائرات، يصرخ]: ها قد وصلوا [الصوت يقترب] اخيراً.. لقد نجونا [يركل الأسير فينتفض مذعوراً] لقد وصلوا.. [يلوح ببندقيته. تمر الطائرات محدثة صخباً عالياً، يسقط الجندي ويتمرغ في الأرض]: اللعنة.. لم يتمكنوا من رؤيتي، لابد انهم ذاهبون في مهمة.. عليك ان تهيء نفسك وتكون أكثر نشاطاً.. يجب ان لا نؤخرهم حين يعودون لأخذنا.

الأسير: ومن ادراك انها طائراتكم؟

الجندي: يالغباتك.. الا تميز طائرات المنتصرين؟ ان لها صوتاً اليفاً وهي تقبل بكامل ثقتها و..

الأسير: وتطرحك أرضاً.

الجندي: غبي ووقح.. هل تعرف بمَ أفكر؟ أفكر بأنني سأحصل على اجازة طويلة.. عشرة أيام.. عشرون يوماً، وربما لشهر.. آه، تصور؟ اجازة لمدة شهر.. ماذا يمكن ان افعل خلال شهر من الحرية؟ اعتقد انني استحق مكافأة كهذه. فأن تبقى حياً بعد معركة يُباد فيها الجميع، وتأسر الناجي الوحيد من اعدائك، امر غير عادي، ويستحق ان أكافأ عليه وأكرّم. سأنام كما لم ينم بشر من قبل.. ثلاثة، أربعة، تسعة أيام. سيكون الجميع بانتظاري، أمي وأبي وأخوتي.. أزرع خوخة.. ألعب الدومينو، التهم فخذة مشوية.. أنام آه أنام.. ولكن اسمع.. ربما لن يكتفوا بمنحي اجازة وحسب، بل اعتقد انني أرى نجمة تبزغ على كتفي، وتنوش نجمة السماء، وسأرسلك الى هناك، وستكون شارة نصرنا.. نصرنا المجيد. هل تعرف أنني أحياناً أرثي لحالك، رغم ان امثالك لا يستحقون الشفقة ولا الرحمة، انتم لا تستحقون الرحمة، لأنكم ضعفاء ومهزومون.. لا بد انك قتلت رفيقاً لي.. الم تفعل؟

الأسير: كل الذي اعرفه هو أنني لو قدرت على انتزاع لسانك والتهامه لفعلت، فلست سوى لسان.

الجندي: ها.. لساني دفعة واحدة؟ لساني صانع لغتي؟ لن تقدر. ستخنقك بلاغاتي.. ولكن تمهل.. تكفي اشارة واحدة استهدي بها الى الطريق، وسترى أيّ شأن سيكون لي [يستغرق مع نفسه] الطريق يا الهي، أيُعقل هذا؟ لقد قضيت في هذه البرية أكثر من سبع سنين.. يا للكارثة.. وها أنا اضل الطريق.. اضل حياتي.. يا للعار.. وأنت؟ الا تعرفه؟ الطريق؟

الأسير: اعرفه.

الجندي: حقاً؟ من أين؟

الأسير: اعرف انه لا يمكن ان يمر في مكان كهذا.. كل ما هو مجدب ومميت لا يمر به طريقي.

الجندي: طريقك؟؟ كفى.. تباً لك. ما ان تتحدث حتى اشعر اننا نمعن في متاهتنا. اليس لك علم بمواقع النجوم؟ اين يقع الشمال؟ ها؟ الجنوب؟ الغرب؟ الويل لك.. سأميتك جوعاً وعطشاً [بشكل مفاجيء، صوت طائرات تمرق، فيتقافز الجندي بحركات بهلوانية.. يختفي الصوت]: آه.. يبدو أن المهمة التي خرجوا من أجلها حساسة،

ولا تسمح لهم بالانتظار.. سيعودون لأخذنا، لا شك في ذلك، سيعودون [تعود الطائرات بصخب أشد فيرتعد الجندي ويلتصق بالأسير]: ألم أقل لك؟

الأسير: هل انت خائف؟ [يشير الى جمجمة على الأرض] اتخشى ان تصبح كهذه؟ [ينهض الجندي ويحمل الجمجمة ويتفحص ثقوبها بأصابعه] هذه الرأس كم حملت من أفكار وهواجس واحلام.. ربما كان في هذا الجوف شيء ما يفكر كما تفكر أنت الآن.

الجندي: وهل تعرف بم افكر أنا الآن؟

الأسير: لعلك تفكر في فراشك، الذي لن يقاسمك فيه احد.. أنت الذي لا ينتظره أحد [الجندي ينظر في ثقب الجمجمة].

الجندي: لا أحد.. لا أحد..

الأسير: اما أنا فلي حياة هناك.. بيت وزوجة وأطفال.. لي أبي الذي تركته وحيداً.. ربما كان يحرث أرضه الآن.. لا أدري ما الذي يفعله الآن من دوني..

الجندي: ينام..

الأسير: نامت عليك اللعنة..

الجندي: وأنا لي حياتي أيضاً [يستغرق في حلم] كانت طويلة وفارعة.

الأسير: حياتك؟

الجندي: [مصوباً البندقية نحوالأسير] كلا.. انها فتاتي.. ذراعاها كبندقيتين عتيدتين.. وصدرها صقيل ومنتفض كمدفع..

الأسير: وعيناها قناصتان.

الجندي: نعم نعم.. وقدماها صغيرتان كرصاصتين.

الأسير: وهل تقدر على مضاجعة كدس عتاد؟

الجندي: ماذا تقول ايها الوغد؟ انها اجمل وامتع لديّ من قذيفة تحطّ عليك الآن وتشظيك [يضع يديه على رأسه] الطريق يا الهي.. أظنه من هنا [يومىء الى جهتين مختلفتين] انك خسيس.. عما قريب سينفد الطعام، وتأكد من أنني سألتهمك.. سأمزقك اولاً.. آه.. انني اشمّ رائحتك مشوياً.. اعتقد انك تكفيني اربعة أيام.. أوه.. ما هذا الاسراف؟ عليّ أن اقتصد بك.. فربما لن نهتدي الى الطريق قبل سبعة ايام.. حسنٌ.. ستكون طعامي لسبعة أيام.

الأسير: اكاد اموت جوعاً وعطشاً، وأنت تتلذذ بالتهامي؟ أي كائن بشع أنت؟ تتركني هكذا

نهباً للقلق والخوف والجوع والعطش.. لو كنت مكانك لاثبتّ كرمي ونبلي وشهامتي..

الجندي: ولمن ستثبت كل ذلك؟

الأسير: [متردداً] لـ.. لـ.. لك.. للأرض.. للصحراء.. للانسان..

الجندي: كفى.. كفى.. انت تقول هذا لأنك جائع.. أتريد طعاماً؟ حسنٌ.. وهل تود الحصول عليه دون مقابل؟

الأسير: وما الذي أملكه كمقابل؟ [يرفع ساقه اشارة الى حذائه] عندي هذا..

الجندي: كلا كلا.. وضعه غير مريح.. لعله يجلب الصرع..

الأسير: اسمع.. ان تركتني جائعاً وعطشاً فترة اطول، فانني سازداد نحافة ولن اكفيك طعاماً ليوم واحد.. نعم هذا هو المقابل.. عليك ان تسقيني وتطعمني افضل ما لديك.

الجندي: نعم أصبت.. عليّ أن اتعلّم كيف اسمّنك كعجل فربما اقتنيت واحداً عند عودتي.

الأسير: ايها الضئيل.. لن تعود، ولن تتمكن من اقتناء سحلية جرباء.

الجندي: أنا افكر في أمر آخر.. اشياء كثيرة أخرى. افكر اولاً ان الطعام الذي بحوزتنا، اعني الذي بحوزتي قليل جداً ولست الأولى به بالتأكيد.. اليس كذلك؟.. ثم انني افكر، ماذا لو أنك متّ عطشاً او جوعاً او خوفاً أو [يوجه اليه البندقية] سوى ذلك؟ فما الذي سيحدث؟ الا ترى ان الأمر ليس خطيراً؟ بل ليس ذا أهمية اطلاقاً.. انا وأنت هنا، في مكان له قانون خاص، يسمح لي بتملكك، نعم انت ملكي، أنت بضاعة تخصني وحدي، وليس هناك من يحاسبني على اتلافها.

الأسير: يبدو أنها بندقيتك هذه، أخذت تلهمك افكاراً جديدة. يالهذا المنطق.. كائن لا يبصر أبعد من مدى رائحته النتنة، يتحدث عن القانون. ولكنني احييك، فأنت تدرك ما الذي تعنيه البندقية في موقف كهذا.

الجندي: اذن.. ساقايضك.. اسالك فتجيبني.. فان افلحت افدتني ونلت مرادك.. وان لم تفلح، فلن تصيب شيئاً.. ها؟ ما رأيك؟

الأسير: وكيف سيكون لي رأي ما دمتُ مقيّداً وبندقيتك تتقصاني؟

الجندي: حسن.. انت موافق اذن.. اخبرني ما الذي يعنيه هذا.. [يسأل نفسه] ما هو؟.. ماذا.. ما الذي يعنيه.. ما الذي تعنيه طائرة محلّقة.. في داخلها غرفة.. وداخل الغرفة خزانة.. وداخل الخزانة صندوق.. وداخل الصندوق كيس.. وداخل

الكيس مظروف علبة.. وداخل العلبة.. ماذا؟ .. وداخل العلبة.. لا شيء.. ها ها ها..
نعم.. انها فارغة.. ها؟ ماذا قلت؟ ما الذي يعنيه ذلك؟

الأسير: وكيف لي أن اعرف؟ انك حقاً تنوي قتلي جوعاً.. ولكن.. ربما كان ذلك ما يعنيك انت.. نعم انت.. فقد اقتدتني وقسوت عليّ على أمل ان تحقق حلماً راودك.. ولكنك لن تفلح في النهاية لأنك ضال ولسانك اطول من ذراعك.

الجندي: اللعنة.. اين أنت ايتها الكوليرا؟ ليس هذا هو الجواب ايها القنفذ الصغير.. وليس صحيحاً ما تقول.. لن تحصل على الطعام.. اما انا فسأكون شيئاً آخر، سأكون حرّاً ملكاً، نجوم في السماء ونجوم على كتفي [يحمل بيده عظماً بشرياً طويلاً ويتبختر في مشيته كقائد حربي ويتوجه نحو الآلية. يرتقيها ويقف في هيأة مضحكة، يؤدي تحية عسكرية، ويخطب]:

سيدي.. لقد حُسمت لكم.. انه النصر الذي وهبته لنا حكمتكم.. لقد ابدناهم عن بكرة أبيهم.. حطبنا رؤوسهم وفرينا اكبادهم.. لقد أريناهم بأمّ اعينهم كيف يصول الحق صولته [يلوّح بالعظم] ليكتب صفحات المجد، مجد الآباء والأجداد لم يبق سيدي من الجمعين اللذين التقيا كبحرين هائجين الا انا وشارة النصر هذه [يشير الى الأسير] لقد أحصيت جثثهم، رؤوسهم، اضلاعهم، مراراتهم، وصليت سيدي لأجل شهدائنا [يبكي] انه نصرنا سيدي [الأسير يأخذ بتقليد الجندي ساخراً منه بصوت عال]:

الأسير: ايتها الأملاح المعدنية.. يا باطن الأرض العظيم.. ايتها الأسماك الزعنفية [يقفز الجندي من أعلى الآلية ويمسك بالأسير ويستمر بخطبته].

الجندي: انه نصرنا سيدي الذي قدمنا لأجله قرباننا العظيم.

[يقذف بالأسير فيتدحرج ويلتف الحبل على عنقه. وينهمك الجندي بالضحك والزهو]: بالتأكيد انهم قبل كل شيء سوف يمنحونني اجازة لشهر.. نعم.. وربما أكثر..

الأسير: ايها الأحمق.. لقد اضعنا الطريق الى الأبد.. لقد قتلتني جوعاً وعطشاً، ولن تصل الى شيء.. كلانا لن يصل. لقد التهمتنا هذه المقبرة. هراء كل ما تهذي به. أن كنت حقاً شجاعاً ونبيلاً، فخلّني ودعني امضي في طريقي، فربما ستنجو وحيداً.. أو اقتلني وامض.. لقد انتهى كل شيء، ولم يبق سوانا، فلينج كل منا بنفسه.

الجندي: عم تتحدث يا هذا؟ اتظن نفسك قادراً ان تحبط عزيمتي بكلماتك هذه؟ كلا بُعداً

لك.. بل سحقاً لك.. سأنال كل ما حلمتُ به، وستنال أنت ايضاً ما وعدتك به. سأكون ذا شأن. لقد أمضيتُ سبع سنين في هذه الأنحاء التي لا شأن لها سوى دفن الأحياء.. ومع هذا فقد نجوت، الا ترى كم عجيباً ان تبقى على قيد الحياة وسط اقواس النار؟ ألستُ ذا شأن اذن؟ الا استحق بعد هذا كله ان ازهو وأتباهى، أو أن أتملك بضاعة تالفة مثلك؟ [صمت.. يتنصت الجندي.. صوت حيوان قريب.. يصوب بندقيته ويطلق، رصاصة، اثنتين، ثلاث.. يصيب الحيوان ويبتهج..]: من يترك القطيع يغدو سهل المنال.. [يخرج من المسرح].

الأسير: [عينه الى السماء] ما هذا؟ هل هو لغز؟ لعلّه كذلك.. والا فما معنى ان يفيق الانسان فيجد نفسه في حال كهذه؟ يحيط به الموتى، ويتربص به الخطر.. مقيداً وسط الصحراء.. انها الخرافة بعينها.. ما الذي يحدث لو أن حيواناً هاجمني الآن؟ وانا اعزل، لا أقدر على الدفاع، ولا على الفرار.. ان أسعد ذئب في البرية، لن يسعفه حظّه في العثور على فريسة مثلي.. يا للكارثة.. لعل حيواناً محظوظاً يُقبل عليّ الآن، يستحق ان اقدم له رقبتي على طبق من ذهب [يهتف للجندي] هيه انت أيها الغبي.. كيف اوصلتنا الى هذا المكان؟ هل تتبعت أثر الافاعي؟ أقسم لو أن حماراً اعمى تاه في الصحراء، لما وصل الى هذا المكان في ست سنين.. عليك اللعنة.. لن أموت بين فكي حيوان، ولن يقتلني الجوع.. بل سيميتني غباؤك.. [يدخل الجندي متنكباً سلاحه ويقلد مشية قائد عسكري.. خلفه يتجرجر ذئب ميت. يوسطه المسرح ثم يبدأ بالرقص والدوران.. يلتفت الى الأسير صاكاً اسنانه بشزر]:

الجندي: تجلس كأمير.. لا شأن لك سوى الأكل والراحة.. كطفيلي احرسك واطعمك دون أن تبدر منك كلمة شكر واحدة.. تجلس امامي هكذا بوجهك البائس الذي كلما تفرستُ فيه شعرتُ أننا لن نصل أبداً. انهض ايها الطفيلي.. من الآن، عليك أن تقوم باعداد الطعام.. [يقترب منه بحذر مصوباً بندقيته. يفك وثاقه]: هيا.. سأجلس هنا لا رقب مهارتك في الشواء.. وتأكد انك ان حاولت.. فسأفرقع رأسك [يبدأ الأسير بجمع العظام بيديه وركلاً برجله، يقرب الحيوان من كوم العظام ويبدو وكأنه يمزّقه.. بينما يجلس الجندي على مقربة مصوباً بندقيته اليه].

الجندي: [منشغلاً باللعب.. بالحصى] هل تعرف؟ ان لك وجهاً يشبه السكتة القلبية. احياناً أشعر ان من الأفضل ان اتخلص منك.. لكن بأية طريقة؟ أخلّيك؟.. فكرة بائسة..

أخسر معها كل شيء.. أقتلك؟ ربما كان ذلك هو الأفضل. ولكن لتعرف أنني ابقي عليك حياً رأفة بك.. هل رأيت كم رؤوف أنا وكم رحيم؟

[يترنم بمارش عسكري.. ثم يبتكر لعبة، ويحاول ان يصيب بالاحجار التي معه جمجمة على مبعدة].. حجر الى العين اليسرى.. يطفئها ويحتل موضع البؤبؤ.. [يرمي] حجر الى العين اليمنى يعميها ويحتلّ موضع الدماغ [يرمي] حجر الى الفم، يخترقه وينزلق الى البلعوم ويستقر في الكبد [يرمي] حجر الى الأنف، يلقي به جانباً ويحتل موضع القلب [يلتفت للأسير] كيف سيعيش انسان اعضاؤه كلها من الحجر؟

الاسير: هذا سهل جداً.. سيعيش في غاية السعادة.. لانه لن يتأثر بحماقات الآخرين.. الأغرب من هذا [يلتفت الى الجندي] ان يكون للانسان اعضاء حيّة، ولكنها غبية.. عقل غبي، لسان غبي، نظرات غبية، احلام غبية.. ألعاب غبية..

الجندي: انظر.. لقد واتتني فكرة.. يبدو أن الطائرة ستتأخر قليلاً.. لمَ لا نصلح هذه العربة؟ [يلتفت الأسير نحو العربة ويبتسم مستهجناً الفكرة. ينهض الجندي ويصعد الى العربة متفحصاً متانتها، يركلها فتسقط منها اجزاء كبيرة.. الأسير يضحك بصوت عال].

الجندي: اضحك.. اضحك.. اوصيك بذلك، فربما لن تجد متسعاً آخر للضحك.. اضحك.. لقد جاؤوا. انني احسسهم عن بعد.. اضحك [صوت طائرات بعيد، يقترب. الأسير يقلق، الجندي يضحك، يعلو الصوت، يتقافز الجندي.. يقترب الصوت ويخطفهم ويصيبهم بالرعب، غبار يغطي المشهد.. تنجلي الغبرة.. يظهر الجندي مترنحاً بينما يتأهب الأسير عليه.. يطلق الجندي ويتضح ان بندقيته فارغة. يتواجهان.. ينفجر الأسير بضحك هستيري].

الجندي: أيها الوغد الحقير [يمسك بالبندقية مثل العصا ويهاجم الأسير.. يتصارعان، ويفلح الأسير في طرحه ارضاً ويطبق على رقبته].

الأسير: يا إلهي.. لقد انتصرنا.. انها البشرى.. لقد ابدناهم واعلينا رايتنا.. ربّاه كل هذا الوقت كان هباءً.. يالدورة القدر [يحدثه] كان جدي يقول ان الدهر كالدولاب.. يوم لك ويوم عليك.. وها أنه دوري الآن.. ان شرايين عنقك كلها في قبضتي، ودورتك الدموية ترجو الخلاص دون أمل.. انني اسمعها تستنجد وليس ثمة مجيب.. احلامكم كلها بين اصابعي، وها أنا احيلها كوابيس.. قل لي ما هو

شعورك الآن؟ هل تشعر بالخذلان؟ اننا نربح المعركة.. اننا ننتصر.. آه.. ان عقلي لا يفكر الآن سوى بكلمة واحدة.. النصر.. لمن؟ ولماذا؟ ومن أين؟ وعلام؟ لا أعرف.. المهم انني اسمع عواء قلبك الخاسر، ويا لها من بهجة [يضغط] انا من سيحصل على الاجازة.

[يتقلبان ويتمرغان ويفلح الجندي. يربض فوق صدره ويضغط على عنقه بعظم]

الجندي: آه.. انه دورنا.. أيها الرفاق.. مازالت المعركة دامية، وما زلنا اسيادها.. اننا نطبق عليهم من كل جانب.. اما انت ايها الصغير، فلتعرف أن القدر لا ينقلب الى ضدّه بالميوعة التي تظن.. بل يعطي دروساً للحمقى امثالك.. عليك ان تكابد مشاقّ كثيرة وتتكلف لأجل ذلك العناء.. اتودّ أن تعرف كيف ينقلب القدر الى ضده؟ يحدث هذا حين تكتشف التعسة امك، التي اشك انها سهرت عليك الليالي، بانك في لمح البصر، فارقتها الى الأبد [يضغط.. يتصارعان ويفلح الأسير مرة اخرى ويخنقه]

الأسير: والآن، قبل أن ابعث بك الى نار جهنم، عليك ان تخبرني ما الذي يحدث عندكم الآن.. هل اعلنوا الحداد؟ ها؟ ماذا تقول؟ لم يعلنوه الى الآن؟ عليهم اللعنة. اذاعوا بياناً بالهزيمة؟ ماذا؟ ارفع صوتك انا لا اسمع.. اعلنوا الاستسلام؟ لا لا لا.. انت تبالغ.. لعلك لم تنصت جيداً.. ها؟ ماذا قالوا؟ استقالت الوزارة؟.. انسحاب؟ انقلاب؟ اعرف، اعرف ان الاتصال ضعيف.. ماذا؟ اوووه.. غضبة جماهيرية عارمة.. يكفي اذن.. لنقطع الاتصال [يضغط.. اصوات طائرات.. يترقب الأسير، يقترب الصوت، ينهض ويلوّح للطائرة، ينهض الجندي، يلوحان.. يختفي الصوت]

الجندي: النصر لنا ولكم الويل الثبور [يهجم] هاهاع.. [يطبق عليه ويضحك] ها ها ها.. يا الهي أي حيوان مضحك أنت؟ ها ها ها.. هو هو هو.. آآآه.. أما أنا يا عزيزي فلن ابعث بك الى الجحيم، بل ساختار لك مصيراً آخر.. سألتهمك دفعة واحدة، وستصيبني تخمة عظيمة.. ثم انني حين أشعر بمغص يعتصر بطني، سأقرفص هنا وأبعثك بهيئة سائلة.. ثم اغرز شاهدة ادوّن عليها.. هذا ما تبقى من جيش سيء الحظ.. [يهجم على رقبة الأسير بفمه لينهشها.. اصوات طائرات.. ينهضان يلوحان ويقفزان].

الجندي: عليكم اللعنة.. ألم تنته مهماتكم؟

الأسير: عليكم اللعنة.. ألم تبيدوهم الى الآن؟

[يختفي الصوت. يتواجهان]

الجندي: توقف ايها الأحمق.. انك تلقي بنفسك في مهلكة عظيمة فأنت لا تخيل المصير الذي ستلقاه اذا ما تمردت أكثر أيها الأسير.. كن طائعاً فان غضبي لصاعق.!

الأسير: بل ان غشاوة السوء والبلادة قد سترت عينيك ولم تدرك ان احلامك كلها انهارت دفعة واحدة.. في لحظة واحدة.. وقد عدت كما كنت، كما أنت.. ضئيلاً، وضيعاً، صعلوكاً، ضعيفاً.. أنا وأنت الآن كفؤان [يتدارك] بل انني انا الأقوى لأن دماً جديداً يجري في عروقي.. دم الحياة.. وسترى الآن كيف اتقدم اليك والوي ذراعيك البائستين، واوثقك الى هذا الحطام ككرة لحم نتنة.. أنت الآن اسيري.. وأنا من سيحظى بلقاء أمه وأبيه، ويقاسم امرأة فراشها.

الجندي: او تتجرأ على هذا كله ايها المهزوم؟ أو تظن انك ببضع كلمات بلهاء قادر ان تقلب موازين القوة؟.. نعم، الم تسمع بذلك من قبل؟ القوة.. انها معركة ايها الصغير، وقد حسمت قبلاً.. ملحمة دامية، فيها المنتصر وفيها المهزوم.. انها، مصائر شعوب.. اتعرف ما الذي يقال عنها الآن عندكم؟ عندنا؟ في كل مكان؟.

الأسير: اعرف ما الذي يقولونه.. يقولون ان البشر ماتوا وان الحديد انصهر.. ولكن أحداً منهم لن يدرك الحقيقة، لاننا نحن الاثنين دون سوانا، من يعرفها، ولأن احدنا فقط، دون العالم كله، سيرويها.. فهل تعتقد انك قادر على فعل ذلك؟ أنت الذي لا هيأة له ولا قوة؟ انت الأسير الآن ونحن المنتصرون.

الجندي: فلتؤجل بلاغتك هذه لتدونها على جدران الزنزانة. سيكون لك متسع من الوقت هناك.. وثمة متسع من الوقت لتبكيك امك كما لم تبك امرأة من قبل.

الأسير: بل أنت من لا أهل له يندبون ميتته.

الجندي: عد يا أسيري الى رشدك وارض بمصيرك ولا تحاول على ما لا طاقة لك به.

الأسير: أيّ مصير وأية طاقة؟ اما المصير فسأجعلك تلقاه كالحاً وموحلاً.. اما الطاقة فساختزنها لفراشي حين اعود [يهجم].

الجندي: كفاك تمرداً ايها الأسير.

الأسير: كفاك بلادة ايها الأسير.

[يتواجهان، ويبدو أنهما ينويان الانقضاض احدهما على الآخر، يلتفت كل منهما الى الجهة المعاكسة ويهربان كل في اتجاه خارج المسرح.. صوت طائرات،

أقواس نار، غبار كثيف يغطي المسرح.. ينجلي الغبار، يظهر الجندي من خلف الآلية متعباً وبهيأة شعثاء وكأن شهوراً مرت عليه.. يتفحص المكان وكأنه يتذكره، يتوجه الى العربة، يفتح غطاء المحرك، يحاول اكتشاف عطبها، يحاول تشغيلها فيفشل، يغادرها ويتوجه إلى كوم عظام.. يتفحصه].

الجندي: يا الهي.. أي عطش هذا؟ انه الجفاف، لساني يتورم.. لقد انهكتني هذه البرية، اتيه فيها كحيوان ضال.. تعساً لي، أي مخلوق أنا وقد قدّر لي ان تبتلعني الرمال كحشرة بائسة.. ربّاه، اشعر وكأنني عمّرت الف عام.. ولكن لا.. أنا اعيش الآن في الموقف الصعب.. اقف في قعر الحياة، او على هاويتها.. هذا هو الموقف الذي تحدثت عنه الأساطير.. رحماك ايتها الاسطورة، ورأفة بفارسك النبيل [يصرخ منادياً الأسير] اين انت ايها الجبان؟ لماذا لا تظهر؟ هل حلّت عليك اللعنة؟ [يعود محدثاً نفسه] لم تعد لاعضائي قوة على تحملي.. أحس انها ستفارقني عضواً عضواً.. ساقاي، ذراعاي، عيناي، آه.. يغلب على ظني انني لن انجو من هذه المتاهة.. ان الماً حاداً ينهش جوفي.. لكم انا جائع اذن؟ [يتأمل]: حين كنت طفلاً، ارّقني لسنوات كابوس مخيف.. كان يباغتني ما إن يراودني النوم.. كنت أرى كتلة نار عظيمة تقبل من البعيد، من الأفق، سريعة كشهاب، تجرف معها كل شيء، تكبر وتكبر، .. ملتهبة تقبل على نافذتي والشرر يتطاير منها كحمم البركان.. كنت اصارع نفسي لأصرخ، ولكنني لا أقدر.. اصرخ.. آ...ه ثم استيقظ مذعوراً، مختنقاً والدمع يغرق عيني. احياناً كنت ارى بدل كتلة النار، صخرة عملاقة، تقبل بذات السرعة وتطحن في طريقها كل شيء، البيوت والبشر والعربات والأشجار.. آه.. ما زلت ارى النوافذ تتطاير مثيرة غباراً كثيفاً.. وثمة صراخ مكتوم.

واحياناً.. كنت اراها كرة ثلج.. واذكر انني رأيتها ذات مرة عربة جبارة بخمسين عجلة ضخمة او يزيد.. سوداء، حمراء، تسير كصاعقة تنحدر من السماء.. عجلاتها تدور بسرعة مخيفة وتمزق الهواء، تشظّيه، وكأنها تمخر نهراً هائجاً.. ربّاه.. كنت ارغب بالصراخ.. اريد ان اصرخ [يصرخ منادياً الأسير] أين تختبئ ايها الشرير القذر؟ لن تقدر على الفرار، ستموت، وستقرض السحالي اذنيك وتنهش الجراء خاصرتك [يتألم].. آه.. لم أذق الطعام منذ أيام.. معدتي تطحن نفسها، رحماك يا جدار المعدة [يعود لحديثه] اوه.. وهكذا.. كل مرة دون أن

أتمكن من الصراخ.. اشعر الآن وكأن الصراخ كله، صراخ سنوات طويلة من الخوف مازال مكتوماً داخلي.. يا إلهي.. انه يؤملني.. اية صوخة اطلقها الآن لو قدّر لي ذلك؟ [يتجه الى العربة يتفحصها بيأس، يخاطبها] انت عاجزة اكثر مني.. لا طاقة لك حتى بالوقوف.. من الذي فعل بك هذا؟ انا لا أتصور انك كنت قادرة على حمل اربع أو خمس رجال وتحرثين بهم الأرض.. كنت أيّام صباك عنيدة، لا أشك في ذلك. هل لك أصدقاء؟ ياه.. ما الذي يجري؟. لمَ كل هذا؟ ايعقل ان يجد الانسان نفسه يوماً هكذا دون طاقة على فعل اي شيء؟ انه لشيء مخيف حقاً ان تنتظر ميتتك وتعد دقائقها.. ماذا لو فعلتها كتلة الحديد هذه؟ ما الذي يلزمها لتتحرك وتنقذني؟.. يلزمها آذان لتسمعني، عين لتراني، ربّاه.. يلزمها عقل، مخ لتدرك ما أنا عليه، لتدرك ان فارساً يستنجد بها مشرفاً على الموت.. انسان بكامل تاريخه.. بل يلزمها ان تكون انساناً [يكتشف امراً مهما] لقد فعلتها، لقد بدأت.. كنت أدرك انها الوحيدة القادرة على ان تقدم لي عوناً في هذا البلاء العظيم، [يتوجه نحو مقدمتها، يرفع جزءاً وينتزع خرطوماً، يدخله في الـ «راديتر» ويشرب] ماء.. يا للذهول.. لقد أعطتني ماء.. هذه بداية موفقة. والآن، اذا ما داهمني حيوان او عدو، فان لي هذا [ينتزع من العربة قضيباً متيناً ويلوّح به كسيف] نعم، نعم.. ثم انني ان اردت ان انام، فان لي هذا [ينتزع مقاعد مخترقة ويرتبها على الأرض كفراش] حتى انني اذا ما اردت ان اتكئ، فإن لي هذا [يضرب على بدن الآلية فتسقط منها اجزاء] نعم نعم.. فالحطام يمدنا بوسائلنا، يمدنا بكل شيء [يظهر الأسير بلحية وهيأة رثة، دون أن يراه الجندي، حاملاً بيده صيداً، أرنباً وهو يتسمع لحديث الجندي]: نعم نعم.. وهل يقدر على امدادنا بالطعام؟ ياله من تصور مدهش. ماذا لو جرّبت؟ فأنا أؤمن بالمعجزات [يتحرك وكأنه ساحر. الاسير يلقي بالصيد في الآلية ويختفي. الجندي يمد يده، يمسك باذني الأرنب ويسحبه الى اعلى دون أي اندهاش.. يتحرك كساحر يحيي الجمهور. مؤثر صوتي تصفيق وصفير جمهور.. يظهر الأسير ويصفق. يتوقف المؤثر، ويستمر الأسير بالتصفيق.. الجندي وهو منحن ينظر الى الأرنب مندهشاً، ثم الى الجانبين فيكتشف الأسير، وتثور ثائرته].

الجندي: أهذا أنت يا سوء الطالع؟ [يطارده بانهاك والأسير يضحك].

الأسير: اقسم انني لم أنو أن اسخر منك، بل اردت ان افاجئك.

الجندي: فاجأتك السحايا وذات الرئة. أيها الخسيس، ساصطادك الآن، واسحقك كبعوضة.. فان لم يفلح هذا التيه بتأديبك فسأؤدبك بسلاحي العتيد هذا [يلوح بالقضيب، يتعبان يجلسان].

الجندي: أيعقل ان هذه الصحراء القاتلة، اغفلتك ولم ترسل اليك واحداً من حيواناتها الشرهة فيولمك لجرائه؟

الأسير: لقد خشيت ان يصيبك الذي أصابني.

الجندي: وما الذي اصابك؟ هل نزلت عليك الصاعقة أم حاصرتك العواصف وتربّصت بك الضواري وارسلت عليك السماء مداميكاً ثقالاً و..

الأسير: توقف توقف.. ما كل هذا؟ أشك في انك تتمنى لي عاقبة مروّعة كهذه [يتقدم نحوه] آه.. الآن انا لا أعرف ان كنت حياً او ميتاً.. صدقني.. أتعرف؟ ليس ثمة ما هو أشدّ رعباً من أن تتيه في أرض الله [بهدوء يستل القضيب من يد الجندي ويشهره بوجهه بعنف]: ها.. لقد اسرتك ايها البائس الضال.. [الجندي مازال على استرخائه، ينظر اليه بيأس ويعرف أن هذه مزحة ثقيلة.. يزيح القضيب بيده ثم ينتفض ويركض متعثراً نحو الآلية.. يصعد ويمسك بالمقود ، ويأخذ بتقليد صوت المحرك بفمه].

الجندي: ف ف ف ف فرررررر لقد نجحت نجحت.. نجحت ف ف ف فررررررر [يتمايل كسائق مغامر] الحق بي، لقد نجونا.. ف ف ف ف.. تمسك جيداً، اننا نطير.. لم يبق الا القليل، اننا ننجو.. ها.. ها... ها... اسرّع.. اسرّع اسرّع.. هاها.. تمسّك اكثر.. سنصل المدينة [يبكي] انها المدينة.. يا الهي.. نجونا.. امّاه.. لقد وصلت.. أبي.. يا أبي [يسرع الأسير لينزله. الجندي يقاوم ويصرخ] لقد وصلت اشعلوا الأنوار.. انا قادم.. [الأسير يجرجر الجندي ويلقي به متصلباً كتمثال]

الأسير: اهدأ أيها المجنون.. ستقتل نفسك.. [صمت]

الجندي: في أي أرض نحن؟

الأسير: اينما حللت فهي ارض الله. افراحها ومسراتها، بخوفها وطمأنينتها.. نحن يا صديقي كائنان ضالان، ولكننا في رعاية الله ما دمنا على ارضه. [الجندي يتألم مكانه، والأسير يدخل في حلم].

الأسير: أبي الآن ينتظر المطر.. ينتظر موسمه الجديد، وينتظرني ايضاً.. الآباء هم دوماً كذلك.. ينتظرون وينتظرون، لا يعرفون من الحياة غير الانتظار.. اما الابناء

فشأنهم آخر.. طفلاي الآن يلعبان ويمسك احدهما برقبة الآخر وكأنه ينوي قتله: [يمثل عراك اطفاله وهي تشبه حركاته حين يتصارع مع الجندي].

ـ سأقتلك أيها الوغد..

ـ لن تقدر على ذلك، أنا الأقوى.. انا وحش البراري.

ـ فلنر أذن من الذي سيحرم الآخر لحمة الغداء.

ـ اقسم انك ان فعلت، فسأقطّع ثيابك واحشوا بها ثقوب النافذة [الجندي يزداد تأوهاً ويتحدث بصعوبة]

الجندي: انت ايها المجنون.. او ما ترى اليّ؟ ما الذي تفعله؟

الأسير: [مغتبطاً بدور اطفاله] لا أحد يقدر على فك نزاعنا الا قبضة أمي وركلاتها.

الجندي: كف عن هذا ايها المجنون.. انني أموت.

الأسير: لا تخف لن تموت، فامثالك لا تتخلى عنهم الحياة بسهولة.

الجندي: ايها الأخرق.. انني أموت..

الأسير: هل جُننت؟ ما الذي دهاك؟ الا يكون لي شأن سواك؟ أنك تقلقني يا هذا.. ألا تعرف الهجوع لحظة واحدة؟ أتراني سُخِّرت هنا لمتابعة حماقاتك؟ اخرس.. نم.. أو مت كما تشاء، وحررني من بؤسك هذا.

الجندي: معك الحق كله.. اعرف انني استحق هذا الجزاء، استحق لأنني تماهلت كثيراً في قتلك.. الويل لي ولتحل عليّ اللعنة لأنني لم أجرّعك مرّ العذاب [يتألم.. يقترب الأسير ويتفحصه]

الاسير: احقاً ما تقول؟ ما الذي تعني؟

الجندي: وما الذي سأعنيه اكثر مما ترى؟.. آه.. ان جوفي يتمزّق وصدري تخنقه غصة قاتلة.

الاسير: كلا كلا.. ربما يحدث لك هذا لأنك جائع.. لاعليك.. ساعدّ لك هذه الدابة الجميلة، وستكون على خير ما يرام.

الجندي: اجلس.. لم يعد الأمر مجدياً.. اريد أن استلقي بهدوء.. كلا.. اريد أن اصرخ.. اشعر وكأن شيئاً في داخلي يغلي، يثور، يتحرر..

الأسير: هل أنت محموم؟

الجندي: انظر [مشيراً الى الأفق] ما الذي ترى هناك؟

الأسير: لا شيء.

الجندي: عما قريب ستتكون هناك، كرة نار صغيرة، وستعدو باتجاهنا، وستكبر، تكبر، تكبر، وتصهر معها كل شيء، اي شيء يواجهها، وستعدو مثل عاصفة مرعبة.. آه.. ان لها وهجاً يبهر الأبصار، وستقبل نحونا كخرافة حمراء عظيمة، لهادوي مروّع.. أوصيك.. ما إن تقبل علينا.. فاصرخ.. اصرخ ما وسعك ذلك فلعلّ احدهم قادرٌ ان ينجدنا.

[يخلع الأسير بزّته ويدثر الجندي، ثم يقرب الأرنب من فمه].

الأسير: كُل!

الجندي: أيها الاحمق.. لم يعد الأمر مجدياً.. [يتألم بحدّة] اسمع.. انك تبدي لي الكثير من الود والشفقة وكأنك تعنّفني على ما فعلته بك.. اتظن انك ستحظى برضاي ان اظهرت لي من الحب ما لم اظهر لك؟ كلا.. اشعر وكأنك تجلدني، تؤلمني.. أنصت الي جيداً.. ان لك ديناً علي، وعليك ان تستوفيه الآن.. وها أنا عاجز ولن أقدر على مقارعتك.. فافعل بي ما تشاء تلذذ بوجعي، او اسمعني من الكلام القذر ما يُشنّف اذني ويمزق قلبي.. هيّا افعل، هات ما عندك من نذالات.. فلا أحب ان القى في الجحيم وانا مدين لخسيس مثلك.

الأسير: هوّن عليك.. هوّن عليك يا صديقي..

الجندي: لا تقل (يا صديقي) ايها النذل.. انك تعجّل بميتتي.. آآآه.. كم اتمنى الآن ان لي من القوة ما يمكنني من حمل هذا القضيب وغرسه في عينيك.. اغرب عن وجهي.

[يحاول الأسير ان يربت على جبين الجندي.. فينتفض الجندي ويرفع القضيب ويهوي به على رأس الأسير ويصيبه بجرح].

الأسير: حسن اذن.. لن ارسلك الى الجحيم وأنت مدين لي.. وسأريك كيف استوفي ديوني كلها الواحد تلو الآخر، ثم اغادرك لتموت وحيداً..

بامكاني الآن ان أبدأ بهذا [يريه الأرنب] فان الجوع الآن يحفر الأخاديد في معدتك، فانظر اليّ كيف سأتلذذ بالتهامه مشوياً دون ان انتبه لعويل احشائك الضالة.

ثم ان لدي ما هو اقسى.. فانت تلفظ انفاسك الأخيرة وستبقى ملقى هنا كحثالة، بينما امتلك انا من الصحة والقوة ما يكفيني للصمود شهراً او يزيد. وسأستدل على الطريق واعود، وهناك سأقص على اطفالي حكايتك البائسة، وسأجعلهم يمثلونها كل يوم في حديقة الدار، وسأرقبك كل يوم وأنت تلقى هذا المصير.. ها؟

ما الذي دهاك؟ هل تشعر بالندم؟ ام بالحزن؟ ام بالتوبة؟.. أنا اتمكن من كل ذلك.. فضلاً عن انني قادر على ان اتقدم اليك الآن واركلك على قفاك واضحك..

[يتوسط المسرح، ويرفع رأسه الى السماء، ينظر بأسى وتدمع عيناه، .. يبكي بكاءً مكتوماً.. يترنم الجندي بمارش عسكري.. يعلو صوته.. يردد الأسر معه.. يعلوان بالايقاع.. يأخذ الأسير بالرقص بحركات ايقاعية متناغمة وممتعة.. يدبك على الأرض.. يرقص الجندي مكانه.. ويحييان حفلاً راقصاً على ايقاع المارش.. تتخلله فواصل كلامية وضحك عال]

الأسير: هذه هي البرية.. ونحن قادتها.. ابتلعناها.. فضيّعتنا.

[فاصل راقص]

الجندي: يالفرحتنا.. سنموت دون أن يعلم بأمرنا أحد.

[فاصل راقص]

الأسير: هذه عربة لا تسير.. عربة خيالية.

الجندي: هذه عربة لا تسير.. عربة عاهرة.

[فاصل راقص]

الأسير: انتهت الحرب وخسر الجميع.

الجندي: وسنحصل على اجازة أبدية.

الأسير: اجازة من الحياة.

[فاصل راقص]

الجندي: أقذر ما في الحياة الموت.

الأسير: اقذر ما في الحياة الولادة.

[صوت طائرات يدنو.. يعلو.. اطلاق نار.. الطائرات تقصف المكان.. يحضن احدهما الآخر ويسقطان.. اظلام تدريجي عيون نارية تلتمع.. نواح ذئاب].

ستار

صيف ١٩٩٥

ماهية الأغنية العراقية

عبد الكريم هداد

تمهيد

ولادة الفن، كانت مع بداية صراع الانسان مع الطبيعة، حيث مارس السحر (الموجود في جذور الانسان ذاته، والذي يخلق في الوقت نفسه احساساً بالعجز ووعياً بالقدرة، وخوفاً من الطبيعة مع القدرة على السيطرة عليها، انما هو الجوهر ذاته لكل فن).

ان هذا السحر قد تطور الى طقوس دينية، داخل المعابد، وأشكال فنية عمرانية شاخصة يصل صداها عبر الآثار القديمة المكتنزة بأفكار الانسان البدائي الذي بدأ خطوته الاولى في طريق الحضارة. وكان الترتيل المؤدي من قبل الساحر بإيقاع ووزن، يعطي تنبؤاته طابعاً سحرياً لمعجزات آلهته. مع هذه البداية اكتشف الانسان الموسيقى ومارسها عن طريق صوته، ومازال الصوت البشري يمتلك المكونات والقدرات ـ بخلاف الآلات الموسيقية ـ على التعبير عن الحالات الإنسانية المتموجة في شواطىء النفس، خير تعبير وتجسيد.

وقد تطرقت الخرافات والاساطير لهذا الجانب الفني الا وهو الغناء. وهناك الكثير من النصوص تبحث فكرة ولادة الغناء، ولنأخذ هذا النص الذي يؤطر ما نعنيه، قصة نشأة آدم الدينية:

(صنع الله آدم من طين، أراد أن يبث فيه الروح لتحركه، لكن الروح رفضت لأنها سماوية وآدم مادي، فأمر الله بملاك فأدخله في التمثال. وتغنى الملاك في مقام العزال.

فطربت الروح ودخلت بدورها في الجسد. فلما استقرت فيه، أخرج الملاك. فلما صمت الملاك، حاولت الروح الخروج من الجسد، ولكن آدم بدأ يغني من خلالها، فطربت واستقرت نهائياً في الجسد)[٢].

وقد زعم افلاطون بأن الموسيقى الهية، لكن الصينيين يوثقون صلة ما بين الموسيقى وطبائع الناس. ان الفن الذي كان ومازال ضرورة لإنسان يسعى للطمأنينة والاستقرار في عالم تسوده العدالة والمساواة، تكمن حاجة الإنسان للغناء مستوعباً رؤياه الداخلية، وتصوراته للطبيعة، وزمام اعادة ترتيب الأشياء لمكونات محيطه الاجتماعي.

والأغنية العراقية، التي هي أحد روافد الفن العراقي، الذي بدأ منذ ان ارسى الإنسان اولى الحضارات في العالم، على أرض بلاد ما بين النهرين. ويتضح لنا اهتمام واندفاع ذلك الإنسان في هذه الأرض بالموسيقى، من خلال استقراء القطعة الأثرية المعروفة باسم ـ القيثارة السومرية ـ التي تشع بتجليات مستوى الطموح وقدرة الصنعة الفنية لانسان ذلك الدهر الزمني في ابتكار آلات موسيقية تكون بالضرورة معبرة عن أحاسيسه موسيقياً.

اما الانطلاقة الواسعة لفن الغناء على أرض العراق، هو التطور العميق والراسخ خلال فترة الدولة العباسية، هذه الانطلاقة التي حددت ملامح عمق الموسيقى العربية بشكل عام. فالتطور الواسع والشامل للأداب والفنون والعلوم، رعى ظهور بناة الموسيقى حينها، الذين أرسوا بتجربتهم الاطار العام للموسيقى العراقية خصوصاً والعربية عموماً أمثال ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق، والأخير اخذ مهارة العزف على العود من استاذه ـ منصور زلزل ـ المتوفى عام (٧٩١م) وكان في زمانه مشهوراً ومعلماً في عزف العود. ويقول عنه المستشرق الفرنسي ـ سيمون جارجي ـ (لعله هو الذي اضاف وترين جديدين الى العود الفارسي). وفيما بعد اضاف زرياب وتراً خامساً واستخدم قوادم النسر في ضربه لأوتار العود. ويرتبط اسم بغداد على نموذج لهذه الآلة الرائعة التجلي والتي أصبحت رفيقة الملحن العربي على العموم، حيث تعرف بـ (العود البغدادي)، الذي اشتهر بصناعته (فاضل العواد) ومن بعده أولاده وهو الذي صنع للفنان الراحل فريد الاطرش عوده المعهود.

السياق التاريخي هذا، يرينا الجذور العميقة تاريخياً للموسيقى والغناء على أرض العراق، لكن الفترات المظلمة وخاصة العصور الوسطى الحالكة الظلام أبان الحكم

العثماني الذي أخلّ بالكثير من حركة عجلة التطور والبناء بما فيها الفنون والآداب وخاصة الموسيقى التي خضعت للتأثيرات بالرغم من ذلك فإن (قوة التقليد الشفهي الذي دام حتى أيامنا يمكننا اعتبار الغناء القديم في العراق محافظاً ـــ في خطوطه العريضة ـــ على الأصول الموسيقية في العصر العباسي الذهبي)(٢).

فالتناقل الشفهي لعب الدور الكبير في الحفاظ على التراث الغنائي والموسيقي. فالاغنية العراقية تمتاز بمميزات أطرتها كأغنية لها فرادة خاصة منسوبة الى المدرسة العباسية القديمة حيث العناصر الاساسية والآلات التي احتفظت بأشكالها وجوهرها العام ولم تكن التأثيرات الفارسية والتركية عميقة خلال الفترة القاحلة للحكم العثماني للعراق، وهذا ما نستشفه ونتوضحه من قول صاحب كتاب الاغاني حين يورد في كتابه حول طريقة ابراهيم الموصلي في الغناء، حيث انه (يبدأ غالباً بأصوات حادة، فيبقى اللحن فترة ثم يبدأ بالتخفيف تدريجيا حتى يصل الصوت الرخيم ثم القرار، وبعد ذلك يرتفع من جديد نحو الاصوات الحادة ويتنقل مرة اخرى من القوي الى البسيط وهكذا ينتهي..).

والطريقة هذه نلمسها بوضوح خلال استماعنا للمقام العراقي. وبهذا نستنتج بأن الاغنية العراقية ضرورة روحية مارسها الإنسان العراقي منذ الأزل البعيد، وقد حافظت على أصولها التقليدية الاصلية لذلك الغناء الممارس والمتطور في عهد الدولة العباسية، حيث اوجد وطوّر الكثير من الآلات الموسيقية والمعروفة الآن بالتخت الشرقي.

جذور الأغنية العراقية

١ ـــ المقام العراقي:

المقامات العراقية، والتسمية متداولة الآن بين الموسيقيين العراقيين على صيغة الخصوصية، هي الاساس لارتكازات الغناء العراقي المعاصر. فمطرب المقام او المغني يستهل غناءه باستخدام صيغة نغمية معينة، ومن ثم يستمر غناؤه متنقلاً بين النغمات القريبة من الصيغة الاساسية. التنقل هذا يصوغه منشد المقام بقدر ثقافته ودرايته الفنية للمقامات التي تلهمه ذلك الاتساق التطريبي. كل ذلك يتم ارتجالاً على ايقاع حر ذي زخرفة تمليه النصوص الشعرية المغناة وتكون أما باللغة العربية الفصحى أو باللغة الدارجة. والارتجال هو ذلك التلاعب النغمي الممتع والمشروط بالقواعد والاصول الواضحة الاطار في المقامات العراقية الممتعة، ويكون ذلك بسلسلة من المحسنات

والزخارف الصوتية بتناغم بديع. بعد الانتهاء من المقام يليه تقديم اغنية ذات ايقاع واضح التناسب، تسمى (البسته)[٤]، الأغنية هنا يلزمها ان تكون ضمن المقام الاساسي الذي بدأ به المغني. وشعر الأغنية يكون علي العموم من الشعر الشعبي ذي الشكل المقطعي، وله لازمة تتكرر بين المقاطع الاخرى للاغنية. والمقامات الاساسية تعطي للغناء العراقي تشكيلاً متنوعاً وغنياً من المقامات الثانوية لها.

والمقام يمتلك طقساً تطريبياً وهو ما تمتاز به الاغنية العربية، يلهب متذوقيه بحالة من اذكاء نار المشاعر، وتأجيجيا للنفس الى ذروة عميقة من النشوة السحرية. والرتابة التي يراها البعض هي صيغة قائمة على تنغيم الصوت المتتابع أي متماثلاً افقياً وهي انعكاس للبيئة المنبسطة. اما الآلات الموسيقية المصاحبة لهذا الرافد في الغناء العراقي فهي:

السنطور، العود، القانون، الجوزة، الناي، والآلات الايقاعية كالطبل، الدف والنقارة. وهي لا تأخذ الا دوراً مساعداً للمغني أي مصاحبة ثانوية، ولا تأخذ دورها المتقدم الا حين العزف المنفرد لها، حيث تبرز قدرتها في ترجيع التشكيل اللحني، خاصة آلة العود أمير التخت الموسيقي العربي.

واليوم لم تبق حقبة النفط ذات المجتمعات الاستهلاكية من هذا الرافد الغنائي بشكله المستقل بديمومته وتواصله بتطويع لما ينسجم مع روحية العصر. وأرى بتجربة ناظم الغزالي بداية لذلك حيث أخذ من التراث الموسيقى العراقي ما يلائم قدراته الصوتية، وبها وصل لكل المستمعين العرب الذين مازالوا يتذوقون اغانيه دون أن يأفل أسمه.

أما ابتعاد المطربين عن المقام فكان بسبب الاجهزة الاعلامية الرسمية التي لم تعط الاهتمام المطلوب من أجل ترسيخه في مخيلة الاجيال الحالية، وما تقدمه الاجهزة الاعلامية العراقية الآن من برامج عن هذا الفن ما هي الا برامج تضع فن المقام العراقي في شكل جسد محنط معروض في متحف قديم متآكل الجدران، رغم ان المقام قادر فنياً على استيعاب روح العصر ومتطلباته، وهذا واضح من خلال تجربة الفنان الراحل (يوسف عمر) الذي ابدع في مشواره الفني، حيث أعطى الكثير من خلاله.

٢ ـــ الاغنية العراقية الريفية:

اما الرافد الثاني للغناء العراقي، فهو الغناء الريفي الذي أخذ بالتطور على أيدي بعض الفنانين أبناء المدينة العراقية والذين امتلكوا من الوعي المتفاوت بمستوياته الثقافية، وكذلك القدرة الفنية في العطاء الفني الموسيقي. وما أعتقده الآن، هو أن الاغنية الحديثة

الحالية ما هي الا أغنية ريفية، تطورت من ناحية المفردة الشعرية المغناة والمواضيع التي اختلفت جوانب تناولها، وذلك بحكم تطور المدينة في المجتمع العراقي عن الريف العراقي الذي ما زال يقبض على ركائز الماضي اقتصادياً واجتماعياً. لكن الشكل الفني بقي كما في السابق، لم يخرج عن اطاره الملحنون العراقيون الباحثون عن صيغ جديدة، فهم مازالوا يحاولون الخروج عن صيغة تنسيق الجمل الموسيقية الموروثة المتناثرة بألوانها العابقة في الحياة اليومية للشعب العراقي.

لو نظرنا للأغاني الحديثة بشيء من التريث، نلمس فيها بوضوح تام، تطابق أغلبها من حيث الشكل الشعري والروحية اللحنية المعلومة الاحداثيات والزوايا بخطوط عامة مؤطرة لها كما هي للأغنية الريفية.

وتسمية هذا الغناء ـ الريفي ـ نظراً لتحدده المكاني، حيث ولادته على أيدي أبناء الريف، والذين تناولوا مواضيعهم باللهجة العامية التي يستخدمونها، والتي تختلف نوعاً ما عن اللهجة في المدينة العراقية من حيث المخارج الصوتية للأحرف وكذلك التسميات الراسخة للأشياء المحيطة بهم وهي قاموس كبير.

وبما ان المجتمع العراقي مجتمع زراعي بالرغم من الصبغة الاستهلاكية التي اوجدتها الحقبة النفطية، مازال الغناء الريفي هو التعبير الموسيقي له، وهو يمتلك مقومات الغناء الشعبي حيث التصاقه الحميم والقوي بخلجات الناس كما وهو الاكثر تداولاً نظراً لبساطته في مساس المزاج العام. وقد اوجد الغناء الريفي ألواناً واطواراً من الغناء الذي يستند على المقامات الغنائية العراقية، والاغنية الريفية القديمة منتشرة بشعبية كبيرة في العراق بسبب صدقها وانطلاقها من دفء الناس، رغم ان مبدعيها ترنموا بكلمات والحان هي من سياق هياج الروح بفطرية عاكسة لمحيطها، لذا كانت تصر على البقاء في الذاكرة اليومية وما اعادة تسجيل الاغاني القديمة بالأصوات الحاضرة، الا تأكيد لصلاحيتها للتعبير، عندما تفقد الأغنية الجديدة قدرتها على ارضاء مبتغيات الانسان العراقي في الافصاح عن الملامح اليومية للحياة، وكذلك الخواطر الانسانية التي تلح حينها.

٣ ـــ الشعائر الحسينية

من التأثيرات الواضحة على الأغنية العراقية الحديثة هي نهلها من الخصائص الموسيقية الواضحة للشعائر الحسينية حيث التسابق السنوي بين الشعراء الشعبيين في تأليف قصائدهم المسماة بالقصائد الحسينية وهذا ما يدفع بهم الى ابتكارات للاشكال

الشعرية التي تسمح موسيقاها الداخلية والخارجية بتوافق عام لترنيمها وانشادها مباشرة امام الناس المحتشدة ضمن اطار طقس شعبي عام يمكن وصفه بكرنفال بشرى ضخم. لهذا اصبحت نجومية اسماء لا يمكن تناسيها كفاضل الرادود وحمزه الزغير وغيرهم، وفيهم من كان يؤلف الشعر بنفسه، ومن الشعراء الذين وضحت لمساتهم الابداعية الشاعر النجفي عبد الحسين ابو شبع. ومسايرة لشغفهم الدؤوب لابتكار الجديد من الايقاعات الترنيميه (الغنائية) لأوزان قصائدهم. وقلقهم الدائم هذا في ايجاد (الحان الانشاد) التي تميزت بها الشعائر الحسينية، التي تعصف بأفئدة الجمهور بشغف عال، يترك صداه واسعاً في التجلي، المتجذر بعمق روح الإنسان العراقي، التجلي المتجذر بعيداً وآنياً، وكأن التاريخ نقطة ضوء تأتي اشعاعاته للحاضر بلون ليس غريباً.

وقد كان الكثير من الشعراء في هذا المنوال، على درجات مختلفة من الوعي السياسي الذي يمدهم بالجرأة المطلوبة لملامسة نبضات تطلعات الناس والتي هي اغلبها من الطبقة المسحوقة. الوعي هذا كان يبحر بهم في تسخير مخيلتهم في تبويب المطالب الملحة للجماهير او استفزاز الضد لضد الحالات السياسية التي تفرزها الانظمة الحاكمة من غير اقرار للاغلبية في احلامها المنشودة. لذا كان الكثير من هؤلاء المنشدين والشعراء قد دخلوا السجون حينها ثمناً لآرائهم تلك.

عند الاستماع لهذه القصائد، نجد ذلك التنوع الهائل والشفيف في الايقاعات اللحنية للمنشدين، كذلك طرقهم المتباينة والمتنوعة البناء في انشادهم، حيث كل واحد منهم له طور ما أو طريقة ما يعرف بها، فأنغام حمزة الزغير بتنوعها لا تشابه ما عند فاضل الرادود او جاسم الطويرجاوي وهكذا الحال مع الآخرين.

لذا فتأثير الشعائر الحسينية في الاغنية العراقية يأتي كشكل كامن في روحية المواطن العراقي، نظراً لاهتمام اغلبية الناس بالشعائر المقامة كل عام في المدن العراقية خلال أيام عاشوراء، أحياءً لذكرى استشهاد الامام الحسن (ع) وكذلك المواكب الجرارة والهائلة العدد القادمة من كل أنحاء العراق والعالم الى مدينة كربلاء، ويكون التنافس على اشده فيما اوضحناه، امام الحشد الكبير القادم من قبل المنشدين.

ومما ابدعه الشعراء الحسينيون في تناولهم لمواضيع معبرة حول الغربة، الشهادة، الحق، الظلم، الاخوة، شجاعة المرأة، وقد تم تسليط الضوء على هذه المواضيع من خلال الشخصيات العظيمة لواقعة كربلاء الشهيرة من زاوية الحاضر وبثورية الامام الحسين(ع).

يتضح لنا من هذا السياق الذي طرحناه، ان الكثير من الأغاني العراقية الحديثة نسقت الحانها بجمل موسيقية تستند على روحية الشعائر الحسينية. ومازال لحد يومنا هذا الكثير من الملحنين العراقيين ينهلون من الشعائر الحسينية لالحانهم بشكل مباشر أو غير مباشر.

٤ ــ حزن الاغنية العراقية:

الكثير منا يصف الاغنية العراقية عموماً بالحزينة، وهي كذلك. فالحزن هذا لم يأت اعتباطاً او تلذذاً بالحزن، ابتعاداً عن مساحة ضوء الفرح الذي هو ظل السعادة، التي يكافح الانسان من أجلها اينما كان موطنه في ارجاء كوكب المعمورة. فهل تمتع المواطن العراقي بحقبة ما بالطمانينة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً ولو على هامش الحد الادنى من درجاتها، لكي تملي عليه الاستقرار النسبي في الحياة كي تضفي لروحيته السكينة وعدم القلق؟؟؟.

سؤال اطرحه لأن كل الاشياء لا تأتي من العدم، ولا تخلق من وهم التاريخ، وضمن هذه الاشياء تأتي الاغنية كاحدى الاشكال التعبيرية للانسان. وعند قراءة التاريخ الخاص بأرض الرافدين، ذلك التاريخ الذي لم يكتب تحت ظلال الملوك، نستنتج منه بأن هذه الأمة التي ارست أول حضارة بشرية، فتحت الآفاق امام الاقوام اللاحقة في التطور العام، من خلال الكتابة كطاقة تعبيرية، البناء، القوانين، المسمياة للاشياء، الاسئلة عن مكونات الوجود، والحوادث الطبيعية والموت، وكان التساؤل الاخير هو الذي صاغ ملحمة كلكامش العظيمة، وعندها سقطت دموع الملك كلكامش رثاءً لرفيقه انكيدو ليبدأ الحزن على هذه الأرض التي تعاقبت عليها المعارك والنزاعات فيما بين الدويلات القاطنة فيها وقد جاء في الانجيل (وتناول ملاك قوي حجراً كأنه حجر طاحون عظيم وألقاه في البحر قائلاً: هكذا تدفع وتطرح بابل المدينة العظمى، فتختفي الى الابدا لن يسمع فيك عزف موسيقى بعد، لا صوت قيثارة ولا مزمار ولا بوق، ولن تقوم فيك صناعة بعد الآن، ولن يسمع فيك صوت رحى ولن يضيء فيك نور مصباح. ولن يسمع فيك صوت اعراس. فقد كان تجارك سادة الارض، وبسحرك ضُلّلت جميع الامم. وفيها وجدت دماء أنبياء وقديسين وجميع الذين قتلوا على الارض). وهكذا كان الخراب مروراً بصراع الدولتين البيزنطية والساسانية على أرض العراق، الى ولاة الامويين في الكوفة والبصرة ودموية شرطة الدولة العباسية، غير متناسين فترة المماليك وما بعدها حين جاد العثمانيون بامبراطوريتهم المظلمة، وما تركته من تخلف ارست له خلال فترة خمسة قرون. وما

التاريخ الحديث الا امتداد لكل ما جاء ذكره. ولم ينعم الشعب العراقي في زمانه المعاصر سوى بالاقطاعيين وحكومات سلطة الفرد المتتالية، فكانت الحربان الاخيرتان اي الحرب العراقية الايرانية وحرب الكويت مشهدين مروعين مازالت جراحهما ماثلة للعيان رغم اصرار عدسات تلفزة الأقمار الصناعية على اخفائها، حيث ترك العراقي وحده يقارع الموت اليومي داخل حدود مشرعة بفوهات البارود وأسلحة الليزر، لوحده في البحث عن الكرامة والخبز معاً، وكأن النفط المسروق يراد تدسيمه بالدم.

من هنا يأتي الحزن عميقاً وبكل الوضوح وذلك نتيجة حتمية (لا شعورية) لما يثقل الانسان العراقي من هموم ومصائب ومصاعب افترشت تاريخه الطويل كلون خثرة الدم المتواصل النزيف. لذا أرست جذور الشجن في القوالب والركائز الفنية للأغنية العراقية تعبيراً عن الاحاسيس والعواطف والخلجات الدفينة استرسالاً لأبعاد ايقاعات اعماق الروح البشرية.

كذلك التعبير عن الحب، أين يجد فضاءه الانسان العراقي وهو المثقل بالاعراف الاجتماعية القاسية، لدرجة اعتباره عاراً يجب مواجهته بالثأر، كما التعبير عن الطبيعة والحياة وزواياها؟. أين يجد فضاءها والاقطاعي وشيخ العشيرة لهما الحكمة وحدهما؟ كذلك المدينة، اين يجد فضاءها ودروبها مطوقة بالامتداد ما بين عصا معلم الابتدائية وعصا الشرطي؟!!.

وقد ترسخت في ذائقة العراقي وكذلك الفنان العراقي خاصية، هي ان المؤدي يجب ان يحمل صوته شيئاً من الشجن ونبرة الحزن. ومن ينصت لأغنية عراقية تدعي الفرح بايقاع راقص، عليه ان يكرر سماعها ليجد في صوت مؤديها شيئاً من الحزن العراقي وكأنه يرقص على الجراح، هذا ان كانت كلمات الأغنية تحمل الواناً من بهجة الفرح.

وحينما تكون ملحمة كلكامش تبين ضياع أمل انسان ما بين النهرين في ذلك الزمان، بكل وضوح. نرى هناك قدراً من الحزن في الاساطير السومرية والبابلية مليئة بالبكاء والنوح والاسطورة فيها قاسم مشترك في التعبير عن حزن الانسان العراقي الآن:

دعا انليل العاصفة

والشعب ينوح

وأخذ من الأرض رياحا منعشة

والشعب ينوح

وأخذ رياحا طيبة من سومر

والشعب ينوح
ودعا ريحاً شريرة
والشعب ينوح
وعهد بها الى راعي العاصفة
ودعا العاصفة التي تفني الارض
والشعب ينوح
ودعا رياحاً مدمرات
والشعب ينوح(٥).

لذا اقول: ان الحزن في الاغنية العراقية ما هو الا تراكم السنين تلك وهذه في البحث عن واقع آخر، يراد صياغته بشكل بهي، حيث تكون صفحات التاريخ القادمة للفرح، رغم فقدان الانسان للأمل. ومن أجل كتابة اغنية فرحة لا بد من استراحة، يأخذ خلالها الانسان العراقي نفساً عميقاً يغسل خلاله كل ثقل الوجع، ويتأكد خلالها انه على درب يتأمل فيه مدينته الفاضلة من دون اكراه او تزويق سياسي كاذب.

السويد ١٩٩٤

الهوامش:

(١) ضرورة الفن ــ ارنست فيشر.

(٢) الموسيقى العربية ــ سيمون جارجي ترجمة عبد الله نعمان ص ١٠ ــ ١١

(٣) المصدر السابق ص ٤٨.

(٤) البسته: كلمة فارسية معناها الرابطة.

(٥) الاسطورة في الشعر العربي الحديث تأليف أنس داود ص ١٢٠ ــ ١٢١.

نص

لا عنوان يدل الموتى الى بيت أضاعهم

في محو عنوان الجسد وإزالة أثره

هوشنك الوزيري

بداية يجب الإشارة الى أن الكتابة هذه لا تدعي قراءة نقدية للنص الشعري المجتزأ من قصيدة «خذ وردة الثلج، خذ القيروانية» للشاعر العراقي سعدي يوسف، بل تحاول عبر استحضاره أن يمثل منطلقاً لقراءة بنية العلاقة التكاملية / التداخلية بين البيت، حيث فعل الولادة، وباعتباره النافذة الأولى التي يطل منها المرء على وجوده، وبين «الموت»، الذي لا يكتسب صيغته النهائية واكتماله الأخير، باعتباره فعل عودة، إلا عبر امتزاجه بتراب البيت والذوبان فيه. ولو تأملنا الجسد الدلالي للنص وبنيته الخفية نكتشف أن مفردة البيت تمثل الدلالة المركزية التي تتمحور في محيطها الدلالات الأخرى، وتتحكم عبر إنتاجها مستويات صورية متعددة بصياغة المناخ العام للنص. فالبيت هنا هو سؤال النص بوجه العالم عبر عملية تخاطبية (هي ليست إلا مونولوغاً ذاتياً) مع الابن تحث على تفعيل الذاكرة وتنشيطها.

ينطلق السؤال الشعري (هل أضعنا الطريق الى البيت؟) الذي يتم افتتاح النص به نحو طريق البيت باحثاً عن موقعه وجغرافيته الضائعة، وعبر سؤال الغربة هذا الذي يحمل في بنيته التشكيكية القلقة الكثير من الألم والنوستاليجيا، ليس إزاء خارطة البيت وحدها فحسب، بل والى الدرب المؤدي الى تفاصيله التكوينية من حديقة وغرف وحكايا الطفولة أيضاً، يخاطب الشاعر العراقي سعدي يوسف ولده حيدر، حاثاً إياه بهدوء على أن يمسك بيده والعودة معاً في حركة ارتجاعية من العالم الى بيت هو في معرض الضياع، إنه سؤال

تحريضي يتوجه الى عوالم الذاكرة التي أصابها الوهن والشيخوخة بهدف تنشيطها وإعادة إحياء الصور والتخيلات الطفولية الأولى. لكن البيت يظل بعيداً، والطريق المؤدي إليه غامضاً مشوشاً كالحلم المستحيل. فالموت يسكت قلب حيدر فجأة بعيداً عن المنزل الذي ولد به، بعيداً عن التفاصيل الجزئية الصغيرة التي تكوّن هوية البيت وتعرف عالمه (كالنهر والنخلة وموقف الباص القريب...) وهكذا يظل تساؤل البيت حائراً في مستوى سياق النص الشعري، معلقاً في أفضية المنفى الضيقة، دونما جواب بينما الدرب هناك يعيش انتظاره المفجع لخطى ربما لا تصل مطلقاً.

في ٢٧/٧/١٩٩٧ أغلق الجواهري دفتي حياته في مدينة دمشق بعيداً عن البيت الذي تمت ولادته بخارطته الحديثة بعد ولادة الشاعر الكبير بحوالي عقدين من الزمن، وبعد يومين فقط وأثناء مراسم تشييعه جاء نبأ موت (حيدر سعدي يوسف) في قرية بالفيليبين حيث حقول الرز الشاسعة فيها تمتد الى ما لا نهاية (بحسب السرد الحزين للشاعر سعدي يوسف وهو يصف بقعة موت الابن)... فشتان بين حقول الرز المستوية على مرمى البصر وغابات نخيل البصرة الشاهقة، وهنا انطلاقاً من زاوية الرؤية الى العالم وتاثيراتها، تدفع سايكولوجية البيئة المكانية بتضاد ثنائية البيت/ المنفى الى ذروته.

البيت هو سؤال الغربة بامتياز، لكنه سؤال يقترب، ضمن حالة البيت العراقي الذي يعتبر من أكثر البيوتات السياسية قسوة على أبنائه ورفضاً لهم، من فعل الاستحالة بسبب القسوة الدكتاتورية التي يمارسها الأب السياسي المهيمن على أرجاء خارطة البيت إزاء أبنائه الذين سرعان ما يجدون أنفسهم على أرصفة وفنادق مدن أخرى لا يعرفونها. لهذا وبهدف التخلص من استحالة تحقيق هذا السؤال الملتبس كالجريمة أو التحايل عليه، تقترح الغربةُ الذاكرةَ، وهي ليست إلا نظاماً مكثفاً من علامات البيت ورموز تاريخه وصور علاقاته الأليفة، مشروعاً سكنياً بديلاً من البيت الأصلي، وبذلك كثيراً ما تتحول الذاكرة الى منزل للمنفي يؤثثه كيفما يشاء وبالأشخاص الذين يشاء.

إن أي موت في المنفى يفرض بالضرورة إحالة سريعة وواجبة الى البيت والكلام عنه، لكن التساؤل الذي يعثّر فعل الكلام هنا هو عن أي بيت نستطيع الكلام؟ بيت سعدي يوسف الذي يخاطب ولده عنه ويصف موقعه له (البيت الذي تصوغ معماريته شعرية النص)؟ أم بيت آخر تمت إعادة ترتيبه وتأثيثه بمفردات وأكسسوارات مغايرة لمفرداته الأصلية (نافورة للحشائش والأرجوحة وليمونتان...) كما يصفها سعدي، وتعيد هيكلته

وبناءه انطلاقاً من صورة الدكتاتور وعلى جميع المستويات الشهوة الدكتاتورية لتدمير كل شيء وتغييره، ونقصد هنا البيت العراقي الراهن حيث الموت فيه، ذلك الحاضر الأبدي في خباياه وزواياه، هو المفردة الأكثر هيمنة على نظامه الحياتي بسبب قدرته الهائلة على المداهمة السريعة والانقضاض المباشر دون سابق إنذار أو تمهيد.

يمثل البيت وهو نقيض المنفى وضده، الفضاء الأكثر رحابة وانفتاحاً لممارسة الفرد الإنساني تفاصيل حياته الشخصية الى أقصى مداها الاحتفالي والحميمي، دون خضوعها لرقابة تذكر ربما سوى الذاتية منها. وداخل أروقة البيت وغرفه يستطيع الإنسان ممارسة وجوده الذاتي بشكل يقترب من حدوده التكاملية. . . والشيء الذي يجعل الحياة واسعة بامتداداتها الطبيعية داخل خارطة البيت هو شعور الكائن الذي يسكنه بالإلفة الحميمية والسرية مع الأشياء كلها وانتماء كينونته إليها، هذا بالإضافة الى لعبة التملك التبادلية التي يمارسها الطرفان، شعور الفرد بأن البيت ملك له وهو ملك للبيت، وبطغيان هذا الشعور الامتلاكي التبادلي يعيش الفرد لعبة الحياة دون خوف، لكن مع الفقدان التدريجي لكل هذه العناصر التي تكوّن جوهر علاقة الفرد بمحيطه السكني، وبغياب هذه المبادئ الأولية لتأسيس هوية الانتماء الى حياة البيت، يتحول هذا البيت الى مجرد قفر واسع عار من الحياة والهواء؛ يكتسب مناخ التابوت ودلالته، كما في حالة البيت العراقي تماماً الذي أصبح «الموت» فيه الحدث المركزي الوحيد، والبديل الأكثر إلفة من بين الموجودات القليلة الأخرى التي تمثل بدورها مظاهر لتجسيد العدم الطاغي، في ظل هيمنة دكتاتورية قل مثيلها في ولعها وعشقها للموت. وهنا يظهر تعارض وتناقض البيتين بوضوح، بيت سعدي يوسف الذي لم يعد لجماله ثمة وجود إلا ربما في الذاكرة وفعل التذكر (هل تذكرته؟) والسرد الشعري الماضوي (كان لنا منزل. . .)، وبيت آخر مختلف له انشغالات مغايرة وهي تربية «الموت» بهدف جعله كائناً في غاية الإلفة، بل ورفعه من خلال دروس ايديولوجية قاسية الى مرتبة الشرف الذي يجب أن ينال. . .

لقد حاول صحافي بريطاني زار العراق في أواخر ١٩٩٥ الإمساك بشكل الحياة والكتابة عنه قام بعملية إحصائية في غاية البساطة (هناك خمسون محلاً لصنع التوابيت في شارع واحد من شوارع العاصمة بغداد) حتى لو فرضنا جدلاً بأن هناك مبالغة في هذا الكلام، فمن الممكن اعتبار هذه الجملة القاسية جوهر البنية التي تتحكم بسيرورة الحياة وأبلغ صورة لها. لكن ما يمكن تسميته بالموت العراقي، الموت الذي له هوية عراقية محضة، يتعارض بالمطلق في أغلبية حالاته مع تقنية التابوت وآلية الدفن

العنيقتين نسبة الى ميتات مستحدثة في سراديب البيت وأقبيته لأن الجسد في هذا النوع المبتكر من الموت لا يسعه ولا يملك الوقت الكافي لممارسة هذه الطقوس والتقاليد، فهو يتحول الى حفنة رماد أو بضعة غرامات من لحم محروق بعد إذابته في أحواض الأسيد، أو مختبر لقياس مدى فعالية الأسلحة الكيماوية وروائحها كما في حالة الجسد الكردي، أو تتطاير أشلاؤه كالغبار لتتخذ من فراغ الهواء تابوتاً ومدفناً أبدياً. . . وميتات مبكرة أخرى تعمل على محو عنوان سكن الجسد، بل وإزالة كل أثر له بشكل كلي.

إن هذا الفصل القسري بين الجسد وتراب الأرض (العنوان) له دلالات في غاية الخطورة على صعيد الانتماء، فحرمان الموتى من العودة الى الأرض والامتزاج بها يمثل عملية مقصودة منظمة لقطع كل الصلات والأواصر بين الإنسان والبيت الذي ينتمي إليه. وهنا عند نقطة الحرمان تحديداً تكتشف أحد أكثر الأوجه تشابهاً وتلاقياً مع الموت في المنفى، فالموتان محرومان من عنوان البيت وإعادة الانصهار والتوحد بتراب أرضه.

فالموت في المنفى يظل فعلاً ناقصاً، أو بالأحرى يظل مرجأ الى أن يحين زمن البيت، إنه مشروع غير مكتمل الملامح بانتظار العودة، ووحده تراب البيت والدفن فيه (اتخاذ عنوان مسكن أبدي) يجعل فعل الموت تاماً، وهذا ما يفسر عدم ترك الموتى في الديار الغريبة، وأن السواد الأعظم من البشر يحملون رفات موتاهم مهما طال الزمن ليعيدوها الى أرض الوطن حين يتأكدون ويطمئنون من إستقباله للميت، وما يكمن بين الموت وتراب البيت علاقة شديدة السرية لا تعادلها إلا العلاقة التي تكمن بين الأم والوليد عبر الحبل السري الذي يتم بتره بعيد عملية الولادة. لكن التساؤل الأكثر ألماً وخيبة هو ما تنتجه الجملة الشعرية الأكثر شهرة للجواهري (باق وأعمار الطغاة قصار) مات الجواهري خارج أسوار البيت، والطاغية لم يزل يحتل مركز البيت ويمثل عنوانه أيضاً بعد أن شيده على هيئته، بينما الموتى العراقيون ما من عنوان يدثرهم ويعرّفهم. . . وما كان يسمى «البيت»، أضاعنا وأضعنا الطريق الذي يؤدي إليه.

حيدر يا ولدي

سعدي يوسف

ولدي! هل أضعنا الطريق الى البيت؟

كان لنا منزل قد ولدتَ به أنت.

ولا شك أني هرمتُ

وذاكرتي وهنتْ مثل عينيّ. . .

لكنك الآن يا ولدي تتساءل عن بيتنا!

كيف؟

ماذا أقول، إذاً، للضيوف الذين يجيئون؟

ماذا أقول لمن يرسلون الرسائل؟

يا ولدي!

قل لهم: إنني أعرف الدربَ،

أخبرهمو بالذي أتذكّرُ. . .

بيتي على النهر، لا شكّ.

بيت به نخلةٌ

وحديقة ورد وآس

ونافورة للحشائش،

ليمونتان، وأرجوحةٌ أنت تعرفها جيداً.

ولدي!

موقف الباص كان قريباً من البيت،

قد كنت تقصده أنت يا ولدي حينما تقصد المدرسة

هل تذكّرتَهُ؟

هل تذكُرتَني؟

فلتُعنّي بني. . .

* النص مقطع من قصيدة «خذ وردة الثلج، خذ القيروانية».

[نقلاً عن السفير الثقافية

١٩٩٨/١/١٦

اعتزازاً منا ورغبة من الكاتب]

محمد مظلوم في (محمد والذين معه):

الذات والآخر وفاعلية التجسيد

د. عدنان عباس

بدا لي وأنا أتصفح مجموعة محمد مظلوم الشعرية (محمد والذين معه) [٣١ قصيدة، منشورات كراس، بيروت ١٩٩٦] أن توقد الأحاسيس والتجدد يأخذان مديات متجاورة ومتباعدة ولكن بأبعاد متفاعلة، فبقدر ما نلحظ إحساس التجريدي في تصورات وتهويمات داخلية قريبة من المألوف، فإننا نرى بعدها غير المتجرد أيضاً. ويبرز ذلك من خلال استيعاب مقتدر للغة مفردةً وتراكيب وإن تناوبتها بعض إشكالات البناء الصوري، إلا أنها تبقى متحركة بإرهاصات التوق للتعمق والتغيير في بناء جديد. فالنصوص التي كتبت توزعت مدارات زمنية غير متباعدة (٩٤-١٩٩٥)، وتخللتها أسماء وأماكن تعبر - كما يقول الشاعر - عن حركتها الحية في الواقع، وتعيش حالة من التفرد الذاتيّ المتفاعل مع الآخر - الحي الميت - وتجليات الآخر المتجازئ ومديات وهواجس وعواطف متلاحقة، وحالة من مناجاة ضمير المفرد (أنا) والمجموع (هم) دون ارتباكات تُخيل بالأفق العام - ويظهر ذلك من خلال موقف إنساني متسق مع نفسه والآخرين، متأرجح بين الألم والحلم ومتجانس مع أحداث وعوالم الحرب المأساوية. هذه الأحداث التي استفزت بلا شك معاني متنوعة عبرت عنها قصائد هذه المجموعة: الموت، الحرب، السجن، المجنزرات، الأسر، المنفى، الحزن، الشوق، الوفاء، المرأة، مرثية الذات الخاص والعام، العودة الى الماضي ذاتياً في حاضر مسلوب.. . الخ.

إن تقسيم محمد مظلوم لقصائد هذه المجموعة الى أنماط أو أجزاء ثلاثة متداخلة مضموناً (موت جلجامش، جنازة المفقود، نساء من كل الجهات) لَشيء يوعد بالجديد واختراق حاجز

«تقليدية» توزيع المعاني والأحاسيس و«تقنين» الشكل. تضعنا تلك النوافذ الثلاث أمام تصورات محددة عن عوالم متفاعلة. وهي وإن اتسقت وتجسدت بالعام سمح ببعض «التجاوزات» البنيوية في هيكلها الهارموني. هذا الاتساق ينسحب على المضامين خاصة، رثاءً وحزناً وهماً وأحلاماً ضائعة وتجسداً في الذات. فهناك مرثية الذات الجلجامشية وملحمة عصرنة الغائب الحاضر في الآخرين. هي مرثية ذات الشاعر المتوجد بصوفية الحلم، الكابوس والعشق الأزلي للموت و«المكره» عليه بالوقت نفسه. وهناك جنازة المفقود المتأطرة بوجدانية الرحيل. هذه الوجدانية الملتاعة في مساراتها المادية والروحية حيث تلقائية الألم الممض واحتضار الزمان والمكان والأفراد والأشياء. إنه اختلاط العاطفية بالبكائية، الحي المخلص لأنكيدو الراحل بأشيائه وأحزانه، وهو الإحساس الدفين بسرد كانون الموت والدخول الى عالمه الواسع. وكم كان جميلاً لو تحركت المرثية و«جنائزيتها» في آفاق أكثر تنوعاً وتحفزاً كي تخرج مركبة متعددة المواقف والأبعاد، فارزة لتفاعلات ملحمية متأطرة ببناء قصيدة النثر الواعدة حقاً عند الشاعر محمد مظلوم. ثم تأتي النافذة الثالثة والأحلام المتجسدة بالوحدة ووحشة الحرب و«خندقة» الآمال والأماني، وامتثال هذا الحلم «لإشراقة» مبهمة وخيال عابر كالنيزك. المرأة والحلم بل وأضغاث الأحلام المهدورة على أصوات جنزرة المركبات وهدير الطائرات. ومع هذا تأتي النخلة والشجرة كنوع من صيرورة التكوين منذ سومر ولإعطاء أفق داخلي غير مرئي -ولكنه محسوس- متسم بالرغبة والشوق نحو تحول ما. وتحس وأنت تقرأ قصائد هذه النافذة أنك أمام شاعرية ورومانتيكية سوداوية ورؤيوية مسيجة بعوازل الحرب رغم التوق للخروج من المتاهة ولو بلذة وذكرى عابرتين.

فبعد مجموعتيه السابقتين (غير منصوص عليه - ارتكابات بيروت ١٩٩٢) و(المتأخر عابراً بين مرايا الشبهات - بيروت ١٩٩٤) يبدو لي أن محمد مظلوم يمتلك القدرة على فهم تكنيك القصيدة وعروضها ومناخها وإيقاعها ونثريتها (حيث جاءت أغلب قصائد هذه المجموعة على شكل قصيدة النثر)، وإن حدثت بعض «الاختراقات» النثرية هنا وهناك. وفهم الشاعر لأشكال القصيدة هو فهم تلقائي وواع كذلك، لن يتكدر «بعمى الألوان» أو متاهات وسراب الصحراء - صحراء الشعر - ولا أدري إن كان محمد مظلوم سيتوجه نهائياً الى قصيدة النثر أم لا؟ ولكن طموحنا يبقى أن يتجدد في إطار الشكل على قاعدة التجريب والصبر والحاجة. إن هذا الشأن قد أصبح ضالته على ما أعتقد وهو يكتب. وما يسجل في مجموعته الثالثة إمكانية في التحكم بماهية القصيدة ومناخها العام. كذلك التجريب حيث يتفاعل البناء الشكلي بالمضامين. لقد اتجه في هذه المجموعة الى بناء المقاطع الشكلية والمعنوية المستقلة

كما في قصائد (صدمة الليل، ذلك الشتاء، سنة سارة، جسدك المأهول بالبط، هجاء الموتى) وفي قصيدة (هجاء الموتى) يطالعنا تكنيك أشبه بمسلة سومر الهارمونية إذ يمكنك (مقطعياً) أن تقرأ القصيدة أفقياً (الذين كانوا معي. . . كلما عبروا. . . لا يصلون) وعمودياً، كما يميل الشاعر في عدد من قصائد هذه المجموعة الى التركيبية وطول النفس الشعري بخيال واسع ووحدة عضوية متماسكة، الأمر الذي يوعد بملحمية بناء القصيدة لاحقاً (أنظر مثلاً قصائد: أيها الموت، آباء النسيان، يتبعني النهار فاتلفت). كما يصوغ الشاعر أسلوباً جميلاً في تكنيك شكل، بل ومعاني القصيدة حيث «يستطرد» في وصف أشيائه (موت جلجامش): (إجازته، ساعته، جواز سفره، نظارته، وصيته)، أو في جنازة المفقود وتجزيء الماضي الحاضر، هو ماضي وحاضر الشاعر نفسه (لاعب الكرة، سائق الدبابة، مدرس العربية).

محمد مظلوم في بناء تكتيكه ولغته جريء يتوخى التجديد، ويتوقى (حذراً) التهميش والتسطيح الذي وقع فيه بعض الشعراء الشباب. يحاول وهو يكتب قصيدة النثر مثلاً تجاوز الخلط بين النثرية والنثر الشعري والشعر المنثور. وهي محاولة طريقها غير قصير وتحتاج الى نفس راكز وصبر واع. إنها محاولة الاحتراس من «الاستسهال» الذي سلكه البعض فخرجت قصائدهم «حرة» إلا من نفسها الشعري وإيقاع لغتها الداخلي ومناخ صورها وتراكيبها ووحدتها العضوية وألقها المعنوي. صحيح أن الشعر في عالمنا يميل الى التعقيد بسبب تعقيدات الحضارة - كما قال الشاعر توماس سترنس اليوت - وصحيح أننا نعيش في عالم «يقطع أنفاس» الكاتب والمتلقي على السواء، عالم محسوس وغير مدرك، مفهوم وغير مفهوم لا يرقى الى الفهم إلا بمشكاة من أتقن حرفة الأدب والشعر خاصة - فقد يمتلك البعض تقنية البناء دون الموهبة وبالعكس، ولا جدوى إذن من الاحتراف - كما يقول جابر عصفور - وفي المحصلة إن من أضاع الطريق لا يرد الماء أبداً - كما يقول الإمام علي - وإننا أمام كمّ من «الشعراء» وضمور شعري - كما صرح يوماً ميخائيل نعيمة في «غرباله» - إن حالة التراكم أو الكساد تضعنا أمام قلق مشروع خوفاً من سيادة قانون غراشام القاضي بسيادة البضاعة الرديئة على حساب الجيدة في السوق. تلك المخاوف التي عبّر عنها عدد من نقاد الشعر في أمريكا بالخمسينات. ولكن وبجانب هذا الكم المتسرع المتراوح بين الجزرية والبهرجة والغرور، نجد عدداً من الشعراء الشباب ممن يحاولون الخروج من هذا الطوق والنزوح الى «أسواق» العافية الجيدة - قصيدة محمد مظلوم - وإن تراوح ألقها وتفاوتت أساليبها - هي قصيدة طامحة تبشر بمثل هذه المعافاة وبظهور مناخ واعد يجمع الجانب الذهني والتكنيكي والثراء اللغوي والتركيبي. هي محاولة - تظهر في المجموعتين السابقتين أيضاً - للبحث عن

هوية، ولترسيخ وجودها وتثويره عبر «تحسيس» المجردات وإعطائها نبض التفاعل مع محيطها. الإنسان محور قصيدة مظلوم، الإنسان المتجسد في الآخر والضمير والوجود، عصرنته وتأرخته وحركته في مناخات صوفية متعددة مؤطرة بالحلم. ومع هذا الألق المعنوي وطموح شكل قصيدة النثر الواعد لديه، فإن بعض القصائد لا تخلو من «تأرجح» نثري بين الجرأة والتكاسل. ويبقى الطموح قائماً بتوظيف إمكانياته التكنيكية واللغوية لتوسيع مناخات ملحمية القصيدة و«عقلنة» بعض صورها، والمضي في تركيبيتها كي يختط لنفسه طريقاً جريئاً، صنعةً وطبعاً وأسلوباً، مستفيداً بلا شك من تجارب الآخرين، ومحاولاً الخروج من جرح التهيب، لاسيما وأنه قد وضع اللبنة الأولى للاحتراف المبكر كشاعر.

لقد تناولت قصائد مجموعته الثالثة عدداً من المضامين، قاسمها المشترك الإنسان (هو والآخر) ومأساته (موته ونفيه) في زمن الحرب وضياع الأحلام. نجد فيها تلك الهموم الصغيرة وتفصيلات ألبوم «المحارب» وأشياء وألبوم الأنا والآخر وأحلام المنكوب بالوحدة، وصوفية الموت و«أنسنته» وصداقته، وأزلية الألم والحزن «المفرقع» بمفرقعات الطائرات والمركبات المدرعة والملون ببدلات الخاكي. فيها توثيق الداخل ـ الذات، ملحميته وعصرنته، وتوثيق الخارج ـ الزمان والمكان والحدث (الحرب، الخابور، الأصدقاء، مدينة الثورة) من خلال تفاعل يختلط فيه المحسوس بالمجرد، هي قصيدة اللاحصر في حصر أسماء حية ترمز له هو بالذات وللآخر (الواحد والمجموع) لظاهرة إنسان ـ حي ميت، ووطن وحلم منفي.

الموت حالة متكررة، هاجس صوفي
أنسنة الموت

يظهر الموت ـ كما في المجموعتين السابقتين ـ قاسماً مشتركاً للمأخوذين بالهم العراقي ـ الفردي والعام، فيه العصرنة والصوفية المتجانسة مع تجليات النفس والمتأنسنة صداقياً في إطار من اللامحدودية في محدودية الحدث، واللامكانية واللازمانية في مكان وزمن ملاحق بالأنفاس والحشرجات (صديقي أيها الموت) ـ «آباء النسيان» ويأتي الموت متأطراً في ذكريات وبكائيات هي مرثيات تجسده والإنسان. . . الموت في قصيدة مظلوم متواجد ومتفاعل في كل شيء:

(أتذكرك، في عيون أصدقائي، في أعناق أصدقائي المصلوبين) «قصيدة: أيها الموت».

هو الموت والموت دائماً و(أتذكرك في ـ انقفال أبواب الدبابة) ـ «أيها الموت».

المجرد المجسد، المتحول والمتحرك، أزلي التكوين والتشخيص في الذات: (ها أنت

تعيدني إليك من أمومة مشاعة). «أيها الموت». يتجسد في الذاكرة الملغومة بأدوات القتل، يتحرك كالأتون الذي يخطف أرواح الأحبة والأصدقاء والأحلام. هو كابوس لابد من معايشته. وعبر محورية وتركيب قصيدة «أيها الموت» يتضح أفق مثل هذه المعايشة الصوفية، والمناجاة في نداءات متكررة. هذه النداءات التي تتكرر أيضاً في قصائد وعناوين أخرى. إنه محصلة الحرب بلا شك.

فوسمة الموت وتجسده في مرثية الموت والحياة ورحيل انكيدو، والخلاص العامر بالألم الباقي لدى جلجامش ومصرع خمبابا (الثور الوحشي) وقدرية البحث عن عوالم غير معروفة من خلال عصرنة مراثي الداخل (الذات ـ الشاعر نفسه) والخارج المتفاعل مع الداخل (الآخرون). فجلجامش (لم يحظ بموته في المرآة)، «الموت بين نهرين». ويبدو أن الموت لا يقف عند هذه الحالة رمزاً وتجسيداً، بل يصبح قائمة إحصائية بعد كل معركة وراء المتاريس، ولن يبقى إلا ذلك الشبح، الجبروت: (أحصيتُ من تركوني، فوجدت أنني سأكلم كثيراً من الموت) «الموت بين نهرين».

مرثية أو موت جلجامش وانتقالاتها المتنوعة بل وأبعادها العميقة قصيدة مركبة تجمع التاريخ السومري ـ الأكدي ـ بالمعاصر. هي مرثية لذات مظلوم نفسه المهموم برحيل انكيدو. وهي محاولة للبحث عن ماهية ومغزى وسر هذا الموت والحياة معاً. لابد لهذا الموت عند «مظلوم» أن «يفرقع» التاريخ لتتراءى الى العيان هشاشة المستقبل. ولعل هذه التفصيلات الجميلة للأشياء ومحاولة نقل الماضي الى حاضر بائس تعطي للقصيدة بل للقصائد بلا شك طراوة وبعداً جمالياً جريئاً في تفصيلاته «النظارة، الإجازة، الوصية، جواز السفر. . الخ». إننا نلاحظ «تمرغ» الموت في «تراب» الروح والأرض والوجوه. صورة من التقابل والأضداد الحسية والمعنوية. صورة الحياة واللاحياة والمنفى الى الداخل ـ إيقاع الحي «مظلوم» الذي كان شاهداً على «موت» ماضيه وموت أصدقائه (الآخرين ـ انكيدو).

(هو الذي لم يمت، فعاش ميتاً وهذا اسمه يرثُ الموتى) ـ «الموت بين نهرين». الموت بعد ذلك قبور وتراب، وسماوات دخانية بأشباحها الطائرة. كل شيء يشبه كل شيء (قبور تهرب تحت سماء تشبهها). «إجازته». ولكن الشاعر عندما يتذكر أنه ميت «فعلاً» يرجم (بهذه النظارة البحر) ـ «نظارته».

الموت رمز لكل شيء قاتم، إنسان بلا قوائم، مجرد، وخلاءات وصحارى تقتل الذكريات والأحلام وسراب الفراغ «المجنون»: (وعاد الى صحرائه بلا ذكريات) ـ «نظارته» الموت وصداقته يتحولان الى نوع من التماسك ذاته وذوات من زاملهم، ولكنه تماسك الوفاء على

قاعدة التلظي من وبائية الحرب والخوف من الرحيل الحائر الى منفى «النسيان». كما أنه رفد من التناقضات المعتملة في روح كل إنسان، ووصية لم تكتمل إلا بظلالها (كنخلة مرة أوصلت بظلالها) ـ «وصيته». هو الموت المتفرد بعصامية الصوفي وألق الوجودي وصورة من صور أبدية الحزن والنعي في (توابيت عيد) ـ «وصيته». الموت المتجدد العائد الى الحاضر من الغائب (وموتاك يعوون بي) ـ «ناي لعودتهم». كما أنه المطبق الذي حصد الأحبة جميعاً (ماتوا جميعاً). «هجاء الموتى». ويظهر الموت أيضاً من خلال عدد من الصفات الإنسانية الرهيبة أو الموجعة أو الرمادية (عيونهم عناكب) ـ «هجاء الموتى» و(وردهم حجر) ـ «هجاء الموتى». لا محيد أو مهرب منه، إذ كلما عبروا (ماتوا ولا يصلون) ـ «هجاء الموتى». الموت هو جبهات الحرب ومجنزرات الدمار نجده يتصف بالشمولية في «هجاء الموتى» و(أيها الموت) حيث الأصدقاء الراحلون (تقصف حياتهم في الجبهات) ـ «هجاء الموتى»، وليس للشاعر (سوى موته) ـ «هجاء الموتى». الموت هو الخنادق والأنفاق والكهوف والتلال، هو السهد والأرق (احرقوا النعاس) ـ «هجاء الموتي».

لم يبق لأنكيدو إلا جثة وجنائزية ما تبقى منه وراء أسوار أوروك، ولجلجامش إلا اعتمال النفس بالحرقة والشوق والفعل ومطارحة الموت في مرثية الحياة. ولم يبقَ شيء من أشياء انكيدو الصغيرة فقد (خطفوا حقيبة أنكيدو بعد موته) ـ «آباء النسيان». التساؤل الأزلي يبقى شاخصاً بعد موت انكيدو (ماذا نفعل بهذه الحياة؟) ـ «آباء النسيان». هذا التساؤل المر لجلجامش يجمع صورة المكدور على الأقربين له، هي أيضاً صورة العمق الإنساني الطامحة الى التواصل والصيرورة والبقاء.

ولكننا نجد أن صوراً أخرى تلاحق تجليات الموت فتصبح (المدن كتقاويم) ـ «آباء النسيان»، وتستمرئ بعواطف جياشة لا هاجس لها أو لا قدر لها إلا الصدفة أو قل الحظ التي وضعت الشاعر خارج إطار الموت (أقرب من موتي الذي اجتزته) ـ «آباء النسيان». هو أيضاً هاجس الاجتياز الى «موت» المنافي والتشرد وإن تأجّل. المخيمات والمعسكرات تلك (التي أصبحت غابات محرمة) ـ «آباء النسيان» تحولت الى شواخص تجريدية بعيون (تمتلئ بجثث بلا وجوه) ـ «آباء النسيان» وظلال لا أكثر. . . كل شيء ميت، الأثمار والنخيل، المياه، الوجوه، العيون، الفصول، (أشخاص كانوا أنا) وماتوا. يصبح الموت المنفى الى الداخل والخارج، عدمية متظللة بأفياء الراحة الأبدية، أو تحت شموس المجهول (الى الميتين تحت شمس الشبهات) ـ «يتبعني النهار فأتلفت». هو الموت الحسي والمعنوي، الصورة والظل، العدمية في النبض وحيوية الشكوك (كيف أموّه عدميتي) ـ «يتبعني النهار فأتلفت». هو موت بمعالم

وجودية تتوزعه رؤى المشوش بالأشياء فيصورها هاربة من نفسها (لكنني لم أتعرف على صورتي في التابوت) ـ «يتبعني النهار فأتلفت».

ضبابية الحلم وأطياف الحلم الضائع تتردد في النخلة المتهدلة على قفار جرداء إلا من ألغامها. كما أنها خارج الموجودات وتتجسد في المحسوسات فيصبح الأمر أشكالاً من تهويمات ليلية ولذة المهموم بالمرأة (أنا الذي دفنت بالطريق إليك شبهاتي) ـ «ذلك الشتاء». ضبابية اللذة والحرمان من معايشة حلم «مفخخ» أمام رقيب لا ينام هو الموت. هي حالة من «التمترس» في التوق الى شيء ما يتحرك قريباً أو بعيداً في هموم أكبر تعتمل بالموت والحياة. لن يقتصد الشاعر ماهية الموت، فهو يوزعه على مساحة أوسع هي مساحة الوطن المتجرد والمتجسد معاً، والشوق المختزن في الذاكرة والذي يتحول الى أضغاث من أبدية سومر وحتى عبور الخابور (المولود بلا ذكريات) ـ «كفجر يلثغ». إنه موت إنساني ملتاع رهيف «الوجدان» و«الحس» تقف في مواجهته حياة التواصل الأبدية منذ سومر في صراع الامتداد وصيرورة القدوم من قتامة وتجليات الحاضر وحضور في الخواطر وإن كان جبروت الموت أعتى على المساءلة (أيتامك أبناؤك لكنهم فرحون) ـ «أيها الموت». لكن موت خديجة في قصيدة «حين كتب» هو صيرورة الحركة الأبدية التي لا تهمد، الحياة وإن اعتملت بالموت (ذلك أن دورتها أبدية بعد الموت).

لقد استطاع محمد مظلوم حقاً أن يعطي للموت طابعاً «إنسانياً مؤنسناً» حركته وأشكال قدومه وخاصة في ظروف الحرب. متطارحاً وإياه إنسانياً وصوفياً ووجدانياً على قاعدة من الألق الروحي الحسي والتطامن النفسي والتنازع الذهني بحيث يصبح الموت «جنوناً» على شراسته، وحنانه هو حصاده المر (من أين لأسنانك كل هذا الحنان) ـ «أيها الموت». ويبرز في هذه الطاحونة تساؤل الشاعر ووده في معانقة الموت (لم تصلني رسائلك مع أنني أرسلها دائماً) ـ «أيها الموت». التطامن النفسي والوجدانية في مخاطبة الموت ينساب بشكل جميل في خاتمة قصيدة «أيها الموت» حيث (تتكرر بعد كل يوم وتتأخر أنت، صديقي «أيها الموت»).

توأمية الحرب والموت

الحرب كآلية من آليات الدمار الجماعي وآلام وأورام الفجيعة تجد لها صدىً طبيعياً في مجموعة كتبت عن أيام الحرب (كانت السنة الأخيرة من حرب مستمرة، يُقتل آباؤنا وجنازاتهم تطل على شتاء هارب) ـ «أيها الموت». الحرب هي القتل بمفهومه العصابي المباشر الذي تنعكس عليه صور الدم والانتشار الممزق على مسافات واسعة. وهي صرخة قد تكون تعبيراً

مضاداً لاحتجاج جلي الصوت (صرخة مقطوعة اليدين) - «أيها الموت». الصورة هذه تبرز جماليتها من خلال تفصيلاتها الداخلية تذكرك بصورة (الوطن المقطوع الدين) لمعين بسيسو وإن اختلف المغزى الذي رسمت فيه. وتتواصل جمالية التراكيب الصورية المعبرة عن مخيلة معافاة عند التحدث عن رموز أدوات الحرب (المسدسات فوضى الله حين يختار أعداءه) - «أيها الموت». هذه «الآلية» العنيفة في مواجهة السلام والحلم تبرز على مساحة من الموت في قصيدتي «أيها الموت» و«هجاء الموتى». يجد القارئ هنا وفي عدد آخر أيضاً من القصائد تفصيلات الحرب في صورة أدوات ومستشفيات، وقرقعة وجنزرة، وهدير، ورسائل، وذكريات وأحلام وإسعاف وأنهار وجبهات (حيث لا ظلام مقدساً) فيها - «أيها الموت». كما أن مخلفي الموت وأيتامه هم أيتام الحرب لا غير (أيتامك يا صديقي أكثر من أبنائك) - «أيها الموت»، [ولا أعتقد أن الشاعر قد وفق تماماً في بناء هذه الصورة حيث تكرر المعنى في مفردة لم تصف شيئاً].

وبما أن الحرب هي معادل موضوعي للموت، فهي إذن غطاء الليل والنهار والمتضادات والإدانة والاحتجاج والتمرد والهروب والنفي والنزوح والمجهول والتوابيت والقبور والمخاوف والرهبة والأوجاع وجنازات من كل جانب، والوفاء والأحلام. والحرب «حضن» أيضاً لتلك الأشياء والمفاصل لأحداث يومية بالدقيقة والساعة والنهار والليل (اصطدم... بأدوات حلاقة كان يستخدمها الظلام مطلية بغبار الخنادق) - «أيها الموت» و(كان انكيدو مجنداً في كتيبة الدبابات الحادية والسبعين) - «الموت بين نهرين». في قصيدة «الموت بين نهرين» نتابع لواعج مرثية الذات التجسد بالآخر. هو رثاء النفس ومطارحة انفعالاتها الداخلية المتحشرجة قبل النفس الأخير أو هو استنفار الواقع النفسي قبل الانفجار، (وأنا مفخخ كالهدوء وهادئ كالفخ) - «الموت بين نهرين». والحرب تحول الحركة الى صمت دفين في محيطها حيث يختزن الموت كل تفاصيله في الذات الحية (وفيك بحيرات من الأموات يعيشون كل يوم) - هي بعد ذلك توثيق للمدن والأنهار والأفراح في قصيدة «الخابور» و«أرشفة» «قوارب الهاربين» في قصيدة «وصيته» - توثيق للفصول والأصدقاء في قصيدة «مجنون» حيث (ارتدى الخريف أثراً غريباً واختفى). هذا الرداء الذي ارتداه الخريف أعطى حساً فنياً تفاعل فيه الخيال بالتركيبة. توثيق للوطن برمته - الإنسان والشجر والنخل والصخر، المأساة برمتها من خلال عواطف تفيض بالألم (بلادي لمن سنجر ذبائحنا في الحروب الطويلة) - «ناي لعودتهم». هذه المأساة المزروعة أو المفخخة بالألغام واليأس والمتوزعة على الأنهر والمدن والناس، حيث أحاط الشاعر (بين ثلاثة ملغومين باليأس) - «سائق الدبابة». الحرب لا

تأبه بالمنافذ، هي أمر لا تخترقه الكلمات ولا مهرب منها عندما يجد الإنسان نفسه في أتونها رغماً عنه (مسدس تائب بين يدي ولا مصير للنسيان) - «المقصات تؤرشف سيرته» و(كل (هذه) الوجوه متاهات) فيها - «المقصات تؤرشف سيرته». قصيدة «المقصات تؤرشف سيرته» تستحق الاهتمام كقصيدة «أيها الموت» وغيرها، إذ توزعت معاني متعددة تقود الى معاني محورية وإشارات تستدعي الاهتمام. ولكن لفت نظري أيضاً بعض الصور ومنها (وتلك لعنة تفقس أئمة بلا عيون). وأتساءل هنا: أرأى الشاعر أن مثل هذه الصور جاءت انعكاساً لواقع يتحرك بتجريدية؟ أم عفواً؟ أم أنها من باب «الظرافة»، تلك التي وجدها الروائي غارسيا ماركيز في روايته «الجنرال في متاهته» «مقبولة» دون أن يحس بوجودها.

والحرب هي الساكنة في تجليات الذات المتصادفة مع الموت. ولكنه الموت المؤجل (أنا المتأخر أجلتني الحروب) - «سعيد مثل ديك أبيض» والأشجار المتروكة الباقية لهمها (أشجار العزلة) - «كفجر يلثغ»، والأحلام الهاربة.

الواحد، الكل، الكل الواحد - هؤلاء أنا، الذكريات، الماضي - الحاضر.

وفاء الذات للآخر وللذات نفسها معادل إنساني للتجسيد الروحي. هو معادل روحي في وفاء الشاعر لنفسه لأصدقائه وللتراب - ويشكل هذا الوفاء مردود أوجاع مجتمع بأسره - ألم يقل الجواهري الكبير (فإنما أنا من أوجاع مجتمع). وهو محطات متنقلة في الضمير ومخزون من الذكريات والحنين - فموتهم موته وحياتهم حياته وأوجاعهم أوجاعه. نجد مثل هذا التجسيد جلياً في الحديث عن الموت وتفصيلات الحرب في الحديث عن النفس. وبما أن الإنسان السرمدي الجلجامشي الأزلي يصارع أنكيدو وسرمدية موته، فإنه - أي الإنسان - يبقى محوراً وحالة أبدية من الصيرورة حتى بعد موته. فلابد إذن لأنه حالة إنسانية كالوفاء والتفاعل أن تأخذ مداها وفق منظور من التجانس والصيرورة وتقاسم الهم والفرح مع ذاته وذوات أخرى. ويأتي هذا الوفاء متأطراً بذكريات وأشواق من الماضي الذي أخذ يتحرك في حاضر الحرب (كنت أحسب أن ربيعك محصور في قطاع [٥٠] في مدينة الثورة) - «أيها الموت». الذكريات تلك تبدو أحياناً متأزمة تحت طائلة الموت (فكم أبقيت من نسيان لأعرفك) - «أيها الموت»، ولكنها ذكريات الهم والألم (أتذكر؟ عندما ازدحموا في حافلة» - «أيها الموت». ذكريات الشجن المتخندق على هاوية الرحيل وتوثيق وصية الأحبة (ولم أكذب وصيتهم الوحيدة) - «أيها الموت». وهكذا يعتمل الوفاء على قاعدة من عواطف بكائية يختلط فيها الرثاء

بالمناجاة (الى أين أوجه رسائلي) ـ «أيها الموت». تساؤل مشروع في وحدة موحشة مسيجة بالموت ومحتواة بقدرها. مظلوم وهو يكتب عن الراحلين ونجاته إنما ليتجلى روحياً معهم. يتجلى أيضاً مع (الهاربين من الحرب والمتعبين من الحب والباحثين عن الله). «كاميرا المجنون» [وهذا نوع من المتفاوتات الجميلة في المجموع والواحد على السواء]. فهم كلهم (متشابهون «و» كثيرون) ـ «وصيته». ذكريات الشاعر تنحو منحى «أكثر تنوعاً في قصيدته «أيام». هذه الأيام في «وحشتها» (مطابقة لماضيها) ـ «أيام». هي نتيجة منطقية لرتابة جافة رمادية. هذه الصورة التي تمنينا على الشاعر لو كان قد توسع في أفقها وأبعادها الداخلية ـ هي أيام سوداوية في حرب عصابية (أيام بلا أحلام) ـ «أيام»، وأيام الرحيل الى المجهول (وأيام تهاجر عندما نصل) [الصورة تلك تقودنا الى حس جمالي مرهف، ولا أجد حاجة لإكمالها بمقطع «بلا أيام»]. أيام خريفية «يتحشد» فيها الحزن ويختمر بالشوق، أيام هوجاء يموت فيها الأمل (أيام بقدمين ضريرتين) ـ [ولا أدري لماذا استعمل الشاعر صفة «ضرير» للقدم؟] والأيام تلك موزعة خارج الحرب أيضاً، في بلاد أخرى، أي عوالم أخرى يعيشها مظلوم نفسه. (أدخل باب توما ومعي شجر حزين. . . معي مراث لا تجد أحداً) ـ «يتبعني النهار فأتلفت». [الصورة تلك تختزن شفافية الألم والأحزان و ترقى بخيالها وانسيابيتها وقربها للنفس] ويتواصل انسياب الصورة وصدقها فتواجه حينئذ (النخيل الهارب من آثامه) ـ «يتبعني النهار فأتلفت».

إن ذاكرة الشاعر الثرة تخترق جدار الذات الى ذوات الآخرين عبر مراث حزينة لذاته وللراحلين ومتاهات أحداث تلاحق الأنفاس فقد (تبدل كل شيء) ـ «آباء النسيان». وحيث نجد صوراً جميلة في تلك القصيدة (تخطف قرنفلة الغريق وتغرق). المراثي تلك هي مراثي المأخوذ بالحياة قبل الحشرجة الأخيرة، مراثي دموع الرجال (فالرجل هو الذي يعرف كيف تدمع عيناه) ـ كما يقول أراجون، ومراثي حلم ضائع وتيه لا خلاص من وقعه في أعماق النفس ومحاولة للخلاص منه أيضاً (اترك البحر يبكي وحيداً) ـ «سنة سارة». يريد أن يقول ذلك لامرأة في الذاكرة مخاطباً (ولدت لأضيعك) ـ «سنة سارة» حيث يضيع كل شيء في الأضغاث والكوابيس (ستصلك أشجار عزلتي) ـ «كفجر يلثغ». كل ذلك يأخذ محور الذات الخاص والعام، الكل في الواحد والواحد في الكل حيث هموم جلجامش «الشاعر الذاتية في زمن الحرب «إجازته، وصيته، ساعته، جواز سفره». الهم الذاتي العام الهارب الى الداخل دائماً والى المجهول حيناً، ولكنها الى روحانية المتنسك بمادية الجسد «الميت ـ الحي». فلن يبقى إلا أن (يلغي مواعيده مع الله) ـ «ساعته». تجسد الحصار الداخلي بالخارجي أو العكس على قاعدة الوفاء «المر» ومن خلال

عاطفة تشرئب بآلامها (أهذي بلادي؟! بلادي التي لم أرها ولم تغنّ باسمي، وكنت فيها، وكانت تحاصرني فاخترتها، لكي أتكاثر خارج الظل) - «الموت بين نهرين».

مرثية الوطن الذي اختاره تكتمل بلا شك بهؤلاء الذين كأنهم تبددوا في الذكريات دون خيار في الحرب. ترى مظلوم في قصيدة «هؤلاء أنا» يتطارح نفسه فيكون إياهم ويكونون إياه (أشخاص كانوا أنا) - «هؤلاء أنا». يتجسد في ماضيه وحاضره عندما كان لاعب كرة ومدرساً وسائق دبابة قبل أن تضيّع حياته (في الممرات) - «هؤلاء أنا». يتأملهم من خلالهم (خلاله) وخلال ماض لا يكتمل إلا بمرارة ذكريات لحظات الصمت العابرة بين التفجيرات ثم تتبدد وتتلاشى. هذا البعث التقسيمي يبدو جريئاً كما في أشياء جلجامش - الشاعر - «جواز سفره وساعته... الخ» ويؤدي بلا ريب الى محاولة قد تنمي لاحقاً لتأخذ أسلوباً يترسخ بتنوع المضامين. إن ذات الشاعر وماضيه يتداخلان بذات الآخرين وماضيهم حتى وإن لم يبرز بشكل مباشر أحياناً. نلاحظه مرة ونحسه مرة أخرى في حصاد الآمال لشباب اكتمل عودهم، وفي لذاعة اليأس وبكائية النفس (نفسه) (ها أنا نار تنتشر باليأس) - «صدمة الليل» وتقود الى نوع من قدرية يعيشها الشاعر نفسه وكأنه موعود «أنا» بالوقوف على المرتفعات البعيدة) - «وصيته» الذات المعتملة بأرق الماضي نجدها في «لاعب الكرة» و«تعداد» حربي، وهناك (أشخاص مختلفون وأرقام الجنود) - «لاعب الكرة». كذلك في (سائق الدبابة) المجند في الحاضر الحربي - وفي «مدرس العربية» في كردستان العراقية والحضور الضامر المستتر فـ(حاضره «مظلوم» مستتر تقديره كان) - «مدرس العربية».

الحلم - أضغاثه - رقابة الموت

الذات «الحية» المستجدة في «موت» جلجامش وفي «جنازته» تخترق «فرقعة» الحرب بأحلام اللحظات، وتتجاوز «خندقة» المخاوف بأماكن محلقة و«تستريح» في أضغاث «الماضي» ووجوه نساء تتوزع خارطة ذاكرة الشاعر. نراها في قصيدة «صدمة الليل» المقطعية حيث الحلم المهدور وهموم الليل والصحوة المسلوبة، وانكسار الذكرى العائلية (فأرى عن يميني طفلاً أسميه أخي، وعن يساري أختاً أسميها أمي) - «صدمة الليل». هذا الحلم الشخصي يختلط بالهم العراقي منذ فجر سومر حيث يكون (بين ضفتين تختلطان فيّ) - «ذلك الشتاء». الحلم ولو للحظة هو استرجاع الماضي والانصراف الى الذات قليلاً، وبارقة محبة تتجمر داخل النفس وتوق عامر بالشوق «مهداة الى فاطمة»: أن تكوني أول من أقبلها كل سنة) - «سنة سارة». هو حلم بـ«نساء من كل الجهات»، ومتكرر للمرة الألف في لحظات،

ومنتظر برحيق الحياة والورد كله (انتظرتك بالورود كلها) ـ «سنة سارة»، إلا أنه أضغاث حلم لأنها (لم تأت بكل الفصول) ـ «سنة سارة». وبقدر ما ينتظرها للمرة الألف «يفقدها» (للمرة الألف) ـ «سنة سارة»، ولن تبقى في النهاية إلا (ظلالك) ـ «سنة سارة». هذا «السرور» المؤقت والمحلق بالحصول على المرأة يضمحل دون إرادته (وبعد لم أحصل عليك) ـ «جسدك المأهول بالبط». يتحول الى وصف صامت على شريك الرغبة (أصفك دون أن يمسك الكلام) ـ «جسدك المأهول بالبط». إنها أحلام الذات العراقية المتجزئة على خيال عابر حيث احتراق المشاهد والنخلة والضفتين والعراق. مفازات من الانكسار وظلال «العبور» الى الموت. ويعود الحلم ليتحول الى إحساس يومي «مسروق» من أتون الحرب، ولتصبح المرأة حالمة تنوب عن الذاكرة بجمالية مأخوذة بتعليل النفس (ينام وتحلم عنه. . . وفي الصباح تغسل وجهها نيابة عنه) ـ «ساعته». هو تحصيل حاصل لاتقاد الذهن و«محاصرة» النساء ـ الحلم يتنقل خيالياً ويتعدد من فاطمة الى خديجة، ويتوق الى سماء الحياة» على يد عشتار لإنقاذ تموز في أزلية التماثل. ولكن «عشتار» ـ المرأة ـ التي سكنت الذاكرة مراقبة بالحروب والمتاريس، نجدها خارج الصورة (أما أنت التي لم تصلي فلم تصلي بعد) ـ «خارج الصورة». ولكنه «أمل» ما بوصولها وإيمان بدورة سومر الأبدية. وبقدر ما يتحول البدء في صورة الحلم الى فضاءات مجنحة في اللاواقع إلا واقع الذاكرة، ويوم يتجسد الحلم بالمطارحة يتلاشى الزمان والمكان والكتابة «الشعر» أي الانصراف الى الذاكرة كلياً خارج المحسوسات (ويوم أحلت له نفسها لم يكن ليل ولم يكن نهار، ولم يكن كتاب) ـ «حين كتب»، فإن النهاية بعد المطارحة والتلاقح تتجسد برجوع قانون الحياة الطبيعي وحركتها ودورتها المحسوسة والكتابة اليومية (وكان ليل وكان نهار، وكان الكتاب) ـ «حين كتب».

إن تلك التفصيلات التي آليتُ الخوض فيها في قصيدة محمد مظلوم تعطي ولو تصوراً محدداً عن ماهية ومضمون وشكل هذه القصيدة الواعدة بالتجدد والجريئة في تكنيكها ومضامينها، لاسيما وأن الشاعر لا يألو جهداً من اختطاط مسار من الصعب اختطاطه بسهولة ـ هذا المسار الذي يبقى محاولة للخروج من «مأزق» سيادة الأسماء الكبيرة مستفيداً بلا شك من تجارب الآخرين وقدراته الذاتية ـ كما أن وجود الأسماء الكبيرة لا تشكل برأيي «رادعاً» للقصيدة الشبابية من أن تتجرأ في تعاملها التجريبي مع الشعر. وأملي أن يواصل محمد مظلوم محاولاته في بناء قصيدته دون خوف بروح متأنية متفاعلة، وتكثيف تركيبتها وملحميتها وذهنيتها، والانتباه الى بعض الشراك في التعامل مع الصور لاسيما وأنه يمتلك حساً وخيالاً شعرياً قادراً على البناء والتجديد.

أثر جليل لمؤلف مجهول:

كتاب الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة

عرض: محمود سعيد

كتاب أسطوري

إنه لأثر جليل بالفعل ضاع نحو ستين بالمائة من محتواه. فقد كان فيه اثنتان وأربعون حكاية لم يبق منها إلا ثماني عشرة حكاية فقط، وهذه خسارة كبرى لا يمكن تعويضها بالرغم من أن هناك أملاً في العثور على البقية ولا سيما أن ما حقق من المخطوطات العربية المتواجدة في المتاحف داخل وخارج الوطن العربي لا تتجاوز نسبته ٥٠٪ وإن كان من الأمور الطبيعية أن لا يُعرف المؤلف في مثل هذه الحكايات الشعبية التي باتت كالأساطير فإن من غير الطبيعي أو المألوف أن لا يُذكر أو يشار الى من جمع تلك الحكايات، إذاً فالمؤلف مجهول والجامع مجهول، لكن الكتاب يذكر اسماً جمعت له هذه الحكايات هو الآخر مجهول أيضاً بالرغم من الألقاب الطويلة التي سبقته:

نسخ برسم المقام الكريم العالي السامي سالم بن علي بن أبي القاسم بن محمد النعمان.

وعبارات الدعاء التقليدية التي أعقبته:

بلغه الله تعالى في الخيرات آماله وأصلح أعماله.. الخ.

حقق الكتاب المستشرق الألماني هانز فير (١٩٠٥ ــ ١٩٨١) ونشره لأول مرة عام ٥٦، وهذه هي الطبعة الثانية، لكن الناشر هذه المرة أيضاً ـ الجمل / المانيا ـ لم يفد القارىء بأي معلومة تفك طلاسم عائدية الكتاب المجهولة أو أي دراسة عنه، أي شيء

يميط اللثام عن ظروف تأليفه، وهكذا ظل الغموض يحيط بالكتاب ليس من هذه الناحية فقط بل من نواحي كثيرة اخرى، فمثلاً أننا لا نعرف أين ألف هذا السفر العظيم، ومن كتب له المقدمة، وأين كان يعيش من جمعت له..!

على أن أكبر إهمال عرض للكتاب هو إغفال ذكر المكتبة التي وجد فيها، أهي في ألمانيا أم في بلد آخر، إننا نعلم أن ألمانيا القيصرية استحوذت على أكبر كمية من المخطوطات العربية بوساطة شرائها بأبخس الأثمان أو بوساطة الحيل الدنيئة كاستخدام وسطاء يجيدون الخداع والمساومة أو استغلالها العلاقة الحميمة التي كانت تربطها بالدولة العثمانية التي فتحت حدودها لعملاء يجيدون اللغة العربية، انبثوا في أقطار ومدن العالمين العربي والإسلامي يشترون بأبخس الأثمان أرفع كتب التراث والعرفان، لو عرفنا ذلك لأدركنا صعوبة كشف غوامض ما أحاط كتابنا اليتيم هذا وبقية اخوته.

المعلومة الوحيدة التي يذكرها الناشر عن الكتاب جاءت تخميناً لا توكيداً:

(يعتقد بأن هذه الحكايات قد دونت لأول مرة خلال الأعوام ٧٠٠–٧٥٠ هجرية).

لم يبين الناشر على ماذا بنى اعتقاده السالف..! لكنه لم يدر أنه بهذا التصريح زاد الغموض عمقاً بالرغم من أنني أنحاز إلى اعتقاده هذا لما سيأتي.

حكاية الأحدب الخياط

(إعلم أيها الملك أني كنت بمدينة كذا وكذا أخيط في دكان **استرهنتها في زمان** من رجل موسر كثير الأموال، وكان في أسفل داره طاحون والرجل يسكن في **علو الدار**..)

بالجملة السابقة تبتدىء إحدى الحكايات، ووضعت خطاً تحت بعض الكلمات ليقارن القارىء تطور متغيرات مفردات اللغة العربية وأساليب التعبير العربي على مر الزمن، وكان بودي أن أذكر أكثر من ذلك لكنني راعيت ضيق مجال المجلة، أما بقية الحكاية فسأوجزها مع ذكر بعض التعبيرات الأصلية أيضاً من دون تصحيح أو تغيير:

ورفع الخياط رأسه يوماً فرأى زوجة الثري الحسناء تنظر الى الشارع من كوة من الطابق الثاني فطاش لبه، أكثر من النظر (**فظليت يومي ذلك ممتنعاً عن الخياطة**) لاحظت المرأة نظراته، (**فتعاطت محبتي**) أي شجعته، وأرسلت له قماشاً يخيطه لها (**فلم يجيء المساء حتى فرغتها**) أي أنهى الخياطة، وعندما خاطت كل ما تريد لها ولزوجها ولأفراد بيتها كلهم، أخذت تستولي على كل ما يحصل عليه من الزبائن المترددين عليه بالرغم من حاجته الى أي فلس (**أنا محتاج الى فرد فلس**)، ثم دعته الى منزلها في المساء مستغلة

سفر زوجها لكنه لم يكد يتمتع بالطعام والشراب حتى جاء الزوج فما كان منها إلا أن ربطته بالطاحونة مكان البغل، فظل يدور الى أن تعب وتوقف، فجاء الثري وأخذ يسوطه في الظلام حتى أدماه، ويخرج من البيت فجراً وهو لا يكاد يصدق، ثم يقع في اليوم الثاني بيد نصاب آخر يبتزه من جديد، ثم تعود المرأة الى نفس الحيلة السابقة فتدعوه الى بيتها وما يكاد يجلس حتى يأتي الزوج فيسلمه الى الشرطة ليضرب مائة سوط، ويطاف به على جمل تشهيراً بفعلته، وينفى من المدينة.

تلك ملخص فرع واحد من عدة أفرع من إحدى الحكايات التي وردت في كتاب الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة.

المكان

من يقرأ الكتاب يستطيع أن يخمن أنه كتب في العراق في بغداد أو في مدينة قريبة إليها كالبصرة أو الموصل للأسباب الآتية:

١ ــ كثرة ما يتردد في الحكايات من مفردات عراقية عامية مازالت تستعمل الى حد الآن مثل: وُلَكْ حسين، ولِكي أو لج حسنة، أي يا حسين ويا حسنة، وفرد قضية وفرد درهم بمعنى قضية واحدة ودرهم واحد، وأساسها فصيح أي درهم فرد وقضية فرد[١] بينما لم ترد سوى بعض التركيبات العامية المستعملة في البلدان العربية الأخرى وهي أقل من القليل، فعلي سبيل المثال لم يرد سوى تعبير سوري عامي واحد هو: لا أحسن أقرا أو أكتب، أي لا أحسن القراءة والكتابة، وتعبير مصري واحد هو: أوريني، والمصريون ينطقونه: وريني أي أرني، مع ورود أكثر من كلمة تستعمل في أكثر من بلد عربي مثل: تمّ يسافر، أي سافر، بقجة، وشال، وبرّا وجوّا، ويعيط، يقعد على شغله أي يهتم بشغله، ويطالع فيه أي ينظر أو يحملق فيه الخ.

٢ ــ السب الذي يتبادر عفوياً على لسان المرء في الحكايات يتدفق على طريقة العامة في العراق، وهو غير مقصور على فئة خاصة بل يشمل كافة الفئات والطبقات، ويكاد أن يكون بنفس الألفاظ المتداولة الآن: يا قواد، يا قرنان..

٣ ــ قسم وحلف العامة بعلي: **هذا الشرطي و ـ علي ـ عرفني**، نص كهذا تسمعه في أمكنة كثيرة في العراق الى حد الآن.

٤ ــ ذكر أمكنة مشهورة باختصاصها في بعض مناطق العراق، فمن كان يعمل بالتجارة بين البصرة وخليجها والبحر العربي والمحيط الهندي كان يعرف أن الأبلّة هي

أحد أهم الموانىء آنئذ وذكرها في الحكاية لا يعني سوى انتماء للمكان تأتى من دراية دقيقة يتوافر عليها راويها لأنه أدرى بشعاب مدينته من غيره.

٥ ـــ هناك ذكر للبرامكة في أكثر من موضع، وهناك حكايات عنهم أو عمن خالطوهم أو زاملوهم، ومن يتتبع التراث العربي يجد أن الذاكرة الشعبية احتفظت بالهالة المشرقة التي أضفتها أعمال البرامكة وكرمهم وسعة صدورهم على شخصياتهم، ولعل السبب الرئيس في تلك السمعة يعود ربما الى النكبة الفظيعة التي حلت بهم من دون تبرير تاريخي مقنع، وورود مثل هذه الإشارات في الحكايات يشير الى ارتباط وثيق بين الراوي وانتماء الرواية.

٥ ـــ ورود أحداث وقعت في وجود أمكنة وبلاطات شخصيات حكمت العراق كهارون الرشيد، والسيدة زبيدة، من العصر الإسلامي، وكسرى وغيره من العصر السابق للرسالة، أو عاشت فيه، بينما خلت من ذكر أي حاكم عاش خارج العراق لا قبل الإسلام ولا بعده، ولو كتب الكتاب في مكان آخر لتأثر برجال آخرين ومدن أخرى.

مستوى سرد الحكايات

لا يمكن مقارنة لغة ومفردات ومستوى سرد حكايات الكتاب بنظائرها في ألف ليلة وليلة، وفي هذا المجال تبدو الأخيرة شديدة الفصاحة ـ بالرغم من أنها كتبت في نفس المحيط والمدينة على الأرجح ـ والسبب يعود لزمان الليالي لأنها انشأت في عصر ازدهار الدولة العربية الإسلامية وفي ظل مستوى علمي وأدبي كان يسود معظم أرجاء العالم الإسلامي، فلقد ذكر ابن جبير أنه كان يتكلم العربية لا داخل ما يسمى الوطن العربي الآن بل حتى بلاد فارس والروم وآسيا الوسطى وبلاد ما وراء النهر وخراسان والسند[٢] وكل تلك البلدان تتكلم لغاتها الحالية في هذا الوقت، ولعل ما يثبت كلام ابن جبير أن العربية تركت في هذه اللغات جذوراً تتراوح بين النفاذ بعمق سحيق كما في اللغات الفارسية والتركية والأفغانية والأردية، أو النفاذ السطحي كما في اللغات الأذربيجانية والتركمانية والكردية.. الخ.

إن صح أن هذه الحكايات كتبت خلال ٧٠٠ ـ ٧٥٠ هجرية فذلك يعني أن قرناً أو بعض قرن مضى على الدمار الذي خلفته النار المغولية التي أحرقت الأخضر واليابس في العراق، وقضت على كافة مؤسساته التعليمية والثقافية، وهذا يعني بالضرورة أن ما بقي من الثقافة والمثقفين لا يعدو إلا أن يكون صدى أجوف لرنين صوت اندثر، وبهذا نجد

للكاتب عذراً كافياً لتواضع تعبيره، وتدني مستوى سرده وتخلف أدواته الكتابية، فهو يستعمل لغة فيها الكثير من الأخطاء اللغوية والنحوية كما رأينا في موجز الحكاية، بالرغم من ذلك فنحن راضون لا بل مبتهجون فلولاه لفقدنا ما وصل إلينا من هذا السفر النفيس من أدبنا الشعبي.

الاستشهاد بالشعر

يقل الاستشهاد بالشعر في ثنايا الحكايات، على عكس الكتب الشعبية والقصص والنوادر والمقامات التي ألفت في العصر العباسي، وهذا يدل على نضوب عيون الثقافة تحت الحكم المغولي، ويبدو هذا واضحاً في المقارنة مع ألف ليلة وليلة، فالشعر هنا ضئيل جداً بالقياس الى الآثار التي سبقته، يذكر جامع الحكايات بعض شعر لا يخلو من الشوائب والأخطاء السابقة التي تعتري النثر:

لئن نزحت داراً بنا وتباعدت

وشط مزاراً بيننا وتعذرا

فلا مجال لنصب دار ومزار.

أو:

أضر بي الهوى من كل باب

وغيرني **ونقّص لي** شبابي.

ونغض تستعمل لازمة: نغص عليه، ومتعدية: نغصه.

أما البعض الآخر من الشعر المتواجد بين دفتي الكتاب ـ وهو أكثره لحسن الحظ ـ فمما شاع في العصر العباسي من عيون الشعر الفصيح ويذكره المؤلف مع ذكر البحر.

الغني والفقير

في ثنايا الحكايات صراع كبير بين الغني والفقير، صراع دفين غير مصرح به، فالغني دائماً لئيم حقير دساس مؤامر يبتز الفقير الساذج ويستخدمه لتحقيق مآربه ومن ثم يدمره، فالغني الساجد للصنم استعان بإبان بن سعيد بن العاص واستنفد طاقته في إيصاله إلى مراده الذي أوقف حياته على تحقيقه وبعد أن وصل الى التاج ولبسه أمر بقتل إبان، وكذلك فعل الثري بالأحدب الفقير الخياط الذي استغله هو وزوجته مدة طويلة ومن بعد سلمه الى الشرطة فجلدوه ونفوه من المدينة.

المرأة

المرأة في القصص داهية ماكرة تحوك وتحبك المؤامرات والدسائس وتنفذها بصبر وأناة وبصيرة وقوة، أما ضحاياها فهم الفقراء والسذج، فزوجة الثري ما أن رأت الخياط الأحدب ينظر إليها حتى شجعته، وأخذت تراقبه من روشن يطل على الشارع فإذا تسلم إجرة من زبون مقابل ما خاطه له أرسلت له خادمتها تستقرضه منه وهكذا جعلته يفلس ويكاد يموت من الجوع، أما المفلوج فتغرر به عجوز تريه ابنتها الفائقة الجمال وتمنيه على عقد قرانه بها لكنها ما أن تستولي على ماله تنصب له كميناً يقتله.

لكن القصة لا تخلو من فتيات ونساء شريفات ورعات تقيات، في عالم تسوده الجواري والغلمان والخدم والمؤامرات والفتن وتسلط الأجهزة القمعية في بقايا دول هزيلة.

الكتاب نافذة تطل على مجتمعاتنا العربية في عصورها المظلمة التي أعقبت سقوطها بيد المغول، تنقل بصدق وعفوية ماذا كان يجري فيها من حوادث، ما يسودها من أفكار، ما يستعمله الناس من وسائل وأدوات وملابس، كما أن الكتاب يعرض كيفية احتيال الناس على صعوبات الحياة، ولولا ما فقد منه أولاً، والإهمال الذي أحاط بتحقيقه وتدقيقه وجمعه ثانياً لكان من أعظم كتب التراث.

الهوامش

(١) وخلاً المركب مربوط بمعنى ترك، وشال الوتد بمعنى رفعه، هلب الخيل أي حثها على الإسراع، والعليقة أي الدابة المتروكة المسمنة، ومنضم أي مخبا مستور، ونسيّبه أي نتركه، وتباطش عليه أي عاركه وبطش به ومازالت سارية في لهجة عرب شمال العراق، وحياصته أي حزامه، وقعت عينه عليه أي رآه، وإيش يريد أي ماذا يريد، وهي فصيحة مدمجة من (أي شيء) مع التخفيف، و: فظليت يومي أي ظللت يومي، والله يسهّل عليك أي يرزقك، والبورانية أي الفاصولية الخضراء المطبوخة بالثوم والرز، والدفاتر العتق أي القديمة، والعرزالة اي السقيفة من القصب، وشعفته أي شعره، والصخام اي السخام، تدوّري على هلاكي أي تريدين هلاكي، دوّر على الدينار أي فتش على الدينار، ذوليك المدمغين اي اولئك الموسومين، أو المجرمين، وطمّوه أي خبأوه تحت التراب، ومليح أي حسن، ومسايل أي مسائل، وغير ذلك كثير.

(٢) أي إيران وتركيا وارمينيا وأذربيجان والدول الإسلامية فيما يسمى الإتحاد السوفيتي السابق وأفغانستان وباكستان.



السعر عشرة دنانير